محمّد جميل بيهم

هدية المؤلف الى مكتبة الجامعة الاميركية في بيروت
بيروت ١٥/١ اذار ١٩٦٥ محمد جميل بيهم

العرب والترك

في الصراع بين الشرق والغرب

•

دراسة تستعرض دور العرب
والترك في تنازع العالم على
السيادة وتتناول اوضاعهما
في العصر الحاضر

•

١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م

مقدمة الكتاب

درج الكتاب في تدوين التاريخ العالمي على سنة تكاد تكون واحدة من حيث تقرير احداثه متسلسلة حتى يبدو كأنه الكرة الارضية لا يرى الناظر اليها الا ما تقع عليه العين، ويمتد اليه البصر .

غير اني في هذا الكتاب ، الذي يستعرض بايجاز ما قام به العرب والترك في تاريخ الصراع بين الشرق والغرب ، وينوه بما اداه قومنا للمدنية العالمية من خدمات جسام ، حاولت ان اعصر التاريخ ، واضغط عليه حتى لا تبقى منه الا ذرات ألملمها من بعد ، واجمعها مرتبة على الحقب المتعاقبه ، اذا قرأها قارىء احاط علماً بمجمل الاحداث السياسية أو الاجتماعية دون جهد ولا عناء .

وقد بدأت هذا الكتاب بفصلين يوجز اولهما الصراع بين الشرق والغرب على السيادة والزعامة في العهد القديم ، ويحدد الثاني موقف العرب من هذا الصراع .

وختمته بفصلين اجملت في كل منهما تاريخ العرب والترك في العصر الحاضر ، وذلك استناداً الى ما قرأت ، وما شاهدت .

واني لأرجو ان اكون موفقاً فيما حاولت ، وان يلقى كتابي القبول بمقدار الجهد الذي بذلت ، خصوصاً وانه جاء ، على ايجازه ، محصول دراسات نصف جيل .

محمد جميل بيهم

الفصل الاول

صراع الشرق والغرب على السيادة
في العهد القديم

●

يتأرجح البشر ، افراداً وجماعات ، بين ايجابية تؤلف بينهم وبين سلبية تباعد تأرجحاً مستمراً كرقاص الساعة . فالانسان ايجابي بالنسبة لكونه اجتماعيا بالطبع مفتقراً الى التعاون مع ابناء جنسه لتأمين معاشه واهدافه . وهو سلبي ، في نفس الوقت ، لما فطر عليه من الطمع بنصيب أوفى من المعاش وبقسط أوفر من السيادة ، وذلك ضمن نطاق ناموس طبيعي اسموه « التنازع البقائي ، وبقاء الانسب . »

وبفعل هذه السلبية استهل الانسان حياته بصراع بين افراده ، وما قصة بابيل وهابيل الا رمز لهذا التنازع البقائي . ثم ما ان ارتقى في مجتمعه عن مستوى الفردية ، وشرع يفكر في خلق السماوات والارض حتى عزف عن تأليه المرئيات كالشمس والقمر وآمن بوجود إلهين : إله الخير وإله الشر ، وعالمين عالم الملائكة الاخيار وعالم الشياطين الاشرار ، فجاء هذا الاعتقاد دليلاً آخر

على تأصل السلبية في نفسه الى جانب الايجابية .

وكان الانسان كلما ازدادعدده ،واحتاج الى المزيدمنخيرات الارض ، وشعر علىشكل اكثر بشهوةالسيادة، يتطرق فيصراعه الى اساليب جديدة تتفق مع حالته الاجتماعية :

ففي عهد البداوة كان الصراع يدور بين القبائل والعشائر على شكل غزوات وغـــارات محلية ، ولكن الناس ما ان تحضروا واقاموا الدويلات حتى جعلوا الغزوات حروباً ، كما حدث بين بابل واشور في العراق ، وبين اثينا واسبارطة في اليونان ،وذلك على نطاق محلي .

وحينما اصبحت الدويلاتدولاً كبرى اتخذ الصراع بينالبشر ميداناً اوسع تعدى نطاق الوطن الواحد . وهذا ما وقع حينما اكتسحت تباعـــاً كل من دول اشور وبابل والفرس الامصار المجاورة لها ففتحت بلاد الشام والحثيين والفراعنة ، وحينما اتيح لمصر من بعد ان تفتح سوريا والعراق ، وان تتقدم الى ابواب نينوى .

وفي تلك العصور الغابرة كانت آسيا مهد البشرية والحضارة ، وكان تاريخها يعتبر بمثابة تاريخ العالم ؛ ولما ازداد عدد سكانهازيادة كبرى ، وافضت تلك الزيادة الى التزاحم على المعـــاش والسيادة تطلع اهلها الى ما حولهم فاذا بالعنصر الآري الذي كان ينتشر ما بين سيبيريا وبلاد المغول يغادر اراضيه تباعاً ،ومنهم من يتقدم جنوباً الى الهند ، ومنهم من يتقدم غرباً الى اوروبا ، ويواصل هجرته من بلد الى بلد فيها حتى يغمرها ، ويصبح فيما بعد بمثابة

الاصل لها . وهذا الاكتساح سجل شكلاً جديداً للصراع العالمي اذ اتسم بطغيان قارة على قارة .

وكانت اليونان في عداد الامصار الاوروبية التي اكتسحها العنصر الآري . ونظراً لقربهـا نسبياً من بلاد اشور وبابل مهد الحضارة القديمة ، ولدنو جزرها من فينيقية ومصر ، اللتين كانتـا ترفعان علم التمدن،اتيح لها ان تنشىءالحضارة الاوروبيةالاولى، وان تقف بالتالي موقف المبارز لآسيا .

وقد اشتبكت اليونان مع فارس بحروب متصلة ، حروب وان لم تكن موفقة بالنسبة لها الا انها انتهت مع ذلك بالحفاظ على استقلالها . ثم وقعت اليونان في حروب داخلية كان من عواقبها زوال هذا الاستقلال وانضمامها الى مكدونيا .

وكان فيليب المكدوني الذي استوى على عرش بلاده فيسنة ٣٢٠ ق م لا يطمع بان ينتزع علم الزعامة من اليونان فحسب ، وانما كان يريد ان يخلفها في مجابهه آسيا . ولما اتيح له ان يحتل اليونان اخذ يهم بفارس ، ولكن الاجل لم يساعده فترك لابنه الاسكندر ،الذي خلفه في سنة ٣٣٤ ق م،مهمة تحقيقهذهالمطامع .

وقد تسنى للاسكندر ان يدرك ابعد ممـــا كان يرمي اليه ابوه باستيلائه على آسيا الصغرى وفينيقية وفلسطين ومصر ، وبدخوله بابل ، ثم بتقدمه شرقاً الى تخوم الهند وغيرها . وهذا النصرالذي احرزه هذا الفاتح الاوروبي ربما كان اول نصر كبير احرزته اوروبا على آسيا ؛ ولكنه كان نصراً موقوتاً شأن كل الفتوحات العسكرية التي تقوم على التوسع المجرد . فما ان مات الاسكندر

الكبير حتى تقسمت امبراطوريته بين عماله وقوّاده اسوة بامثاله العسكريين الذين جاؤوا بعده كالخاقان اتيلا وجنكيز خان ، وانهارت دولته وكأنها لم تكن موجودة في الامس . وهذا الفراغ الكبير الذي جاء في اعقاب موت الاسكندر ترك المجال فسيحا لانتزاع دولة الرومان علم السيادة الاوروبية ، ولاضطلاعها باعباء الصراع الدائر بين الشرق والغرب . على ان امبراطورية الرومان وان كانت ذات صبغة عسكرية كدولة فيليب واسكندر المكدونية الا انها امتازت باحتضان المدنية اليونانية فكان ذلك مما ساعد على بقائها مدة طويلة عرفت خلالها بالنظام والعمران .

وكانت جمهورية قرطاجنة بنت فينيقية التي قامت بتونس في القرن السابع ق . م قد احتلت شبه جزيرة ايبريا (اسبانيا والبرتغال) ، وشرعت تزاحم روما على سيادة البحار ، كما تنافسها في التجارة . فادى هذا التنافس لتحول الصراع القائم بين الشرق والغرب الى هذين البلدين . وكان مقدراً لانيبال القرطاجني ان يكتسح الرومان في عقر دارهم ، ولكن التحاسد ، وهو داء الشرق القديم ، تفاقم امره وقتئذ بين زعماء قرطاجنة ، فحمل بعضهم على التخلي عن انيبال ، وافضى بالتالي الى زوال ملكهم في سنة ١٤٦ ق.م والى دخول قرطاجنة في حوزة الرومان . وحينئذ وقد حمى هؤلاء ظهرهم من عدو شرقي خطير تحولوا شطر الشرق الادنى : شطر مملكة انطاكية التي اشهرت بحروبها معهم فاستولوا عليها ، كما استولوا على ممالك اخرى في آسيا الصغرى ، واحتلوا في القرن التالي سوريا ، فمصر سنة ٨١ ق . م ، واعلنوها ولاية رومانية ، وذلك بعد

موت كليوباترة سنة ٣١ ق.م

ولكن عهد الفتح الروماني اخذ يلفظ انفاسه منذ نهاية العصر الجمهوري وقيام الامبراطورية في عام ١٤ ق.م . ذلك لان العهد الامبراطوري الروماني كان كالعهد العباسي العربي متسماً بالزهد في التوسع ، بغية الانصراف الى العمران . وقد انصرف الناس فيه حكاماً وشعباً الى التمتع بملاذ الحياة مما ادى الى فتور الهمم ، وافضى الى انحطاط الاخلاق . ولعل الامبراطور قسطنطين الكبير الذي استولى على عرش روما سنة ٣٠٦ ب . م استوخم المصير فنقل العاصمة الى قسطنطينية (٣٣٠م) التي بناها على انقاض مدينة توردا . وهو في ذلك كان لا يريد الانتقال الى وسط غير موبوء فحسب ، وانما كان يتوخى حماية النصرانية من الاضطهاد الذي كانت تلاقيه في روما تمهيداً الى جعلها دين الدولة .

بيد ان هذه البادرة افضت في التالي الى انقسام الامبراطورية الى دولتين وذلك بعد مضي نصف قرن ونيف على وفاته (٣٣٧ م) : دولة الرومان الغربية وقاعدتها روما ، ودولة الرومان الشرقية البيزنطية وعاصمتها قسطنطينية ، وكان الحد الفاصل بينهما مدينة اشقودرة .

وبينما كانت دولة روما تتابع الجهود لدفع خطر الشعوب البربرية المحيقة بها ، كانت دولة القسطنطينية تمضي في سبيل تحقيق اهداف مؤسسها في صدد التوسع بآسيا . وبعد ان بسطت سلطانها على الشرق الادنى وشمالي افريقية اصبحت في القرن الخامس للميلاد تمتد من البحر الادرياتيكي في الغرب الى دجلة في الشرق ، ومن اعالي بلاد التتر في الشمال الى بلاد الحبشة في الجنوب .

غير ان الشرق الذي انهزم امام الامبراطورية البيزنطية سجل
له نصراً جديداً على الغرب باكتساح اوروبا من الناحية الشمالية .
وبينما كانت روما تنام على اسرة وثيرة من الاطمئنان انقض اتيلا
على رأس قبائل الخن (**Les Huns**) على اوروبا وجعل الشعوب
الجرمنية تتسابق ذعراً منه الى جوار الامبراطورية الرومانية ،
وكأنها تريد الاحتماء بها من خطر لا يبقي ولا يذر .

ولقد مات اتيلا سنة ٤٥٣ للميلاد في ايطاليا قبل ان يدرك
امانيه من روما ، وزال بموته الخطر لما اصاب قومه بعده من
الخور . ولكن الخطر على روما ظل ، في الواقع ، قائماً لان
الشعوب الجرمنية التي كانت قدملأت ايطاليا وبلاد المغول (فرنسا)
فراراً من اتيلا حملت الامبراطورية الرومانية على الانصراف مدة
سبعين سنة لدفعها عنها دون جدوى . وكانت روما تستعين ببعض
هذه الشعوب على محاربة البعض الآخر ، فاذا بالمتجندين عندها يمسون
الخطر المباشر عليها ، ويقضون عليها سنة ٤٧٦م ، ويقتسمون بلادها .

على ان دولة بيزنطة لم تسلم ايضاً من غزو قبائل الخن ،
فاضطرت لان تصون استقلالها بفدية من الاموال ادتها لهم .

وقد صفا لها الزمن مدة طويلة بعد القضاء على دولة روما ، ولا سيما
في عهد يوستنيانوس العظيم (٥٢٧ - ٥٦٥ م) . وقد وفق هذا
الامبراطور بقائد من خيرة القواد ، وهو بليزاريوس ، رفع اعلام
بيزنطة فوق روما ، ثم لم يلبث ان خف لاكتساح الشرق مبتدأ
بشمالي افريقية .

ولكن المهمة لم تكن سهلة ذلك لانه كان يعاصر يوستنيانوس

ملك آخر في فارس يضاهيه في العظمة ، وهو كسرى انوشروان
الملقب بالعادل . فكانت حروباً بينهما استمرت عشرين سنة من
٥٤١ الى ٥٦١ م انتهت بفوز كسرى على قيصر وبعقد صلح تقرر
فيه ان تؤدي بيزنطة الى فارس جزية سنوية تقدر بثلاثين الف
دينار من الذهب .

غير ان بيزنطة لم تهن ولم تستكن ، بل حاولت ان تسترد
شرفها فنشبت الحروب بينها وبين فارس . وكانت سجالاً ، حتى
اذا تبوأ ابرويز عرش الاكاسرة (٦١٤م) تمت له الغلبة على الروم ،
وانتزع منهم بلاد الشام ومصر ، فضلاً عن افريقية . وباغراء اليهود
فتك فتكاً ذريعاً بنصارى سوريا حتى قيل انه قتل منهم تسعين
الف شخص ، وانتزع منهم صليب المسيح .

وهذا الانكسار وما رافقه من العنف والعدوان على المقدسات
المسيحية هز اركان الامبراطورية البيزنطية ، واثار ثائرتها . فاذا
بالامبراطور هرقل يخف للثأر نافضاً عنه غبار اللهو والكسل ،
ويركب البحر الى آسيا الصغرى حيث التقى بالفرس وهزمهم
سنة ٦٢٢ م . ثم ظل يحمل عليهم خلال خمس سنين حتى اذا احرز
النصر النهائي في ٦٢٧ م اخذ يطاردهم الى نينوى . وبذلك تمت
الغلبة للغرب على الشرق ، واستمرت اعلام هذا منكسة الى ان
وثب العرب ورفعوها عالية فوق هامات الشرق والغرب .

غير ان ظاهرة جديدة في الصراع بين الشرق والغرب برزت
مع الاسلام مدارها اصطباغ هذا الصراع وتبنيه بصبغة دينية بدلا
من الصبغة الاقليمية الجغرافية . وكان مرد ذلك يرجع الى تحزب

المسلمين للروم ، الذين كانت تمثلهم بيرنطة الاوروبية ومعها الحبشة ، ضد الفرس زعماء الشرق الاوسط . وهذا ماسنبينه في الفصل التالي .

والجدير بالذكر ايضاً ان جزيرة العرب رغم توسطها بين الشرق والغرب ، وقيامهـــا في طريق الفاتحين من شرقيين وغربيين ، فقد استطاعت ان تصون استقلالها الامر الذي لم يتسن لسواها من الاقطار الاخرى . ويطيب لنا ان نترك الكلام هنا الى المستشرق الكبير جورج سال . قال :

« لقد استطـــاع العرب ان يحافظوا على استقلالهم منذ الطوفان حتى الآن . وكم من قائد انقض عليهم ولكنه ارتد عنهم خائباً : أجل فان ملوك بابل ، الذين طالما حاولوا ان يثبتوا اقدامهم في جزيرة العرب ، عادوا عنها خاسرين . ومثلهم اكاسرة فارس الذين خيل لهم انهم قادرون على ضرب الجزية على تلك الجزيرة . والواقع انهم لم يلبثوا ان باؤا بالفشل الذريع . واكبر دليل على ذلك اضطرار كامبيز الفارسي ان يستأذنهم في المرور عبر بلادهم حينما اراد الزحف على مصر .

ولما انتصر الاسكندر المكدوني على الفرس والقى الذعر في قلوب العالم خفت الدول الى تهنئته بالنصر العظيم ، وارسلت الوفود تتزلف اليه . اما العرب فانهم لم يحفلوا بانتصاره ، ولم تبد منهم بادرة تدل على الرغبة في التقرب منه .

ولقد عد الاسكندر هذا الموقف من العرب جفاء له فاعتزم ان يكتسح بلادهم بعد ان كان يتردد نظراً لمناعتها وصلابة اهلها . ولكن المنية عاجلته ، ولو انه فعل لارتد خائباً عنهـا اسوة

بغيره من الفاتحين . واني لا اعلم ان احداً من خلفائه ، في مصر ام في بلاد الشام ، وجد عنده الجرأة على التصدي الى جزيرة العرب

وكذلك الرومان فعلى رغم ما اتيح لهم من بسطة في الملك عجزوا عن تدويخ جزيرة العرب . وغاية ما ادركه بعضهم ان ابي احد قياصرتهم استطاع ان يضرب الجزية على بعض قبائل الشام ، وان ايليوس قائد القيصر اوغسطس ، الذي ساقه التهور الى اكتساح جزيرة العرب ، لم يلبث ان ندم على هذه المغامرة لمـــا مني به جيشه من الخسائر الكبرى بالاضافة الى الامراض الفتاكة . فارتد عنهـــا خاسئاً حسيراً . ولعل هذه الهزيمة التي اصابته كانت عبرة لغيره من الرومان فلم يتصد احد منهم بعده للعرب .

ولا عبرة بمـــا جاء على بعض الاحجار من ذكر لانتصار القيصر تريانوس على العرب ، كما انه لا صحة لمـــا ورد في هذا الشأن بلسان خطبائه ومؤرخيه الذين كانت ألسنتهم واقلامهم وقفاً على اطراء مـآثره . والواقع ان هذا القيصر عجز كغيره عن قهر العرب عجزاً فادحاً ؛ وان المنطقة التي فتحها في جزيرة العرب كانت تنحصر في بلاد ثمود ، وهي رقعة صغيرة في شمالي اليمن . ومع ذلك فان هذه البقعة لم تلبث الا قليلاً حتى ثارت عليه واضطرته قسراً للجلاء عنها . ولما حاول العودة اليها صدته ايضاً فتراجع عنها مرة اخرى ، وهو يجر اذيال الفشل . اهـ »

وان هذه المناعة التي تمتع بها العرب حيال الفاتحين كان لها اثر كبير من بعد في نجاح رسالتهم ، ذلك لأنهـا صانت اخلاقهم من

الفساد الذي يصيب اخلاق الامم المحكومة، وحافظت على الخلال الحميدة التي اشتهر بها العرب من مثل الاعتداد بالنفس والشجاعة والانفة وحب الحرية والغلبة والكرم، هذه الخلال التي كان لها الاثر الفعال في الفتوحات الكبرى التي احرزوها حينما وثبوا وثبتهم الكبرى في صدر الاسلام، وانفردوا برفع راية الزعامة على كل من الشرق والغرب .



الفصل الثاني

موقف العرب والاسلام بين كسرى وقيصر

اثر اليهود في تقسيم الجزيرة سياسياً

•

ما كان العرب على رأي واحد خلال النزاع الذي استمر قروناً بين كل من امبراطوريتي الفرس والرومان الشرقيين (بيزنطيين) من اجل الاستئثار بالسيادة . وما كانوا كلهم حزباً لفارس التي كانت زعيمة الشرق القريب تناضل من اجل الحفاظ على سيادته . بل كان الانقسام قد تسرب الى صفوفهم في الناحية السياسية سواء من كان منهم في داخل الجزيرة ام خارجها، وكان ذلك يرجع الى عوامل سياسية ودينية وعشائرية تضافرت على تجزئة جزيرة العرب الى فئتين: فئة انصار الفرس، وفئة انصار البيزنطيين.

ذلك ان بلاد الرافدين دجلة والفرات كانت جزءاً من امبراطورية فارس، بينما كانت بلاد الشام ومصر محتلة من قبل البيزنطيين . وكانت كل واحدة من الامبراطوريتين تؤدي جعلاً، اثناء السلم، للقبائل العربية النازلة في الامصار التي تحكمها، وتستعين بها في الحروب التي تقوم بينهما . فيتقاتل عرب الشام وعرب العراق

دون ان يكون لقتالهم هدف يتعدى خدمة مـــآرب ومطامع الاسياد .

فكانت لخم في الحيرة ومن والاها بمثابة الجبهة لدولة فارس تجاه دولة بيزنطية ، كما كانت غسان في الشام ومن لف حولها في شمالي جزيرة العرب بمثابة الطليعة للروم في حروبهم ضد الفرس .

على ان تحزب العرب لكل واحدة من هاتين الامبراطوريتين المتناضلتين لم يقتصر على البلاد المتاخمة لكل منهما ، او الخاضعة لهما ، بل تعداه الى داخل جزيرتهم . وكان للمعتقدات اثر فعال ايضاً في هذا الانقسام .

كانت جزيرة العرب في الجاهلية على الوثنية ، حتى اذ اشتد الصراع بين اليهودية والنصرانية وغلب اليهود على امرهم في فلسطين وسائر بلاد الشام نقلوا معهم هذا التنازع الى جزيرة العرب .

أجل فلما اضُطهد اليهود في سوريا ، وهدم البيزنطيون هيكل سليمان بالقدس شرعوا يهاجرون تباعاً الى الحجاز ، وتقدم فريق منهم الى اليمن وغيرها ، فكانوا في ارض اسماعيل كأنهم في ارض اسحق ، وكذلك كان شأنهم حيث ما نزلوا في جزيرة العرب .

وكانوا يشنون حرباً باردة بين العرب على المسيحيين وحماتهم البيزنطيين لا هوادة فيها ويدعون الى دينهم . ولليهود اساليبهم فتهودت حمير سادة اليمن وبنو كنانة وبنو الحارث وفريق كبير من كندة وغيرهم ، ولمـــا تلقح هؤلاء بجراثيم البغض للنصرانية وحماتها بفعل الاسرائيليين انحازوا سياسياً الى فارس عدوة بيزنطة رغم ما بينهم وبينها من ابعاد في المبادى الدينية . وكانت فارس

تؤيدهم وهم يؤيدونها .

على ان بيزنطة لم تقف مكتوفة الايدي حيال الحملات التي كان اليهود يشنونها عليها وعلى دينها في جزيرة العرب ، بل شرعت هي وحليفتها الحبشة المتنصرة ترسلان البعثات التبشيرية اليها ، وتوفدان البعثات الى اسواقها في المواسم تدافع عن النصرانية ، وتدعو اليها في كنف حرية الرأي التي امتاز بها العرب . وكان لها أعوان بين بعض العشائر العربية مثل آل غسان بالشام الذين تنصروا ، فاذا بالنصرانية تنتشر ايضاً في الجزيرة ، ولا سيما بين قبائل من ربيعة وقضاعة ولخم وتجعل بالتالي هؤلاء المتنصرة حزباً للروم ضد فارس .

واما الوثنية فقد ظلت قائمة في اواسط جزيرة العرب الى حدانها كانت هي وحدهـــا التي تطبعها بطابعها الخاص . وكان العدنانيون في الحجاز ، وفي طليعتهم آل قريش قوم النبي هم حماتها المناضلون في سبيل الحفاظ عليها .

غير ان هؤلاء العدنانيين لم يكن لهم شأن يذكر كحمير وغسان ولخم وغيرهم من ملوك العرب ، وانما يقتصر شأنهم على الناحية الروحية . كانوا سدنة الكعبة التي كانت تجمع في رحابهـا ما ينوف على ثلاثماية إله يحج اليها العرب في كل عام ، ويعقدون الاسواق حولها في المواسم .

ولم يكن للعدنانيين مورد آخر يعيشون به غير تلك الموارد الضئيلة التي تأتيهم من الحج ومن اسواق العرب بالاضافة الى اعمال بعضهم التجارية . على ان اختلاطهم الدائم بالقبـــائل الاخرى وبالامم المجاورة ، وذلك اثناء رحلاتهم التجارية كان قد فتح اذهانهم وهذب

مواهبهم الى حد انهم لم يعودوا جهلاء يفضلون الوثنية على ما كانت
تبشر به المسيحية واليهودية . ولكنهم كانوا – لمنافعهم الخاصة –
لا يرضون بديلاً عن هذه الوثنية التي هي مصدر سيـــادتهم
ومورد عيشهم .

واما في الناحية السياسية فقد كان العدنانيون على مذهب حمير ،
اقيال اليمن حلفاء فارس ، ومثلهم سائر الوثنيين في جزيرة العرب .
وكانت حمير التي استطاع اليهود ان يوجهوها شطر فارس وفية لكسرى
تذكر له فضله اذ ساعدها على اجلاء الاحباش النصارى من بلادها
واتاح لها استرداد استقلالها .

وكان لحمير المتحضرة نفوذ بين العرب كبير ، كما كانت لهـا
سيادة معنوية مرموقة تشبه سيادة الخلفاء العرب على المسلمين ، هذا
فضلاً عن ان الوثنيين من العرب كانوا يجدون في مجوسية فارس
قرابة في الدين هي اشد مما كان بينهم وبين اصحاب الكتب
السماوية من صلة فينحازون الى كسرى دون قيصر . وكان لليهود
الكثيرين في الحجاز اثر فعال في هذا التوجيه السياسي . ولا بدع
ففي كل واد اثر من ثعلبة .

وولد محمد في سنة ٥٧١ م ابان الحروب المستعرة بين كسرى
وقيصر ، وخلال الفوضى السياسية المستحكمة في جزيرة العرب ،
فضلاً عن الفوضى الاخلاقية . وما ان دعا الى دين جديد ، عقب
بلوغه سن الاربعين ، حتى ارتعدت فرائص قومه في مكة ،
وطفقوا يؤذونه ويؤذون المؤمنين به ، ويتآمرون على قتلهم .
وما كان ذلك لانهم كانوا ينكرون عليه عناصر رسالته ، بل لانهم

وجدوا في هذه الرسالة قطعاً لارزاقهم ، وتهديماً للسيادة الروحية
الوحيدة التي كانت لهم بين العرب ، فضلاً عن ان فيها انقلاباً
آخر في الناحية السياسية بتوجيه العرب شطر اهل الكتاب ، وعلى
رأسهم قيصر دون كسرى .

واما نصارى جزيرة العرب وما حولها في الحبشة وبلاد بيزنطة
فانهم على عكس ذلك ، رحبوا برسالة محمد اذ وجدوا فيها تشابهاً
كلياً في المبادىء الاساسية التي يدعو اليها كتابهم ، وعدها بعض
علمائهم مذهباً من مذاهب المسيحية الكثيرة التي كانت منتشرة ،
هذا فضلاً عن انهم رأوا في دعوة محمد مؤيداً لسياستهم ضد فارس
المجوسية على اعتبار ان عدو عدوك هو صاحبك .

لذلك فقد اكرم الاحباش مثوى المهاجرين المسلمين الذين
لجأوا اليهم مرتين فراراً من عسف اهل مكة واضطهادهم لهم ،
كما ان الامبراطور هرقل استقبل برحابة صدر ، فيما بعد ، الرسالة
التي وجهها اليه الرسول يدعوه فيها للاسلام ، خلافاً لمـــا فعل
كسرى برويز حينما تلقى دعوة محمد .

ان كتاب محمد جاء مصدقاً لما جاء به موسى والمسيح وداعياً
الى الله على ما دعا اليه موسى وعيسى وسائر رسل وانبياء اليهود
والنصارى ، ومسفهاً عبادة الوثنية والمجوسية ، فكان من الطبيعي
ان يقوم بينه وبين اهل الكتابين تعـاطف متبادل لا يقتصر على
النصارى وحدهم ، بل يشمل اليهود ايضاً . ومن اجل ذلك فان
هؤلاء قـــابلوا بالارتياح دعوته وهو في مكة ، كما وادوه عقب
هجرته للمدينة . ولكنهم ما ان لمسوا خطره عليهم من بعد حتى

قاصبوه العداء ، وألبوا عليه القبائل ، وتآمروا عليه وعلى المؤمنين به . وكان على رأسهم عميدهم كعب بن الاشرف مما حمل محمداً على التنويه بمودة النصارى دونهم .

وكان من عواقب هذا التعاطف ظهور المسلمين بمظهر التحزب للنصارى علانية في سنة ٦١٤ م اثناء تلك الحروب المستعرة بين كسرى وقيصر ، ولا سيما حينما تغلب شهريار قائد برويز ملك فارس على خنس قائد هرقل امبراطور الروم في ازرعات وبصرى ، وهما ادنى الشام الى الجزيرة العربية .

على انه كان لهذا النصر المبين اثر مختلف الوقع : فقد شق هذا النبأ على المسلمين في مكة بقدر ما فرح به المشركون جميعهم فيها وفي سائر الجزيرة . وكانت فرصة لان يتحدى هؤلاء اصحاب محمد ويقولوا لهم : « انكم اهل كتاب والنصارى اهل كتاب مثلكم . وقد ظهر اخواننا اهل فارس على اخوانكم من الروم ، ولنظهرن عليكم ايضاً . »

ولما بلغ الرسول هذا التحدي ازداد ألماً لان ما اصاب الروم من انكسار تعدى اثره بلادهم الى قلب الجزيرة . ولكنه لم يلبث ان استبشر وبشر المؤمنين بما اوحي اليه :

« أ . ل . م . غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . في بضع سنين لله الامر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله . ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم . وعد الله لا يخلف الله وعده . ولكن اكثر الناس لا يعلمون . »

وكان ابو بكر ، الذي لقب بالصديق لما اشتهر به من اخلاصه

في تصديق كلما يوحى الى الرسول ، كان اشد الناس فرحاً لهذه البشرى فلم يتمالك ان يخرج الى المشركين ويقول لهم :

« فرحتم بظهور اخوانكم فلا تفرحوا فوالله لتظهرن الروم على فارس . اخبرنا بذلك نبينا صلى الله عليه وسلم . »

ولكن الكفار هزئوا به وبما تنبأ رسوله ، وتجاسر عليه ابيّ ابن ابي خلف الجمحي وقال له :

« كذبت يا ابا فضيل . »

فقال له ابو بكر : « انت اكذب يا عدو الله ، اجعل بيننا اجلاً اناحبك (اراهنك) عليه . »

فتراهنا على عشر قلائص (ابل شابة) وجعلا الاجل ثلاث سنين . ولما رجع ابو بكر الى الرسول ونقل اليه ما حدث . قال له محمد مستدركاً :

« ما هكذا ذكرت انما البضع ما بين الثلاث الى التسع فزايده في الخطر (المال الذي حصل عليه الرهان) وماده في الاجل . »

فخف ابو بكر لمداركة الامر ، ولما لقي ابيا الجمحي تعرض اليه بذكر الرهان ودار بينهما الحوار التالي :

الجمحي : « لعلك ندمت ؟. »

ابو بكر : « لا وانما تعال ازايدك في الخطر ، وامادك في الاجل ، فاجعلها مائة قلوص الى تسع سنين . »

الجمحي : قد فعلت .

فعدلا الرهان بالتراضي ، ولكن ابيا الجمحي كان يتوقع مع

سائر المشركين ان يضطر محمد وصحبه لمغادرة مكة فراراً من الضغط الشديد الذي كان يقع عليهم من اهلها ، وخاف ان يخرج ابو بكر من مكة خلال مدة الرهان . فاتاه وطلب منه ان يقيم كفيلاً على ما تعاهدا . ولكن ابا بكر لم يكن دون الجمحي ايماناً بانه سيربح الخطر . فقدم كفيلاً ابنه عبد الله بن ابي بكر .

وفي الواقع فقد اضطر محمد وصحبه الى الهجرة من مكة الى المدينة سنة ٦٢٢ م الى حيث يؤمل ان يؤدي رسالته على حبها وكان ذلك قبل ان ينتهي موعد الرهان . وشرع محمد منذ ان استقر به المقام في يثرب يعترض قوافل مكة ، ليضيق عليهم في حياتهم الاقتصادية ، وكان نصيب ابي الجمحي جراح اصابته حينما بارز محمداً في غزوة أحد افضت الى موته .

ولكن الرهان ظل مكفولاً عند الورثة ؛ ولما ظهر الروم على الفرس ، كما بينا في الفصل السابق ، وذلك في نفس المدة التي انتصر فيهــا المسلمون على المشركين في وقعة بدر ، كان فرح المؤمنين مزدوجاً بنصرين احرزاهما في وقت واحد . بالاضافة الى اغتباطهم من جراء احراز ابي بكر خطر الرهان . وقد استوفاه فعلاً من ورثة ابي الجمحي ، وجاء به الى الرسول ، فامره بان يتصدق به على الفقراء .

هذا وظلت جزيرة العرب على انقسامها الى فريقين : فريق تتجه ميوله نحو فارس وفريق آخر يتحزب للروم ، وكل منهما يشعر في قرارة نفسه بانه تابع وليس بمتبوع . حتى اذا غمرها الاسلام ووحد كلمتها أهّلها لان تؤمن بسيادتها ، ولان تخف الى تناول

علم الشرق من فارس ، كما اهلها لان ترفع هذا العلم خفاقاً ليس على ربوع بيزنطة في آسيا فحسب ، بل على معظم العالم .

وكان كل ذلك من عمل فرد واحد . حقاً ان محمداً توفي سنة ٦٣٢ م وذلك قبل ان تتحقق امــانيه فيما وراء جزيرة العرب ، ولكن روحه التي تقمصت الى قومه ظلت تدفعهم بايمان الى ادراك هدفه الاسمى كاملاً ، فانتصروا ، واستمروا اسياداً للعالم ما بقيت تلك الروح الشريفة تشع في نفوسهم .



الفصل الثالث

العالم عربي خلال اجيال

•

ثلاثة قرون تجلت فيها روعة العرب وعظمتهم . تبتدىء بغرة القرن الثامن للميلاد ، وتنتهي في ختام العاشر . وفي مطلعها بزغ نجم العرب اللامع . وفي نهايتها كان افول هذا النجم ودخول العرب في ظلمة الجهل والانحلال .

وما نكون مغالين اذا اعتبرنا العالم خلال هذه القرون الثلاثة عربياً الى حد اننا اذا انتزعنا العروبة منها وجردناها من آثار العرب ومآثرهم ، سواء اكان ذلك في السياسة أم في الاقتصاد والثقافة والعمران ، بدت على حال من الذبول والانحطاط حتى لا يبقى رونق لها ولا ازدهار .

— في الناحية السياسية —

خلف الوليد اباه عبد الملك بن مروان في غرة القرن الثامن للميلاد فوجد السبل ممهدة له لان يطمع بفتح العالم من مشرقه الى مغربه فيرفع علم العروبة عالياً . وفي الواقع فقد خفقت في عهده رايات العرب من شمالي اسبانيا الى تخوم الصين . وكان يخر ساجداً

عند كل بشرى ترد اليه بانتصار جديد ، ولكثرة سجوده روى ابن الاثير عن احد معاصريه انه قال : « ظننت انه لا يرفع رأسه »
وخلف العباسيون الامويين على هذا الملك العظيم ، فما طمعوا بزيادة انما تحولوا عن الحروب الى العناية بالحضارة ، فدخل العرب بهم دوراً جديداً . غير ان دولة كبيرة كانت لا تزال رابضة في جوارهم تتحين الفرص لاسترجاع الامصار التي دخلت في حوزة العرب ، وتحيك لهم المؤامرات في تلك البلاد ، واعني بها الامبراطورية البيزنطية . فكان على العباسيين ان يقفوا حيالها موقفاً حازماً . واقتفى المهدي (٧٨٦م) اثر ابيه في شن الغارات عليها حتى بلغت جيوشه خليج قسطنطينية ، وما عادت عنها الا بعد ان فرضت على الملكة ايريني جعلاً سنوياً كانت تؤديه عن يد وهي صاغرة . ولما نقض الامبراطور نيكفوريوس العهد حمل عليه هارون الرشيد واضطره لأن يستمر على تأدية هذا الجعل ، وانصرف الى متابعة الاعمال الانشائية .

وبلغ من عطف العباسيين على الحضارة انهم ما ان اصطدموا في شمالي افريقيا بالمتاعب ، وخصوصاً من قبل البربر ، حتى تخلوا عن السلطة الى عمالهم بني الاغلب في تونس مكتفين بالخطبة لهم ، وهي عنوان السيادة .

وفي الواقع فان بني الاغلب (١٨٤ — ٢٩٦ هـ) كفوا العباسيين مؤنة دولة الادارسة في مراكش (١٧٢ — ٣٧٥ هـ) التي قامت تنازعهم الخلافة ، وتنافسهم في التقدم والعمران . بل اصبح بنو الاغلب ، طوال القرن التاسع الميلادي ، اسياد البر والبحر . فكانت النار توقد لهم في ساحل سبتة قبالة جبل طارق للنذير بالعدو

فتتصل بعاصمتهم القيروان ، ومنها الى الاسكندرية . كل ذلك في
يوم واحد . عدا ان البحر المتوسط اصبح منذ اواسط هذا القرن
منطقة نفوذ لهم ، تخفق اعلامهم فيه على جزر مالطة وقورسيكا وباليارة
وسردينية وصقلية وبالرمة بالاضافة الى سائر الجزر الصغيرة .
وكأن بني الاغلب ، وقد رأوا ان البحر المتوسط اصبح بحيرة
عربية ، وان اسبانيا وجزءاً من فرنسا دخلا في حوزة العرب ،
وان بيزنطة اصبحت تؤدي لهم الجزية ، كأنهم حزموا الرأي على
ان لا تبقى في طرف من اطرافه دولة تخرج عن نطـاق نفوذ
قومهم فاكتسحوا ايطاليا واستولوا على بعض امصارها الجنوبية .
وتقدموا كرتين شطر روما ، ثم لم يرتدوا عنهـا الا بعد فدية
افتداها بها سيد الفاتيكان الاعظم .

ثم كان القرن العاشر للميلاد اكثر ازدهاراً للعرب في الناحية
السياسية . فبالاضافة لما اصابت دولة الادارسة بمراكش ، في مطلعه ،
من تقدم فـان الفاطميين بسطوا خلاله سلطتهم على الشرق الادنى
والمغرب ، وخلفوا بني الاغلب على جزر البحر المتوسط وقواعده :
فنافست القاهرة بغداد وقرطبة . بل كاد الفاطميون في القرن
التالي ينتزعون الخلافة من العباسيين ، ولولا آل سلجوق الذين
كانوا يبسطون سلطانهم على الدولة العباسية ويدافعون عنها لأدرك
الفاطميون امنيتهم .

وبينما كانت الدولة الفاطمية في الشرق ترفع شأن العرب الى
مستوى المثل العليا كان امويو الاندلس ينافسونها في كل شيء حتى
في صدد الادعاء بالخلافة : فالقرن العاشر كان عصر كل من عبد الرحمن

الثالث في قرطبة وابنه الحكم الثاني . ذلك العصر الذي بلغت فيه
الخلافة الاموية الاندلسية ارفع منزلة في الازدهار ، وقد اتاحت
الفرصة لعبد الرحمن الثالث ، من جراء اشتغال الممالك الاوروبية في
شؤونها الخاصة ، لان يتفرغ لابن حفص الخارج عليه بالاتفاق مع
حليفه ملك لاون ، ولان يقضي القضاء المبرم على مطامعهما . ثم لان
يتحول الى خطة هجوم على الدول الاوروبية وغير الاوروبية
المعادية فيبلغ منها ما لم يبلغه غيره . ولما قضى على خصومه اعلن
الخلافة لنفسه ، فظهرت فيه بمظهر دونه كل مظهر في الشرق .

هذا وكان سلطان العرب في الشرق الاوسط قد اخذ يتضاءل
خلال هذه الحقبة ازاء التيار التركي الجارف . ولما اتيح للديلم ان
يقبضوا على زمام السلطة في بغداد منذ منتصف القرن التاسع خف
الفرس الى انشاء الدول المستقلة ، واعظمها البويهية ، كما نشط الترك
الى اقامة دول اخرى ، واهمها الغزنوية والسلجوقية . وقد دالت
دولة العرب وقتئذ في الشرق ، ولكن عظمتهم ظلت مـاثلة امام
العالم تملأ الآذان والاسماع ، ولا سيما لمـا ادركته دولتا قرطبة
والقاهرة في ذلك الحين من شأن كبير في العمران والاتساع ، ولان
المتغلبين عليهم من ترك وفرس ظلوا يحفظون لخليفة بغداد مقامه ،
وللخلافة مكانتها . هذا ! فضلاً عن ان هؤلاء المتغلبين تابعوا رسالة
العرب بالاستناد الى لغتهم ودينهم وحضارتهم .

— في الناحية العمرانية —

لما استوفت آلة الحكم قسطها من التجدد واتيح لعبد الملك بن
مروان تأمين الاستقرار في المملكة كان اول ما تاقت اليه نفسه

الانصراف الى العمران واقامة الصروح الخالدة. وهذه قبة الصخرة
التي بنيت بالقدس في عهده ما تزال تنوه بمآثره. وقد اتفقت اقوال
هاتيو لويس وفركسون على اعتبارها اجمل ما خلده التاريخ من
الآثار. على ان عهد العمران الحقيقي الذي تعدى حدود القصور
والمعابد هو عهد ابنه الوليد: فالوليد خالد الذكر ليس بالجامع
الاموي بدمشق الذي اتمه بعده اخوه سليمان فجاء معجزة من
معجزات الفن، ولا بالمساجد الفخمة التي شيدت في اطراف
مملكته الفسيحة فحسب، ولا سيما في القدس والمدينة، وانما بما كان
له من العناية الفائقة بالمشاريع العامة الاجتماعية والانسانية. فقد
اكثر الوليد بن عبد الملك من اقامة المستشفيات ودور الايتام
وملاجيء العجزة والعميان، ومصحات المجذومين والمصابين
بالامراض السارية، وحبس عليها الاوقاف. والى ذلك فقد اجزل
المخصصات للمساكين وابناء السبيل، وحرم عليهم السؤال
والاستجداء، واقام دور الضيافات والتكايا، واجزل للعلماء العطايا.
هذا فضلاً عن عنايته بالطرق وتشييد الجسور والسدود وتعمير
الخانات وتأمين الامن، حتى كأن الوليد كان يعيش في القرن
العشرين. ومن آثاره الخالدات، وآثار خلفائه من بعده، مجاري
المياه في دمشق ونظامها الدقيق الذي لا نزال نراه والذي اتاح
لكل دار احواضاً تتدفق اليها المياه من القنوات التسع الرئيسية
التي شيدت لجر المياه الى انحاء العاصمة.

وكما ان غزارة الثروة في ايامه أمنت له تحقيق هذه الرغائب
العمرانية، فان اليسر الزاخر الذي توفر بين الشعب ادى ايضاً

الى التنافس بينهم في تشييد القصور الى حد ان الناس، على رواية
ابن الاثير كانوا يلتقون في زمانه فيسأل بعضهم بعضاً عن البناء.
ولما صار الحكم للعباسيين وقامت الثروات العامة في عهدهم على
اسس طبيعية من جراء عنايتهم بالتجارة والزراعة والصناعة، عناية
اوفر من قبل، اصبح اليسر شاملاً، فتدفقت الاموال على بغداد
العاصمة وعلى جميع قواعد التجارة من سمرقند الى حلب، وفي
جملتها البصرة وعمان وسيراف، فكان العمران بالتالي ليس عاماً
فحسب، بل بلغ حداً يشبه الخرافات. هذا ولا تزال قصة الف ليلة
وليلة تترك لنا امثلة على العمران والبذخ والمرح التي كان يتمتع
بها العالم العربي في عهد بغداد.

على ان العرب كانوا على وجه عام شغوفين بالعمران ليس في
المدن التي وجدوها قائمة فحسب، بل بانشاء مدن جديدة كانت
تحفة الزمان. فالبصرة والكوفة والفسطاط والقاهرة والرملة وبغداد
وسامراء وغيرها من المدن التي لا تزال ذكرياتها ماثلة امام
الانظار، تدل على مدى عنايتهم بالعمارة.

هذا وكان بنو ادريس في المغرب معاصرو العباسيين
ومناظروهم يحاولون ان ينافسوهم ايضاً في العمران وقد حاولوا ان
يجعلوا من عاصمتهم فاس بغداد ثانية. وقد روى بعضهم ان فاس
كانت في القرن العاشر للميلاد آهلة بخمسماية الف من السكان،
وفيها ٨٠٠ مسجد ومكتبة قيمة. وانه كان في جملة كتبها كثير
من المخطوطات اليونانية واللاتينية. واما بنو الاغلب بتونس فان
آثارهم في القيروان وغيرها لا تزال تدل عليهم. وقد عني جورج

مارسه بالتنويه ببعضها ، فضلاً عن غيره من المؤلفين.

واذا قصر الادارسة والاغالبة بشمالي افريقية في ميدان اللحاق بالعباسيين في العمارة فان الاندلسيين اتيح لهم ان يسبقوهم في هذا الميدان . اشتهر بذلك عبد الرحمن الثالث في مطلع القرن العاشر . وهو منشىء مدرسة قرطبة الطبية التي اقامت حكومة اسبانيا سنة ١٩٢٩ مهرجاناً علمياً لمناسبة مرور الف سنة على تأسيسها ؛ وهو منشىء مكتبة قرطبة ايضاً التي كانت تضم نحو اربعمائة الف مجلد خطي على ما روي ابن خلدون والمقري . هذا فضلاً عن معاهد ومراصد وبيمارستانات ومكتبات ومدارس اخرى كثيرة كانت منتشرة في عهده باطراف المملكة .

وخلف الحكم الثاني اباه فجرى مجراه في تنفيذ ذلك البرنامج العمراني بالعناية الفائقة ، واصبحت اسبانيا في عصره ام الدنيا في الحضارة والعمران ، وخصوصاً في ناحية تحقيق المنافع العامة للشعب .

وكان كثيراً ما يقضي احدهم اجله قبل ان يتمكن من اكمال بناء التصميم الموضوع فيعمل خلفه على اتمامه . ثم يتعاقب اكثر من واحد قبل ادراك نهايته : فقد قصرت حياة عبد الرحمن الاول عن انجاز قصر قرطبة وجامعها فتعهدهما خلفاؤه ، وتعاقب على تعمير المسجد المذكور ثمانية من الخلفاء بذلوا في سبيل ذلك ما لا يحصى من الاموال ؛ كما ان عبد الرحمن الثالث قضى في تشييد قصر الزهراء خمسة وعشرين سنة ، ثم ما زال هذا القصر قيد الزيادة والتعمير ست عشرة سنة اخرى في عهد ابنه حتى اكتمل عمرانه . وان الجهود الطويلة

المستمرة التي بذلت في سبيل عمارة هذا القصر تكفي للدلالة على ما انفق من الاموال . ولم يكن قصر الزهراء ومثله قصر الزاهرة الذي ابتناه المنصور بن ابي عامر في الطرف الآخر من قرطبة الا مدينة حصينة . فما بين القصرين المذكورين اللذين اتصلت ارباضهما بقرطبة على الوادي الكبير كان الناس يجتازون عشرة اميال يستظلون فيها نهاراً بافياء القصور والجنائن ، ويستضيئون ليلاً بانوار المصابيح المرفوعة على طول الشارع ، وكأنها سلسلة مرصعة بالماس .

ولا تعجب ان روينا لك ان قرطبة كانت اوفر اتساعاً من لندن في هذا العصر : فقد بلغت مساحتها ١٤٤ ميلاً مربعاً بينما ان مساحة لندن الآن تقدر بـ ١٣٧ ميلاً . على ان قرطبة امس وان قصرت عن لندن اليوم في عدد السكان اذ لم يتجاوز عدد اهلها المليونين الا ان هذه القلة بالسكان نسبياً مع كثرة الاميال في مساحتها هو دليل على الرخاء الذي كان يتمتع به اهلها وعواهلها . كما ان ما قيل بان نهر الوادي الكبير كان يدير وحده خمسة آلاف رحى لطحن الحبوب برهان على وفرة سكانها .

وكان بودنا ان ننوه ايضاً بعمران الاندلس عهد ملوك الطوائف ، وبما رفعوه من القصور ، وما نشروه من العمران على وجه عام اقتداء بالخلفاء الحقيقيين ، ولكن بطون التاريخ طافحة من هذه الامثلة ، فنكتفي بالاشارة اليها . ولا يزال قصر الحمراء في غرناطة الذي بناه ابو عبد الله الخزرجي ماثلاً امام الانظار ينوه بعظمة ذلك العمران ، ولا سيما حوضه الذي هو تحفة من تحف الفن .

هذا واذا تركنا الاندلس والمغرب وعدنا الى المشرق الى حيث قامت الدولة الفاطمية في مصر وما حولها فاننا نرى هناك عجباً : نرى قوماً تدفقت الثروة بين ايديهم فتفننوا في طرق انفاقها . فما بين قصور رائعة ومقاصير زاهرة ودور فخمة هدروا من الاموال ما يحسبه القارىء من الاساطير .

وهم الى ذلك اقاموا المتاحف المختلفة لاختزان الجواهر والرياش والامتعة والخيم والاسلحة والاطبية وسائر الاشياء الثمينة . وخصوا كل دار بصنف من هذه الاصناف شأن المتاحف العصرية ، وكان فيها ما لا يقدر بثمن ، خصوصاً من حيث القيم التاريخية والفنية . وحسبنا ان نعرف ان رشيدة بنت الخليفة المعز تركت في تلك المتاحف من النفائس ما قيمته مليون وسبعماية الف دينار .

واذا قرأت ما جاء في كتاب المقريزي من الامثلة على العمران والبذخ عصر الفاطميين، وانت تعيش في عصر التقتير، فانك لا تتردد في ان تعد ذلك من قبيل المبالغات ، ثم اذا تلوت كتاب فتح الطيب للمقريزي وغيره في وصف عمران الاندلس وسائر البلاد العربية خلت نفسك انك تسمع اخبار الجنان .

— في الناحية التجارية —

حقاً ان ازدهار الناحية الاقتصادية في تاريخ العرب ذلك الازدهار العظيم يرجع الى عهد العباسيين الذين اعاروا هذه الناحية جل اهتمامهم ، مثلما عنوا بالناحية الثقافية . ولكن من الانصاف الاشارة هنا الى فضل الامويين . اولئك الذين خلّفوا للعباسيين

بسطة في الملك لا مطمع بعدها لمستزيد حملت هؤلاء على الانصراف للانشاء والتعمير، وساعدتهم على رفع ما كان بين الامصار من حواجز سياسية، وعلى ما حدث بعد ذلك من تبادل المزروعات والمصنوعات بين اقطار الشرق ، فضلاً عن تبادلها بين الشرق والغرب، مما افضى بالتالي الى ثروة زاخرة شملت الامصار العربية كافة . على ان السياسة وان اسدلت الستار على كثير من مآتي امويي دمشق ، ولا سيما في العهدين العباسي والفاطمي إلا ان التاريخ العالمي لا يخلو من انباء فيها انصاف لهم . من ذلك ما رواه الكاتب الهندي « هومايون كبير» في مجلة تاريخ العالم (مجلد ٢ عدد ٢) حيث قال :

« بعد ان اعتنق العرب الاسلام ازدهرت روحهم وعبرت عن وجودها في جميع مرافق الحياة تقريباً . وكان من نتائجها العاجلة التوسع الهائل في الاساطيل العربية التجارية . وهناك دليل على ان جماعات من العرب استقرت بالقرب من كاليكوت بالهند قبل نهاية القرن السابع م ، وانشأت لها مؤسسات تجارية ناجحة »

فاذا صح هذا فتكون الخطوة الاولى في التوسع العربي الاقتصادي قد حدثت بحراً في عهد الامويين ؛ ولكن مما لا شك فيه ان ازدهار التجارة البحرية قد رافق الخطوة الثانية عهد العباسيين .

وكانت سيراف والبصرة على الخليج الفارسي اعظم مركز لنشاط العرب، ونقطة الانطلاق الاولى الى البحرين الهندي والهادي (الباسفيكي) . وقد انشأ ابو جعفر المنصور العباسي عمارة في خليج فارس ، في النصف الثاني من القرن الثامن للميلاد، قذف بها الى الهند، واجتازتها الى كانتون في الصين وغيرها ، فاستأثر العباسيون بذلك

بتجارة رابحة ما بين الشرقين الاوسط والاقصى ما بلغها احد قبلهم.
وفي هذا يقول المؤرخ الصيني فواي جنغ « ان المسلمين قبضوا على زمام التجارة ما بين الصين وسائر العالم منذ اوائل القرن الثامن الى اواخر القرن الخامس عشر . »

على ان بعض المؤرخين ذهبوا الى ان سفن العرب بلغت وقتئذ اليابان، وكانت ترتاد ايضاً، جزائر الملايو وجاوة وسيلان وسومطرة، فضلاً عن سواحل الهند الغربية .

وقد يرتاب احدنا في صحة هذه الاخبار لما نعهده في عصرنا من حقارة السفن الشراعية. والواقع ان هذه الانباء لا ريب فيها لان تلك السفن الشراعية التي كانت تشق عباب البحار الى هذه الاقطار النائية كانت على ضخامة لا نكاد نتصورها . وللاطمئنان الى صحة هذه الرواية حسبنا ان نذكر هنا كلام بوزرج بن شهريار الذي استقل سنة ٩١٨ م احد مراكب ذلك العصر حيث قال:

« وابحرت بنا السفينة من سيراف وعليها الف ومائتا راكب ما بين تاجر وبحار . وبعد سفر امتد احد عشر يوماً استطعنا ان نرى شاطىء ثاما (بمبي) عن بعد . وكان على كل سفينة عدد من الرماة وقاذفي النفط الملتهب، (حذراً من القرصان) كما كان عليها قوارب النجاة، وطيور الرؤية التي تطلق من السفينة اذا ضلت طريقها لتهديها الى البر »

هذا وكانت الهند هي المركز الاستراتيجي لتجارة العرب في تلك البحار . وقد افضى اتساع العلاقات التجارية بينها وبين البلاد العربية الى قيام شبه مستعمرات عربية في بعض ارجائها . وقد حدثنا

المسعودي حديث شاهد عيان عن تلك المستعمرات في رحلته الى الهند سنة ٩١٦ م قال :

« ان عشرة آلاف مسلم من سيراف وعمان والبصرة وبغداد استقروا في مدينة سيمور (بالقرب من بمبي) واستوطنوا حتى اصبحوا يعرفون بالبياصرة » (نسبة للبصرة)

كما ان ابن بطوطة الذي زار الهند واقام فيها والذي قربه اليه الملك طفلق ووهبه مالاً كثيراً واراضي، وعينه حاكماً على خمس قرى، واوفده الى الصين مبعوثاً له، ان هذا الرحالة العربي اشار فيما بعد الى ما كان للجالية العربية بالهند من المكانة الممتازة ، وجاء في كتابه الذي دون فيه اخبار تلك الرحلة سنة ١٣٣٤ م؟ ما نصه :

« ان تجار العرب كانوا يعيشون في خبايات (جويجورات) عيشة ترف، ويسكنون القصور المنيفة . وان اربعماية من اليمنيين كانوا يعيشون في مالابار في حي خاص بهم . »

وعلق ابن بطوطة على ذلك بقوله :

« ان ملوك الهندوس كانوا يتجنبون كل ما من شأنه ان ينفر العرب منهم لان قسطاً كبيراً من ثروتهم كان يتوقف على تجارتهم مع العرب . »

والى هذا فقد قرأنا في مجلة ثقافة الهند (مارس ١٩٥٠) مقالاً للدكتور تاراشند الهندي عدد فيه الامثلة على ما كان للجالية الاسلامية في الهند من النفوذ وعلق على ذلك بقوله :

«قبل ان ينتهي الربع الاول من القرن التاسع اعتنق الاسلام آخر ملوك اسرة شيرامن بيومل في مليبار وهاجر بعد اسلامه

الى البلاد العربية واوصى خيراً بالمسلمين .»

كل ذلك حمل احد علماء الانكليز على القول ان المحيط الهندي

« ظل الى نهاية القرن الخامس عشر بحيرة عربية »

على ان نجاح عرب المشرق في الاتجار براً لم يكن دون نجاحهم في البحر . وذلك ما جعل بغداد بمثابة مركز العالم التجاري . إذ كانت ، فضلا عما تصدره من انتاجات مملكتها الزراعية والصناعية تستقبل السلع الاجنبية التي تتدفق عليها من الشرق والغرب وتوزعها على العالم حسب الطلب . وفي كتاب المسالك والممالك لابن خوردابه تفاصيل وافية عن هذه العلاقات التجارية بين العالم العربي وغيره وتنويه بما كان لبغداد من المكانة في هذا التبادل التجاري .

هذا ولقد روى احد المؤرخين ان الطريق البري التجاري بين شرقي آسيا وغربيها تم شقه في القرن الرابع للهجرة (العاشر للميلاد) . والواقع ان هذا الطريق كان موجوداً من قبل ، سلكه الفاتحون العرب في اتجاه الشرق الاقصى ، وسلكته قوافل تجار العرب والمسلمين بعد الفتح ، وكان لهؤلاء اتصالات بروسيا في التجارة ، واليهم يرجع الفضل في نشر الاسلام في اواسط آسيا وفي الصين والهند وغيرهما .

وقد طاب لي ان اسمع محاضرة القاها في بيروت المستشرق الروسي ج تسيرتلي في نيسان ١٩٥٦ ، وهو من جورجيا احدى الجمهوريات السوفياتية ، قال فيها ، في معرض التدليل على الاتصال الذي كان موجوداً بين بلاده وبين العرب ما يأتي :

« ومما يلفت النظر بنوع خاص العثور اخيراً على نصب يعود

عهده الى القرن الاول للهجرة نقش عليه باللغة العربية عبارة هذا نصها : « ثلاثة ميليا ... عن تفليس »

وعلق على ذلك بقوله :

« لعل هذا الحجر وضعه العرب وقتئذ او المسلمون في جملة ما وضعوا على الطرق للدلالة على الابعاد في اسفارهم . »

ثم استطرد قائلا : «وفي آسيا الوسطى بلدة يسكنها ثلاثة عشر الفاً لا يزالون يتكلمون اللغة العربية ، ويرجح انهم عرب في الاصل . ولكن لا يعرف اذا كانوا من بقايا الفاتحين ، ام من بقايا ارباب التجارة بعد الفتح .

وسواء أكان هذا النصب ام هؤلاء العرب من ايام الامويين ام من بعدهم فمن الثابت انه لم يأت القرن الرابع للهجرة حتى اصبحت بغداد وكذلك الاسكندرية تحدّدان اثمان السلع التي يتبادلها العالم ، كما اشار الى ذلك احد المستشرقين .

على ان المغرب العربي لم يكن اقل شأناً من المشرق في التجارة والملاحة ، فلما تخلى العباسيون لبني الاغلب عن الحكم في تونس وما يليها من بلاد المغرب قاموا بالمهمة التي اخذوها على عاتقهم خير قيام سواء أكان ذلك في الناحية السياسية ام في سواها . وفضلا عن انشائهم مراكز تجارية كانت تربط بطرق أمينة الصحراء الافريقية الكبرى وما حولها بسواحل البحر المتوسط فقد عمروا اسطولاً تجارياً استأثر بتجارة البحر المتوسط ، وكان يتعداه الى المحيط الاطلسي فيطوق اوروبا وافريقيا .

ولما دالت دولة الاغالبة خلفهم على سيادة البحار امويو الاندلس ،

فكانت مراكبهم تسير الى سواحل الشرق الادنى فتوصل بين تجارة الشرق والغرب بينما يغادر بعضها مالطة وجزر الباليار وبرشلونة وقادس ويجري مغرباً مرتفعاً الى شواطىء فرنسا وما بعدها، او يهبط باتجاه شواطىء افريقيا، فتنقل هذه السفن خيرات البلاد ومحاصيلها ومنتوجاتها من قطر الى قطر، وهي كأنها بذهابها وايابها تحرث البحار حرثاً .

وكان للاسرائيليين وقتئذ نصيب وافر من تجارة المغرب حتى كان للاندلسيين منهم الف سفينة تجوب البحار في أمن وسلام .

— في الناحية الصناعية —

كان وادي الرافدين في العصور الماضية حافلا بكثير من الفنون والصناعات الراقية، ولما قامت فيه الخلافة العباسية العظيمة، وامتدت من اقصى الشرق الى اقصى الغرب، ترعرعت في بلادها الصنائع والفنون المختلفة تبعاً لحاجة الملك وحياة البذخ والرفه اللذين شملا الشعب قاطبة، وقد ساعد على ازدهارهما ما حصل، خلال ذلك، من اتصال الامم بعضها ببعض من جراء وحدة الدولة .

وقامت صناعة الحرير وغيره من المنسوجات في زمن مبكر لان خلفاء بغداد سرعان ما نقلوا اليها عدداً من صناع النسيج من مدينة تستر في اقليم خوزستان؛ كما نقلوا اليها غير ذلك من صناع سائر الفنون والمصنوعات. فاشتهرت بغداد وضواحيها بانواع من النسيج القطني والحريري والكتاني . وقد اشار اليها الرحالة الشهير المقدسي حيث قال: « تصنع في بغداد الطرائف وألوان ثياب القز والعباداني والساماني الرفيع والازر والعمائم الفاخرة والمناديل

القصرية والبويبية والمحكم . » كما ان الرحالة الايطالي ماركوبولو نوه بما كان يصنع في بغداد والموصل من الحرير الموشى بالذهب.

وكانت الموصل بمثابة همزة الوصل، بين الشرق والغرب فازدهرت تجارتها كما ازدهرت فيها الصنائع حتى عدّها ياقوت الحموي بين بلاد الدنيا العظيمة حيث قال :

« وكثيراً ما سمعت ان بلاد الدنيا العظيمة ثلاثة : نيسابور لانها باب الشرق ، ودمشق لانها باب الغرب ، والموصل لان القاصد الى الجهتين قلما لا يمر الا بها ، وما عدم شيء من الخيرات في بلد من البلدان الا ووجد فيها »

وكان من اشهر صناعاتها النسيج على اختلاف انواعه، ولا يزال « الموصلين » ، وهو نوع من النسيج القطني ، يستمد اسمه منها . وقد ذكر سبط بن الجوزي في كتابه « مرآة الزمان » انه كان فيها سنة ٦٥٦ ﻫ (١٢٥٨ م) ٩٠٨ دور للحياكة ، وان عدد الانوال فيها كانت تبلغ ٧٥،٠٠٠ نول (كذا) ! » .

واشتهرت الموصل ايضاً بصناعة التحف المعدنية، وصارت مدرستها، في صدد تزيين هذه التحف بالذهب والفضة، قبلة مدارس الشرق. ولما منيت بالغزو التتري المغولي الذي قضى على معالمها انتقلت هذه الصنعة الى القاهرة بمن هاجر اليها من اهل الموصل .

ويبدو ان العراق ظل بلداً صناعياً الى وقت متأخر بدليل ما رواه محمد فريد بك في كتابه « الدولة العلية » . من ان السلطان ياوز سليم العثماني ساق من بغداد الى استامبول اربعين الفاً من الصناع.

واما بلاد الشام فرغم انتقال عاصمة الدولة منها الى بغداد فقد

ظلت تنافس العراق في الصنائع، ولاسيما دمشق وحلب اذ كانتا صلة الوصل ما بين الشرق والغرب . وكان من اشهر صناعاتها الحرير الموشى المعروف بالدامسكو الذي لا يزال ينتسب اليها ، وكذلك الديباج وعمل القواطع، ولاسيما المرصع منها ، وصناعات التحف المعدنية، والخزفية مثل القاشاني والفسيفساء، وانواع الدهان والنقش والصابون والسكر .

وكانت دمشق وحلب ابان الحملات الصليبية حافلتين بالانوال، ومثلها طرابلس التي وجد فيها الصليبيون ، حينما فتحوها ، اربعة الاف نول .

وقد استمر الفاتحون من مغول واتراك على نقل صناع بلاد الشام الى بلادهم وآخرهم السلطان ياوزسليم الذي حمل الى استامبول من دمشق كل صاحب صنعة على رواية محمد كرد علي في خطط الشام .

ولا تزال حتى الآن اسماء المدن العراقية والشامية تطبع بطابعها اسماء المنسوجـــات الرائجة في العصر الحديث عند الافرنج . فالدامسكوس نسبة لدمشق والموصلـــين الموصل والكوفي « الكوفيات » للكوفة ، وبلداكين لبغداد .

هذا وارتفع مستوى الصنائع في المغرب العربي ولا سيما في اسبانيا الى مستوى حضارة الامة وبمقدار حاجتها اليها . وكانت كل ناحية من نواحيها مشهورة بصنعة او اكثر من الصنائع، فاشتهرت فونسية ومرسية بالاجواخ والمرية بحياكة الديباج والحريرية، وكان يوجد فيها الف نول لصنع لديباج وثمانية نول لحياكة الحرائر، كما كانت اشبيلية حافلة بستة الاف نول لصنع الحرير على اختلاف

انواعه . واشتهرت مرسية بالاجواخ ، وقرطبة بالجلود التي لا تزال في العصر الحديث تحمل اسمها **Cordonnerie** ، كما اشتهرت المرية بالميكانيك والاواني المعدنية والزجاجية وتحفها ، وقشتالة بصنع الورق ، وبلنسية بالصنائع الزراعية من مثل معـــامل السكر والزيوت ومطاحن الابازير .

حقاً ان بعض هذه الصنائع لم تكن من وضع العرب وانما اقتبسوها من غيرهم ؛ ولكنهم ، في الواقع ، قد تعهدوها بالصقل والتهذيب حتى طبعت بطابعهم : انهم اقتبسوا عن الهند صناعة السكر ونقلوها الى اوروبا سنة ٩٩٤م، ولكنهم انشأوا لها المعامل وتفننوا في صنعها واستخرجوا منها انواعاً جديدة . واخذوا عن الصين البارود والورق والحرير وبعض الانسجة، ولكنهم لم يقفوا عند حد ما اخذوه ، بل خلقوا كل ذلك خلقا جديداً .

وكانت لهم في الشرق وفي الغرب اختراعات في الميكانيكا ادرجت في عداد مخلفاتهم: وفضلًا عن الآلات المركبة من البكر والأكر والانابيب والمحال فقد اخترعوا ايضاً الات كثيرة مائية وغير مائية ، بالاضافة الى بعض انواع الساعات وبعض الادوات الجراحية والآلات الفلكية . ولهم في بعض هذه الصناعات مؤلفات ثمينة . وقد قال كوستاف لوبون في معرض الكلام على تحويل المعادن الى مواد صناعية : « وليس من شعب فاق العرب في هذا الأمر . فقد برزت روحهم المخترعة للعيان ابتداء من نشأتهم الأولى»

....

وهكذا اصبحت البلاد العربية في عصرها الذهبي وما حوله

سيدة العالم في النواحي الاقتصادية وبالتالي سيدة العالم في وفرة الموارد . وقد نوهنا في هذا الفصل بثروة اهل الشرق ، اما في الغرب فحسبنا ان نذكر عن المقري في نفح الطيب قوله: «ان جباية الاندلس بلغت في عهد عبد الرحمن الثالث ستة ملايين ومايتين وخمسة واربعين ديناراً ما عدا اخماس الغنائم .»

ورغم ما كان هذا الخليفة ينفق في سبيل العمران فقد خلف في بيت المال على رواية ابن خلدون خمسة مليارات دينار.

ومن الجدير بالذكر ان الطابع العربي في الصناعة كما في الثقافة ظل بارزاً خلال القرون الثلاثة المذكورة في البلاد التي انسلخت عنهم ، ولا سيما فيما دخل منها في حوزة النورمانديين. وعدا ما تحفل به صقلية عموما ، وعاصمتها بالرمو خصوصاً ، من المنشآت النورماندية التي لا تزال تحمل اسماء عربية كقصر القبة وقصر العزيزة ، فان ابنية هذه الجزيرة بقيت الى حين تزدان بالزخارف العربية ولا تزال بادية على بعض صروحها القديمة . واكثر من ذلك ففي متحف الكنوز بمدينة فينا عباءة التتويج التي كان يتوارثها اباطرة النورمانديين وقد كتب على حافتها بخيوط من الذهب بالخط الكوفي ما يلي :

« مما عمل بالخزانة الملكية المعمورة بالسعد والاجلال والكمال ،والطول والافضال ، والقبول والاقبال ، والسماحة والجلال ،والتحرر والجمال ،وبلوغ الاماني والامال ،وطيب الايام والليالي بلا زوال ، والانتقال بالعز والدعاية ،والحفظ والحماية ، والسعد والسلامة ، ،والنصر والكفاية ، بمدينة صقلية سنة ثمانية

وعشرين وخمسماية . »

— في الناحية الزراعية —

قد تجنى بعض المؤرخين وبينهم الفخري في كتابه الآداب السلطانية ومن اخذ عنه إذ انتقدوا الامويين لانصرافهم الى استكمال الفتح عن الزراعة . وربما يكون في ذلك شيء من الواقع. ولكن الذي لا شك فيه ان العمران الذي اصابته البلاد في ايامهم من جراء كثرة الموارد وخراج الامصار المتعددة كان يتطلب ان تساير الزراعة سائر حاجات السكان ايام كانت اسباب النقل غير سهلة . لذلك فهم مضطرون بسائق حاجة كل قطر الى محاصيله الزراعية لأن يعنوا بزراعته ؛خصوصاً وان الأموال قد اصبحت عندهم موفورة شعباً وحكومة . وقد ذكر جرجي زيدان عن قدامة انه « **لما تولى الحجاج بن يوسف انبثقت بثوق أخرى في سدود البطائح ما بين البصرة والكوفة فكتب الى الوليد بن عبد الملك يخبرها ، وانه قدر نفقة سدها بثلاثة ملايين درهم ، فاستكثرها الوليد ، فقال له اخوه مسلمة : « انا انفق على سدها من مالي على ان تعطيني خراج الارضين المنخفضة التي يبقى فيها الماء بعد انفاق المال على ايدي ثقاتك .» فرضي الوليد بذلك ، فحصلت للوليد ارضون وطساسيج كثيرة . فحفر نهرين سماهما السيبين ، وتألف الأكرة والمزارعين ، وعمر تلك الارضين ، واستخرج للوليد ايضاً من البطائح ثم لهشام بعده مالاً كثيراً. ثم جرى الناس على ذلك الى اواخر بني امية .** »(تاريخ التمدن الاسلامي ج ٢ ص ٨٠

هذا ولما استتب الأمر للعباسيين وانصرفوا منذ بداية عهدهم الى تعمير الامصار الكثيرة التي ورثوها عن الامويين ، والى تأمين الامن ، وذلك ابتداء من الخليفة المنصور ، كان للزراعة نصيب وافر من عنايتهم فازدهرت وكثرت غلاتها ، ولا سيما في العراق مقر مملكتهم . ولكثرة ما احتفروا فيه من الانهر والترع وما اقاموا فيه من السدود تشبكت اعمال الري في بلاد الرافدين حتى اصبح ما بين دجلة والفرات سواداً مشتبكاً غير مميز ينساب بين روافد كثيرة من الفرات تحيي الزرع وتغني الضرع . وكانت تلك البقاع تعرف بالسواد لكثرة اخضرارها .

وكانت السلطنة العثمانية قد انتدبت ، في مطلع القرن العشرين المهندس الكبير وليم ويلكوكس لدرس الري في العراق فاقترح استئناف فتح الانهار والمجاري واقامة الاسداد التي كانت موجودة في عهد العباسيين ، ورأى فيها الكفاية لارواء ذلك القطر على ما ينبغي .

ويشير المؤرخون ، في صدد الزراعة ايام العباسيين ، الى خراسان ، وينوهون كثيراً بخيراتها ونضارتها . وقد فضلها المقدسي على العراق . ذلك انه لما اطنب في التحدث عن عمران العراق قال في عرض كلامه ص ١٢٢ « فهذه مدن بغداد . وبخراسان قرى كثيرة اجل من اكثر هذه المدن : »

وكانت ولاية خراسان تشمل بلاد ما وراء النهر (جيحون) .

وقد قال ابن حوقل عنها (ص ٣٤٥)

« ولم ار ولم اسمع في الاسلام بظاهر بلد احسن من بخارا لانك اذا علوت قندهار لم يقع بصرك من جميع النواحي

الا على مغارس تتصل خضرتها بلون السماء . وكأن السماء مكبة زرقاء على بساط اخضر تلوح القصور ما بين ذلك كالتراس اللمطية ، او كالكواكب العلوية بياضاً ونوراً من اراضي ضياع مقومة بالاستواء كوجه المرآة . »

وعقب على ذلك بقوله :

« والمشار اليه من متنزهات الارض سغد سمرقند ونهر الابلة وغوطة دمشق . »

هذا وقد عني العرب بزراعة مصر منذ العهد الاموي ، يؤيد ذلك ما جاء في الخطط المقريزية (ج ١ ص ١٢٨) من نزول العرب في ايام هشام بن عبد الملك بريف مصر ، وبأذنه ، ومن تكاثرهم هناك واتخاذهم الزرع معاشاً ، ولا سيما في بلبيس . واشتدت هذه العناية بزراعة مصر خلال العهد الاموي ، ولكنها كانت اقل منها في العراق وخراسان لبعد مصر عن مقر الخلافة ؛ بيد ان مصر هي هبة النيل ، كما قال هيرودوت ، ويرجع خصبها وغلتها الى فيضانه في واد يمتد ، من مدخل مصر الى البحر ، نحو اثني عشر هكتاراً مربعاً .

وقد اتيح لزراعتها ان تحظى بعناية الحكام الكاملة منذ استقلت عن بغداد ، ولا سيما في عهدي الطولونيين والفاطميين ، فازدهرت اكثر من قبل ، وساعدت زراعتها على زيادة الخراج . ويروي ابو صالح الارمني في تاريخ « الكنائس » ان خراج مصر بلغ في عهد احمد ابن طولون خمسة الاف دينار ، وهو يعادل ثلاثة ملايين جنيه مصري من الذهب ، وكانت بالنسبة لذلك الوقت وافية .

واما الزراعة في الغرب فكان ازدهارها ، ولا سيما في اسبانيا ،

مضرب الامثال، كما فصلنا ذلك في كتابنا « **العروبة والشعوبيات الحديثة** » وقد اشار الى ذلك سينوبوس في كتابه تاريخ الحضارة وقال :

« **ان امراء العرب جروا في اعمال الري على طريقة مثلى مدارها الاعتماد على شق الترع وحفر الآبار حتى أنهم فاقوا اصحاب مشاريع الري في العهد الاخير . وقد نظموا مصلحة خاصة للري ، ووضعوا لها النظم لتوزيع المياه على اصحاب الحقوق فيها . ونقلوا الى اسبانيا النواعير المعروفة في الشرق . فكان من نتيجة هذه العناية ان اصبح سهل بلنسية كأنه حديقة واحدة ، كما ان السائر حول لشبونة كان يمشي مسافة اربعين ميلاً في عرض اثني عشر ميلاً وهو يستظل بظلال تينها وزيتونها . اما الوادي ، الذي يمتد الى جانب المرية اربعين كيلومتراً طولاً ومثل ذلك عرضاً ، فكان حافلاً ببساتين نضرة وحدائق غناء تجري الانهار من تحتها حتى تكاد تحسبها قطعة من الجنان . وناهيك باشبيلية التي كانت تحيط بها مائة الف مزرعة فيها من معاصر الزيت ما لا يعد ولا يحصى ، بينما ان اقليم ولنطية كان يموّن ممالك اوروبا الجنوبية بمختلف الاثمار الطيبة ويكفيها .** »

ومن الجدير بالذكر هنا ان كثيراً من هذه الاثمار والبقول لم يكن يعرفه الغرب قبل ان نقله العرب من الشرق . من ذلك الليمون والنخيل والرمان والزيتون وقصب السكر والقطن والارز وغيرها ، ولا تزال اسماؤها هناك عربية حتى الآن .

هذا وقد حدثني المهندس الزراعي السيد حسني المقدادي انه زار بلنسية، التي نوه بها سينوبوس ، وشاهد عند مدخل كنيستها،

التي كانت جامعاً ، من قبل ، محكمة اعضاؤها من كبار المزارعين . مهمتها القضاء في شؤون الري ، واحكامها نافذة . وهي تدعى **Tribunal de las Aguas** فقيل له ان هذه المحكمة هي من مخلفات العرب . واخبرني انه حينما كان يتفقد اعمال الري هناك في سهلها الواسع، فما ان اظهر اعجابه بها حتى اعلن دليله الاسباني ان تلك السدود والمجاري وما اليها كلها هي من مخلفات العرب، واشاد بازدهار الزراعة عندهم . ثم علق على ذلك بقوله : « ان الاسبان لا يزالون يذكرون عهد العرب بالخير» واخبرني السيد مقدادي ان الدليل الذي لم يكن يعرف بانه عربي لم يتردد في ان يصرح له، اثناء ما كان يظهر اعجابه بجامع قرطبة، بان عصر اسبانيا الذهبي انما كان ابان حكم العرب فحسب . »

وهذه الآثار الخالدة التي لا تزال بادية للعيان في اسبانيا يراها الناظرون حتى الآن في كل البلاد الغربية التي دخلت في حوزة العرب . فجزر الباليار جميعها ، ولا سيما جزيرة ميورقة ، لاتزال تعيش على شبكات الري التي اقامها العرب شأنها في ذلك شأن اسبانيا .

— في الناحية الثقافية —

● تطور الثقافة عند العرب

كان الشعر في الجاهلية مدار عناية العرب ؛ ولما ظهر الاسلام بدا معه كثير من الاهتمام بالشؤون الدينية الى جانب الاشتغال بالدعوة للاسلام والجهاد في سبيل رفع كلمته وانتشاره . وكان دأب المسلمين وقتئذ نقل الاحاديث النبوية واحكام الدين من العبادات والمعاملات ليؤدوها الى من بعدهم من التابعين ، فضلاً عن حفظ

القرآن وترتيله .

ولما عادت العصبية في ذلك الحين الى شأنها في الجاهلية وانقسم الناس بسببها الى فريقين ، فريق الهاشميين وفريق الامويين برز مذهب التشيع لعلي بن ابي طالب ولآل البيت ، وتطرق بعض المتشيعين، في آخر خلافة عثمان بن عفان، الى الغلو في حب الامام علي . وكان من عواقب هذا الانقسام ظهور مذهب الخوارج ضد كل من علي ومعاوية .

ثم لما تمت الغلبة السياسية للامويين وصارت الخلافة ملكاً عضوداً انصرف المسلمون الى الدراسات الدينية والتفقه بالدين فظهرت المذاهب الاسلامية الكثيرة كالجبرية والقدرية والجهمية والمعتزلة والزيدية والاشعرية والقرامطة ومذهب التجسيم . وكان مصدر بعضها يرجع الى العناصر الاجنبية التي اعتنقت الاسلام وفسرته على ضوء عقائدها السابقة ، كما كان مصدر بعض هذه المذاهب يرجع الى التشيع لآل البيت، ولا سيما للامام علي، ثم الى الغلو في هذا التشيع .

وبينما كانت الدولة الاموية تمعن في فتح العالم ونشر الاسلام في اطرافه البعيدة كان الناس ينشغلون في هذه المذاهب وفيما يحدث بشأنها من المناظرات، هذا فضلاً عن جدل ديني كان يقع بينهم وبين الملل الاخرى تشجعه حرية الرأي والعقيدة التي كانت سائدة عند العرب .

على ان تماس الامويين بالامم الاخرى كان حافزاً للناس على تجاوز النطاق الديني والادبي الى التطلع للعلوم والآداب الاخرى ، ولاقتباس بعض الفنون. ذلك لانهم شعروا بقصورهم عندما كانوا

يرون انفسهم مضطرين لاستجلاب الأخصائيين من بيزنطة وسواها للقيام بمشاريعهم العمرانية . وكان الطب يأتي في الدرجة الاولى من عنايتهم، وكذلك علم الادوية نظراً للحاجة الماسة اليهما، فانكبوا على الترجمة .

ولكن التاريخ الذي اصبح في عهد العباسيين خاضعاً لهم ومسايراً لمشيئتهم لم يذكر شيئاً من مآثر الامويين اعدائهم، بل انه كثيراً ما تنقصهم ، ولذلك فقلما يروي التاريخ عن اهتمام الامويين بالناحية الثقافية سوى ما تحدث عن خالد بن يزيد حفيد معاوية الأول المتوفي سنة ٨٥ للهجرة ؛ فروى انه انصرف للعلم بعد ان قطع امله من ادراك الخلافة ، وان صناعة الكيمياء كانت رائجة يومئذ في مدرسة الاسكندرية فعني خالد بدعوة بعض اساتذتها الى دمشق، واخذ هذه الصنعة عن احدهم الذي كان يسمى مريانوس ، وامر بنقلها الى العربية بالاضافة الى بعض العلوم الفلكية والطبية .

ولما دار الفلك دورته وظهر الهاشميون على الامويين وقامت دولة العباسيين على انقاض الامويين انصرفت هذه الدولة ، منذ بدايتها، الى اعمار الامصار الواسعة التي ورثتها ، والى العناية بالشؤون الثقافية ، ولا سيما في ناحية نقل علوم الاقدمين، من بابليين وفرس ويونان وهنود وسريان ومصريين ، الى اللغة العربية .

وكان المنصور، ثاني الخلفاء العباسيين، ميالاً الى صناعة النجوم التي كانت رائجة عند الفرس فقرب اليه بعض علمائها ، وترجموا له كتباً فارسية في الكواكب واحكامها ، وجاءه آخرون من الهند وبيزنطة وساهموا في ترجمة علم الفلك والهندسة . وما ان سمع المنصور

بكتاب اقليدس في الهندسة وبكتب اخرى في علوم اليونان الطبيعية حتى بادر الى طلبها من امبراطور الروم وامر بترجمتها.

واستقدم المنصور ايضاً بعض علماء الفرس وغيرهم من مشاهير الاطباء وعلى رأسهم جورجيس رئيس اطباء جنديسابور فعني هذا بترجمة جملة كتب الى العربية ، كما نقل له حنين بن اسحق بعض كتب ابقراط وجالينوس الطبية ، ونقل له ابن المقفع كتاب كليلة ودمنة من الفهلوية .

ولما ازدهر شأن العلوم في زمن هارون الرشيد واشتد الاقبال على الترجمات اقبل على بغداد كثير من علماء العالم وبينهم بعض الهنود ، واشهرهم باخار وراجاه وساهر وانكو وزنكال واريجال ومنكا،هذا فضلاً عن ابن دهن الذي اصبح مديراً للمستشفى البرمكي ثم طبيباً لهارون الرشيد وفي عداد اطبائه الاجانب . ومن الجدير بالذكر ان هارون الرشيد رغم رعايته الشديدة للترجمة اليونانية ورغم شوقه الى الاطلاع على شعر هوميروس فلم يتسامح بترجمته الى العربية لما فيه من اساطير الوثنية ، واكتفى بترجمته الى اللغة السريانية تقديراً للعلم . وقد نصب يوحنا النسطوري رئيساً على مدارسه دون النظر الى الاعتبارات الدينية .

وفاق المأمون اباه (٨١٤ — ٨٣٤ م) في صدد العناية بالثقافة والترجمة ،فنقلت في ايامه علوم الفلسفة الى العربية وسائر العلوم العقلية التي كان شغوفاً بها . وكان يحرض الناس على قراءة تلك الكتب وتعلمها ، ويأنس بمناظرة العلماء . وقد بلغ من حرصه على اقتباس هذه العلوم انه كتب الى الامبراطور البيزنطي تيلوفيلوس يعلمه بانه

راغب في زيارته حينما تمكنه مهام الدولة ، واعرب له عن رغبته في ان يسمح لاحد مشاهير علماء الرياضة المسمى لاوون بان يأتي الى بغداد للافادة من معارفه . واضاف الى ذلك قوله :

« لا تجعل اختلاف الدين حائلا دون اجابة هذ الرجاء، بل افعل ما تحملك الصداقة عليه ، وساعطيك بدل ذلك مائة مثقال من الذهب واتحاداً دائماً وسلاماً . »

وكان بيت الحكمة الذي انشأه المأمون ندوة النساخ والكتاب والمترجمين .

واقتدى بالمأمون كثيرون من اهل دولته ومن وجهاء البلاد، فكثر الوراقون وباعة الكتب، وتعددت مجالس المناظرة. ثم ظلت تلك النهضة الثقافية في عهد كثيرين من خلفائه بارزة حتى نقلت اهم كتب القدماء الى العربية . واشتغل كثير من الناس بدراستها، وبالتعليق عليها ، واصلاح اغلاطها . وكان من مشاهير حكماء هذا العهد الفارابي وابن سينا والرازي .

واذا ذكرت تلك النهضة فانما يذكر معها، الى جانب الخلفاء، آل شاكر ومحمد بن عبد الملك الزيات وسيف الدولة الحمداني اولئك الذين جاروا اولي الأمر في البذل على العلماء والمترجمين .

واما الفاطميون فانهم وان لم يدركوا منزلة العباسيين في ازدهار العلم الا انهم حاولوا ان يقتدوا بهم وبامويي الاندلس منذ انتقالهم الى مصر . وجامع الازهر ،الذي لا يزال حتى الآن مناراً للثقافة، شاهد على هذه العناية ، هذا فضلا عن المدارس والمكتبات الكثيرة التي عني الفاطميون بانشائها منذ بداية حكمهم في مصر . وقد قيل

ان مكتبة العزيز اول خلفائهم في القاهرة كانت تضم مليوناً من المخطوطات . ومهما كان عددها فانها لتدل على مقدار مابذل خلفاؤهم بمصر من الاهتمام بالثقافة والعرفان .

وكان الحاكم بأمر الله محباً للعلم واهله وشغوفا بالفلسفة وربما كان اكثرهم اهتماماً برعاية العلم واهل الفضل . وقد كان يعنى بجمع انفس المخطوطات ويزين بها مكتبة دار الحكمة . وكان عدد هذه الكتب يناهز ماية الف مخطوطة . وبهذه العناية والرعاية التي كان الفاطميون يبذلونها من اجل الثقافة اصبحت القاهرة تعج بالعلماء والموهوبين ، وعلى رأسهم بعض الفلاسفة والرياضيين .

وكان من مشاهيرهم العتقي وابن يونس ، واضع الزيج الحاكمي في المرصد المنسوب اليه على جبل المقطم ، وهو مخترع الربع ذي الثقب ورقاص الساعة . وكذلك ابن الهيثم الذي وضع نيفاً وثمانين مؤلفاً ومجموعة في الارصاد. هذا فضلا عن مشاهير آخرين اشتهروا في الفقه والادب ، ولا سيما الفقه الشيعي تأييداً لمذهب الدولة الحاكمة. وحسبنا ان تذكر من ادباء عصرهم القاضي الفاضل وعماد الدين الاصفهاني .

واما المغرب فان عناية العرب فيه بالثقافة لم تكن دون عنايتهم في المشرق . واذا بدأنا بالتنويه ببني الاغلب في تونس وببني ادريس بمراكش ، فانه ليطيب لنا ان تستهل الكلام بشهادة الكاتب الافرنسي ارتور بلليكران حيث قال :

«كانت القيروان عاصمة بني الاغلب تضيء المغرب بانوار الفلسفة والاداب والعلوم والفنون ، بينما ان فاس ، عاصمة الاشراف

الادارسة كانت بمدارسها العامرة ومكتباتها القيمة اشبه شيء بمنارة للثقافة ترسل اشعتها الى سائر المغرب فتنير معالمه . »

ثم اخذت قرطبة ، عاصمة اموبي الاندلس ، تتزعم الحركة الثقافية في المغرب على غرار بغداد في الشرق الاوسط .

وقد بدت تباشير النهضة العلمية فيها منذ تأسيس الدولة اذ كان عبد الرحمن الاول (٧٦٥ م) اديباً فعنى بفتح المدارس وتنشيط العلم ، كما كان ابنه هشام (٧٩٦م) محباً للعلم ، فراعى الادباء والعلماء ونشر اللغة العربية حتى عمت الاندلس ، وتكلم بها القوط انفسهم . ولما صار الملك لعبد الرحمن الثاني (٨٢٢م) ، وكان من الفلاسفة ، رفع مستوى البلاد العلمي الى مرتبة أعلى اسوة بما فعل المأمون في الشرق . ثم ما ان استوى عبد الرحمن الثالث ، الملقب بالناصر ، على العرش (٩١٢م) حتى برزت هذه النهضة على شكلها الكامل في جميع النواحي العلمية والادبية وذلك بالمعاهد والمراصد والمكتبات والمدارس التي انشأها هذا العاهل على نمط يتفق مع ما بلغته البلاد من العمران . وكان على رأسها مدرسة قرطبة الطبية والمكتبة التي كانت تضم نحو اربعماية الف مخطوطة .

وفي ايامه اصبحت الاندلس ، ولا سيما قرطبة العاصمة ، محجاً للعلماء والادباء والفنانين يأتون اليها من كل فج عميق ، ويعيشون فيها بعز ورخاء في ظلال مليك كان يقدر جهودهم ويبذل لهم العطايا . وهو الذي كافأ ابا الفرج الاصفهاني بالف دينار على كتابه الاغاني حينما قصد اليه ورفعه الى مكتبته. وكان اليهود في طليعة الوافدين اليه طلباً لرفده فقلدهم بعض الرئاسات الكبرى على تلك

المعاهد العلمية .

ولما تسابق ملوك اوروبا الى التحبب اليه بعد انتصاره الحاسم على الاسبان وغيرهم تنافسوا في اهدائه المؤلفات الثمينة . وكان في عداد ما اهداه اليه ابن نيون امبراطور بيزنطة كتاب الحشائش لديسقوريدس باللغة الافريقية وتاريخ الروم لهرشيوس باللاتينية .

وكان من المفروض ان يخلف عبد الرحمن الناصر خليفة آخر يولي العلم واهله ما اولاه هو من العناية ، ولكن ابنه الحكم الثاني (٩٦١م) ، الذي كان اعظم الخلفاء ثقافة ، فاق اباه حتى اصبحت قرطبة في عهده وسطاً علمياً فنياً صناعياً تجارياً لا يمكن عدها ، على قول كوستاف لوبون ، الا بمصاف عواصم العالم الكبرى في العصر الحاضر . هذا وبالاضافة الى جمعية العلماء التي تألفت فيها على اسلوب المجامع العلمية المعاصرة فقد انشئت فيها المدارس المجانية والمختبرات والمكتبات العامة . وكان اعظمها مكتبة قصر الخليفة . وقد بلغ عدد فهارسها اربعة واربعين مجلداً . وعلى رواية دوزي :

« فلم يبق في البلاد وقتئذ امي بينا لم يكن في اوروبا من يلم بالقراءة والكتابة الا طبقة القسس الرفيعة . »

وقد قلد الشعب ، نساء ورجالاً ، اولي الامر في الاقبال على العلوم والآداب ، وفي اقتناء الكتب والتباهي بها الى مدى بعيد . وقد اوردنا في كتابنا « العروبة والشعوبيات الحديثة » مثالاً على ذلك ما رواه المقري في « نفح الطيب » عن رجل امي كان يزيد في كتاب معروض بقرطبة زيادة كثيرة . وما كان يفعـــل كي يستفيد من مضمونـــه وانما ليزين به مكتبته اسوة باهل العلم

والادب في عصره .

ثم انقرضت الدولة الاموية الاندلسية ، ولكن النهضة العلمية هناك لم تذهب بذهابها بل ظلت ، رغم ما اعتور البلاد من الاحداث السياسية المتعاقبة ، تتمشى الى الامـام ، فنبغ خلال عهد ملوك الطوائف الوف العلماء والادباء والفنانين . وكان الفضل في ذلك يعود الى هؤلاء الملوك الذين تنافسوا في تقليد الخلفاء برعاية الثقافة ومكافأة اهل الفضل . ومن اشهر علماء العصر ابن خفاجه الذي كان فذاً في وصف الطبيعة ، والخازن الذي كان فريداً في علوم الطبيعيات ، كما نبغ في عهد المرابطين والموحدين اشهر علماء الاندلس ، ومنهم الفلاسفة ابن زهر وولداه ، وابن رشد ، وابن باجة ، وابن الطفيل وابن ميمون الاسرائيلي ، فضلا عن الجراح الزهراوي ، والطبيب عبد الله المالقي ، وابن العوام الزراعي ، وابن البيطار الصيدلي ، وفضلا عن علماء آخرين اشتهروا بالعلوم الفلكية والرياضية امثال مسلمة المجريطي ، وابن راجل ، وابن ابي طلحة .

وكان بين مشاهير الاندلس في العلم والأدب عدد كبير من السيدات عدّدهم المقري في كتابه « نفح الطيب » فنكتفي بالاشارة اليهن عملا بالاختصار .

واخيراً ولما اضطر المسلمون للجلاء الى الساحل ، حيث كانت دولة بني الاحمر في غرناطة ، فان هذا الجلاء ادى الى اجتماع علماء العرب وادبائهم في تلك البقعة الصغيرة فبدت بهم كبيرة جداً بثقافتهـــا وعمرانها وتمدنها . وقد اشتغل فريق منهم بالتأليف في موضوع الصنائع العلمية ، وانصرف آخرون الى الآداب العامة ، ولا سيما

الى الموشحات . ومنهم ابن الخطيب وابو عبد الله بن زمرك واحمد
ابن علي اللخمي ، بالاضافة الى كثيرات من السيدات .

وهكذا كانت الاندلس منذ اول عهد العرب بها الى آخره
شعلة نور تضيء العالم بادابها وعلومها، كما كانت المورد العذب لطلبة العلم
في اوروبا وفي سائر الامصار التي ساهمت في حضارتها . فبالرمو
عاصمة صقلية اصبحت منذ فتحها زيادة الله الأغلبي سنة (٨٢٧ م)
قاعدة من قواعد الحضارة العربية ، وظلت كذلك طوال ثلاثة
اجيال خلال عهدهم الزاهر. ثم استمرت زاهية زاهرة بالعلوم بعد
جلائهم عنها وذلك بقوة الاستمرار وباعتماد أصحابها الجدد على
علماء العرب .

وقد رويت في كتابي « قوافل العروبة » (ج ١ ص ١١٤)
ان الادريسي صنع لمخدومه روجار الثاني ملك صقلية كرة الارض
من فضة في القرن الثاني عشر ، واشار في شرحه عليها الى وجود
قارة وراء المحيط الاطلانتيكي اعتماداً على ناموس التوازن، فكانت
هذه النظرية مشجعاً لكريستوف كولومب على المغامرة لاكتشاف
العالم الجديد . كما اشرت الى استناد حكام الجزيرة على العرب ،من
اجل تحقيق برامجهم الاصلاحية ، ولا سيما احدهم فردريك الثاني
الذي كان امبراطوراً على كل من المانيا وصقلية .

● مستوى الثقافة العربية

ثلاثة قرون مضت منذ غرة القرن الثامن الى نهاية القرن العاشر
كانت نهضة العرب خلالها تثب وثبات جبارة كلها حيوية وعزم
ونشاط . ولقد استهل العرب هذه الحقبة بالتلمذة على المدنيات

القديمة فالتهموها التهاماً بعد ان جعلوا عناصرها مزيجاً سائغاً للمستفيدين .
ثم لم يأت على ذلك الا حين من الدهر حتى اصبحوا اساتذة العالم بما
استفادوا من هذا المزيج ، وبما وضعوا من اختراعات جديدة ، وبما
صححوا من نظريات قديمة استعرضناها في كتابنا «العروبة والشعوبيات
الحديثة » . على انا وان كنا لا نجد فائدة من التكرار فانه ليطيب لنا
ان ننوه هنا ببعض مآثرهم في هذه الناحية ، لا سيما فيما فاتنا
ذكره منها عندما استعرضنا هناك اوليات العرب التي لم يسبقهم اليها
احد في الناحية العلمية .

ففي سنة ٧٥١م تعلموا صنع الورق من الصين، وفي سنة ٧٦٩م
اسسوا اول معمل له في بغداد زمن هارون الرشيد . وقام جابر
بن حيان (٧٥٠ — ٨٠٠ م) بتجارب في الكيميا متنوعة فتوصل
بجهوده الى اكتشاف تفاعلات كيمائية هامة . وفيما بين ٨٠٠ و ٩٠٠م
وسع علماء العرب المباحث الكيمائية واخترعوا الانبيق .
وقام البتاني (٩٠٠ — ٩٥٠ م) برصد الفلك وبوضع حسابات
فلكية هامة ، واخترع الاصطرلاب على رواية برايس، واستحدث
خطوط المثلثات ، ووضع هو وابن رشد نظرية كروية الارض .
ووضع الزرقلي عام ١٠٨٠ الجداول الفلكية ، واخترع ابن الهيثم
العدسة المكبرة المحدبة من الطرفين في حوالي سنة ١٠٥٠م ، وعين
الخازني الثقل النوعي للاجسام سنة ١١٢٠م. ويعتبر العلماء الميزان
الذي استعمله الخازني من العجائب الميكانيكية . الى غير ذلك من
الاختراعات والموضوعات التي اشرنا اليها في كتابنا المذكور .
وقد عدد م.ذ.م جفريز بعضها ، فبعد الاشارة الى انهم كانوا

اول من وضع الخرائط البحرية ، وخطوط الطول والعرض قال :

« وكذلك كان العرب اول من اخترع البوصلة التي كانت في اول امرها عبارة عن قطعة من الحديد المفرغ مصنوعة على هيئة سمكة . وكانت هذه السمكة تلقى في الماء وسرعان ما تطفو على سطحه بعد ان تتجه برأسها وذيلها الى ناحية الشمال وناحية الجنوب . »

وكان اعتمادهم في كل ذلك على المراقبة والاستنتاج والدرس العميق شأن العلماء في هذا العصر . وقد نوه بذلك درابر في كتابه
Histoire du développement intellectuel de l'Europe
فقال :

« درج العرب على عادة المراقبة والتدقيق معتبرين الهندسة والعلوم الرياضية وسائل للقياس . ومما تجدر الاشارة اليه انهم لم يستندوا في علوم الميكانيكيات والبصريات والسوائل على مجرد النظر ، بل اعتمدوا فيها على المراقبة والبحث استناداً الى ما كان عندهم من الآلات والادوات . وهذا ما ساعدهم على الابتداع في الكيميا واختراع ادوات التصفية والتخمير ورفع الاثقال ، وحملهم على وضع المربع والاصطرلاب في علم الفلك ، وجداول الجاذبية في هذا العلم . وقد وضعت في بغداد والاندلس وسمرقند فاتاحت لهم بالتالي خلق تحسين عظيم في الهندسة والرياضيات وحساب المثلثات ، هذا فضلاً عن اختراعهم الجبر واستعمال الارقام . وكل ذلك كان نتيجة لاعتمادهم على الاستدلال والامتحان .

« على انهم لم يقرروا في علم الفلك نظريات فقط ، بل رسموا

خرائط النجوم واطلقوا على معظمها اسماء عربية لا تزال تعرف بها في الاصطلاحات الفلكية حتى الآن . والى ذلك فقد عرفوا قياس سطح الارض بدقة فائقة ، وعينوا الكسوف والخسوف ، ووضعوا للشمس والقمر جداول صحيحة ، وحددوا طول السنة ، وادركوا ادرجة الاعتدالين . هذا بالاضافه الى اختراع الآلات الفلكية لتقدير الوقت بالساعات المتنوعة . وكانوا السابقين الى استعمال الساعه ذات الرقاص .

« واما في العلوم العملية فهم الذين وضعوا اسس علم الكيمياء وعرفوا بعض اجزائه المهمة كالحامض الكبريتي ، والحامض النتريكي (الفضة) والكحول . وهم ايضاً استخدموا الكيمياء في المعالجات الطبية ؛ فكانوا اول من نشر علم تركيب الادوية والمستحضرات المعدنية . وكانوا اول من قرر في الميكانيكيات نواميس سقوط الاجسام ، وشاركوا في الرأي ، بشكل جلي ، في طبيعه الجاذبية ، وفي تقدير القوى الميكانيكية .

« هذا علاوة على ان العرب وضعوا جداول الجاذبية الفرعية لمعرفة ثقل الموائع وتوازنها ، وكتبوا في موضوع عوم الاجسام وغرقها ، واصلحوا اخطاء اليونان في علم البصريات . »

ومضى درابر في تعداده اشياء اخرى من موضوعات العرب واختراعاتهم وانتهى الى القول :

« والذي هو مثار الدهشة اننا كثيراً ما اعجبنا بأمور علمية واعتبرناها من اختراعات زمننا ؛ ولكننا لا نلبث ان نرى العرب سبقونا الى معرفتها . من ذلك مبدأ النشوء والارتقاء فهو كان

يدرس في مدارسهم . وقد طبقوه على الاشياء الية . وكان لآ هذا المبدأ هو المعول عليه عندهم، وهو المظهر الطبيعي للاجسام المعدنية . »

● ثقافة العرب ثقافة عالمية

طلب العرب علوم الاقدمين بشوق كثير منذ ان اصبح الحكم عندهم ملكاً عضوداً في عهد الأمويين، وكان حافزهم اليها امرين :

الأمر الأول دين حثهم ، في مواضع كثيرة ، على طلب العلم ولو في الصين ؛ وفاضل بين المتعلمين والجاهلين فقال : « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ »

والأمر الثاني حاجة ملحة الى المعرفة العامة نشأت عن اتساع ملك اصابوه، ووفرة ثروة ادركوها كانتا تتطلبان شدة الاستمتاع بمعارف عالية تتفق مع سعة هذا الملك وشأنه، وتجعل العلم متناسباً في مستواه، مع مستوى سائر الدول المعاصرة والسالفة .

ثم ما ان استتب لهم الأمر في عهد العباسيين حتى آنسوا في انفسهم ، بالاضافة الى هذين الحافزين ، شوقاً للمعرفة نفسها فخفوا الى الاستعانة بعلماء العالم ، من شرقيين وغربيين ، من أجل تعريب علوم الاقدمين ، وانساقوا الى دراستها والتحقيق فيها وتصحيحها بالاستناد الى ابنـاء البلاد التي دخلت في حوزتهم ، والى جاليات كثيرة من امم مختلفة اقبلت عليهم . فاذا بهم يخرجون للناس مدنية زاهرة شملت الأمصار الخاضعة لهم من البحر الاطلانتيكي الى جوار الصين .

وبرزت لغتهم وآدابهم في هذه الحضارة على شكل زاهر زاهٍ

كأقوى وارقى ما تكون الآداب العالية ، وانتشرت مع انتشار القرآن في تلك الامصار وغيرها ؛ وأصبحت في الشمول والنفوذ على مقدار لم تدركه حضارة اليونان، او اية حضارة اخرى . ثم سرعان ما نضجت جهودهم الثقافية فخرجوا الى نطاق الاستذة واصبحوا مرجعاً للعالم كافة بما صححوه من نظريات علمية ، وابرزوه من اختراعات ثقافية فاتوا بذلك بما لم تستطعه الاوائل .

لقد كان تمدن اليونان عالياً لأنه لم يبق ضمن نطاق البلاد التي انتجته واستمتعت به ، بل تجاوزها الى البلاد الأخرى ، ولاسيما بعد الاسكندر الفاتح الكبير ، فاصبحت الثقافة اليونانية ، واللغة اليونانية ثقافة الامم المتحضرة ولغتها قرابة عشرة قرون . ولكن، رغم ذلك، لم يستطع اليونان ان يفرضوا لغتهم على شعوب الشرق وانما اقتصروا على ان يجعلوها لغة الساسة والثقافة . اجل فان شعوب الشرق في مصر وسوريا والعراق وغيرها وان خضعت لليونان سياسياً الا انها احتفظت مع ذلك بلغاتها ، وظلت تتحدث بها ، واستمر علماؤها يكتبون بها كما يكتبون باللغة اليونانية .

وخلف الرومان اليونان ، ونشروا لغتهم اللاتينية في الغرب ولكنهم عجزوا عن فرضها على الشرق ، وظلت اللغة اليونانية رائجة في الشرق بين الاوساط السياسية والثقافية الى جانب لغاتهم الخاصة التي كانوا يتخاطبون بها وينتجون .

وامـــا العرب فان لغتهم التي واكبت فتوحاتهم لم تلبث ان هزمت اللغات الاخرى المعاصرة واحتلت مكانها ؛ ولم يأت القرن الثاني للهجرة حتى اصبحت لغة شعوب تمتد من المحيط الاطلانتيكي

الى جوار الصين ، ولغة الانتاج العلمي والادبي لتلك الشعوب ، وحتى قضت على اللغات الكثيرة التي قاومت اليونان والرومان . وكان من عواقب ذلك ان المدنية العربية التي رافقت اللغة العربية في الانتشار صبغت ايضاً بصبغتها الخاصة مدنيات تلك الامم المختلفة .

هذا الى ان حضارة العرب لم يكن لها ميزة الشمول فحسب ، بل انها جلبت الموهوبين من الأمم الأخرى للمشاركة في بنيانها ، وللمساهمة في جعلها مدنية عالمية فبالاضافة الى المترجمين والفنانين والأخصائيين الذين اقبلوا على العواصم العربية واضطلعوا باعباء هذا البنيان في بدايته ، فان كثيرين من علماء العربية الشهيرين وشعرائها وادبائها الموهوبين كانوا من غير العرب .

واكثر من هذا فان الاعاجم وان اتيح لهم من بعد انتزاع استقلالهم السياسي فانهم ظلوا مع ذلك رعية للعرب في حضارتهم ، وما استطاعوا الاستغناء عن ادابهم وعلومهم ولغتهم . وهؤلاء الفرس الذين كانوا من اشد المنافسين للعرب فرغم انهم نجحوا ، بعد حين ، في اعادة دولتهم ، وفي الرجوع الى لغتهم ، ولكنهم ظلوا مع ذلك يضعون التآليف في اللغة العربية الى القرن التاسع للهجرة ، وظل شعرهم ، حتى الآن يقاس ويوزن بمقاييس واوزان اللغة العربية ، واستمرت الفاظ اللغة العربية تشكل جزءاً كبيراً من لغتهم ، شأنهم في ذلك شأن الاتراك سواء اكانوا في تركيا نفسها ام في اواسط آسيا ، اوشأن سائر البلاد الاسلامية سواء اكانت في الباكستان ام في غيرها .

وكذلك في الغرب ، ولا سيما في اسبانيا ، فان اللغة العربية

التي انتشرت بسرعة وانتشرت معها الحضارة العربية منذ بداية عهد الامويين ، سرعان ما ازاحت عن تلك البلاد اللغة اللاتينية كما أزاحت الصبغة اللاتينية التي خلفها الفتح الروماني .

وبعد اربعين سنة فقط من قيام الدولة الاموية في قرطبة نشر هشام بن عبدالرحمن الداخل لغة العرب في الاندلس ، وهو ثاني خلفاء الأمويين (٧٩٦م) ، ولم يمض الا قليل حتى راجت هذه اللغة بين القوط اصحاب البلاد الاولين ، وتكلموا بها وذلك رغم مقاومة الكنيسه لها . بل ان اللغة الاتينية الفصحى ، التي لم يكن يحسنها بين القوط غير الرهبان والاساقفة ، لم تسلم من التأثر بالآداب العربية في نظمها ونثرها .

ثم اخترقت اللغة العربية وادابها وعلومها جبال البيرونه الى فرنسا ، فالى ما بعد فرنسا ، حتى اصبح على قول أ . ج اربري الكاتب الانكليزي المعاصر « **يندر وجود شاعر كبير او كاتب او ناقد او روائي الا واعترف بانه مدين بالالهام للتفكير العربي . ليس ذلك في اللفظ فقط ، بل فيما يتناوله من الموضوعات العربيه في كتاباته الادبية** » وكان يرجع ذلك الى اقبال كثيرين منهم على الاندلس لطلب العلم ، والى تهافتهم على ترجمة المؤلفات العربية ، وفي طليعتهم بعض رجال الدين من امثال جربر الذي اهلته دراسته لان يصبح بابا باسم سيلفستر الثاني (٩٣٠–١٠٠٤م)

وقد عدد المقدسي في كتابه «تاريخ علم الادب» بعض شعراء الاسبان والايطاليين وقصاصيهم الذين كانوا اسبق الامم الى الاقتباس عن العرب وتقاليدهم . وقال (ص ٩٨) ان اهل جنوبي

فرنسا وشمالي اسبانيا كانوا يعدلون عن تعلم اشعار اللاتين الى اشعار العرب وازجالهم . ثم تعدى نفوذ الادب العربي الى شمالي فرنسا في القرن الثالث عشر فراجت قوافي شعره ورقة غزله فضلا عن الالحان الموسيقية . كما ان هؤلاء الافرنسيين والاسبان اخذوا عن العرب في المنثور القصص والملح وضروب الامثال والفكاهات والحكايات .

وهكذا كانت الثقافة العربية في كل القرون : الثامن والتاسع والعاشر للميلاد ، ثقافة عالمية ليس لانها فرضت نفسها فرضاً على العالم ؛ وانما لان العالم المتحضر اقبل عليها اقبالاً جعل بعض الامم تعدل عن لغاتها وآدابها وعلومها الى لغة العرب وآدابهم وعلومهم بسائق الرغبة والاختيار .

ثم ظلت هذه الثقافة قروناً عديدة شبه عالمية باعتماد مدارس اوروبا وعلمائها ، على المؤلفات العربية وباستمرار هذا الاعتماد الى بدء نضوج التمدن الحديث .



الفصل الرابع

اين من سادوا وشادوا وبنوا ؟

العصر التركي المغولي

العرب في الشرق والغرب بعد سقوط بغداد

●

انتهى ابن خلدون من وضع مقدمته في سنة ٧٧٩هـ — ١٣٧٧ م وكأنه التفت يمنة ويسرة فلم يرَ احداً من اولئك العرب الذين سادوا وشادوا وبنوا حتى صبغوا العالم طوال اجيال بصبغتهم فاجاز لنفسه ان يقول :

« توحشوا كما كانوا ، ولم يبق لهم من الملك الا انهم من جنس الخلفاء ومن جيلهم . »

وعلق على ذلك بقوله :

« ولما ذهب امر الخلافة منهم وامحى رسمها انقطع الامر جملة من ايديهم وغلب عليهم العجم دونهم ، واقاموا في البادية القفراء لا يعرفون الملك ولا سياسته . بل قد يجهل الكثير منهم انهم قد كان لهم ملك في القديم . »

ونحن وان كنا لا نجاري ابن خلدون في هذه المبالغة ، ولا نستسيغ هذا الطعن الموجه صراحة للعرب وهم الذين تولوا الملك

والسياسة دون الاعراب(١) ، ولكننا اخترنا استهلال هذا الفصل
بهذا القول لتبيان البون العظيم بين ما كانوا عليه في القرون الثلاثة
٨ و٩ و١٠ للميلاد ، وما امسوا عليه في نظر معاصرهم صاحب
المقدمة ، في القرن الرابع عشر وذلك خلال نشوء السلطنة العثمانية .

والواقع ان العرب وان لم يكونوا في ذلك العهد كما وصفهم
ابن خلدون ، ولكنهم كانوا قد خسروا سلطانهم السياسي ؛ ولم
يبقَ لهم منه الا الدولة الناصرية دولة بني الاحمر (١٢٣١-١٤٩٢م)
في غرناطة التي امست يتيمة وحيدة في اسبانيا ، منذ بداية التمدن
الحديث ، تناجز عن استقلالها الى نهاية القرن الخامس عشر ،
بالاضافة الى امارات لا شأن لها في جزيرتهم ، وعلى رأسها الدولة
الرسولية في اليمن (١٢٢٨-١٤٥٤م) . واما ممالكهم في المشرق
والمغرب فكان قد خلفهم عليها دول اسلامية اخرى من شتى
الاعاجم ، ولا سيما من المغول والترك والفرس والبربر .

ففي شمالي افريقيا تغلب المماليك على مصر ، فقامت دولتهم
المعروفة بالبحرية (٦٤٨ هـ =١٢٥٠ م) ثم دولتهم الثانية : دولة
الجراكسة (٧٨٤هـ=١٣٨٢ م) . واستولى هؤلاء على بلاد الشام
وتجاوزوها الى كيليكيا حيث قضوا على دولة الارمن الصغرى .

وقامت في طرابلس الغرب دولة بني زيان (٦٢٣ = ٧٩٦هـ)
(١٢٣٥ =١٢٩٤ م) كما قام بنو حفص في تونس (٦٢٥=٩٤١هـ)
(١٢٢٧=١٥٣٤ م) ، وبنو مرين في مراكش (٥٩١= ٩٧٥هـ)

(١) في كتابنا « العروبة والشعوبيات الحديثة » الذي صدر هذا العام
تعليقات على مقدمة ابن خلدون يستحب الرجوع اليها .

(١١٩٥ = ١٥٦٧ م) ثم خلفهم عليها الوطاسيون والسعديون.

واما الجزائر فكانت موزعة بين زعماء اقطاعيين اشهرهم آل
مزني في بسكرة في جبال الاطلس ، وابن عمرو في مرفأ بوجاية ،
وآل عبد الواد في نجود تلمسان ، وفرع من آل حفص في قسطنطينة .

وكان المغرب الاسلامي (١) خلال ذلك ، عرضة لهجمات
اسبانيا والبرتغال بعد ان اتيح لهما الاستقرار في شبه جزيرة ايبريا.
فاحتلوا طنجة وسبتة وارزيلة ، وجعلوا مجاز جبل طارق في قبضة
يدهم . ولولا انصراف البرتغال الى تجارة البحار ، وانشغال اسبانيا
بمناجزة دولة بني الاحمر لكان المغرب فريسة لهؤلاء الذين اخذوا
على عاتقهم مواصلة الحروب الصليبية في الغرب .

ولما اتيح للاسبان ان يزيحوا هذه الدولة ويحتلوا غرناطة (١٤٩٢م)
اشرأبت انظارهم الى ما وراء البحر ، فغزا دي بيجو القرطبي سنة
١٥٠٤ م ميناء مالقة ، واستولى ، بعد ذلك ، على ثغور عدة فيما
بين مدينتي سبتة ووهران . ثم لم تلبث مملكة اراغون ان جددت
الكرة على بني زيان ، واستولت على مدينة وهران .

وكانت اسبانيا خلال ذلك تواصل الضغط على تونس حتى اضطرتها
في سنة ١٥١٠ م لاداء الجزية لها .

واما في الشرقين الاوسط والادنى فكان انحلال السلطنة
السلجوقية قد افضى الى استئثار عمالهم واتباعهم بامصارها العديدة.

(١) اتفق المؤرخون في العصور الاسلامية على تسمية شمالي افريقيا بالمغرب،
وكانوا يقسمونه الى ثلاثة اقسام : (١) الادنى ويطلقون عليه افريقية وهو
يشمل تونس وليبيا (٢) الاوسط اي الجزائر (٣) الاقصى اي مراكش .

فانشأ هؤلاء دويلات، كان اعظمها دولتي آل زنكي والخوارزميين.
بيد انه لم يكن لمعظمها عمر طويل ، ولا امر خطير ، ما عدا
حكومة القرمان بآسيا الصغرى التي ظلت تتمتع بالاستقلال حتى
قامت على انقاضها سلطنة آل عثمان .

وكان الشرق الادنى، في تلك الحقبة ، عرضة لحملات من الشرق
والغرب . وبعد الكوارث التي احاقت به من جراء الحملات المغولية
والصليبية ، وبعد الفتن التي نشبت في ارجائه مني هذا الشرق
بغزو تيمورلنك .

وقد اتيح لتيمورلنك اثر القضاء على سلطنة آل عثمان الاولى
ان يصبح سيد الشرقين الاوسط والادنى . ولكن التنازع على
العرش الذي وقع بين خلفائه، جعل بلاد مابين النهرين وخوارزم
وتركستان منذ سنة ١٤٤٩ م ميدانا للمذابح والفتن المتواصلة،
وافضى الى زوال هذه الامبراطورية ؛ ومهد السبل بالتالي لقيام
الدولة الصفوية في فارس التي بسطت حكمها على ما حولها من
الامصار، كما افسح المجال لعودة سلطنة آل عثمان. والى هذا فان
انحلال السلطنة السلجوقية كان قد افضى ايضاً الى قيام دول اخرى
في اواسط آسيا وما حولها : فاستأثر بالحكم في جنغاريا على مقربة
من الصين خانات مغول الشرق الاقصى (٦٠٣–١٠٤٣ ه) وفيما
بين النهرين خانات العشائر الذهبية (٦٢١– ٩٠٧ ه)، وفي
تركستان وبلاد التتر آل تيمور (٧٧١– ٩٠٦ه)، وفي فارس خانات
ايران (٦٥٤–٧٥٠ه) والجلائريون (٧٢٦–٨١٤ ه)، وفي كرمان
وكردستان المظفرون (٧٩٣–٧٩٥ه)، وفي خراسان السيربداريون

(٧٢٧– ٧٨٤ ه)، وفي هراة الكرتيون (٦٤٣–٧٩١ ه)، وفي
اذربيجان القراقيونليون (٧٨٠–٨٧٤ه)، بينما كانت السلطة قد
انتهت في الهند الى كل من سلاطين دلهي (٦٠٢–٩٦٢ه) وملوك
البنغال (٥٩٩–٩٨٤ه) .

وهكذا امسى العرب الذين كان سلطانهم في الامس يمتد من
شواطىء المحيط الاطلنتي الى جوار الصين ، ويشمل السند في الجنوب
واسبانيا بالشمال ، امسوا رعايا للترك والمغول وغيرهم من اعاجم
الشرق ، كما امسوا في المغرب يرزحون تحت سلطة البربر .

واما الخلافة فكانت قد صارت اثرا بعد عين منذ سقوط بغداد.
حقاً ان خلفاء بغداد كانوا ، قبل ذلك قد خسروا سلطتهم ،
ولا سيما في خارج العاصمة ،واصبح النفوذ على الدولة للاعاجم الذين
كانوا يتعاقبون على منصب امارة الامراء ؛ ولكن الخلفاء وقتئذ
كانوا يحتفظون بسلطة روحية يعترف لهم بها اولئك المتغلبون،
فضلاً عن سائر العالم الاسلامي .ولكن لما انتقلت الخلافة العباسية
الى مصر، اثناء حكم المماليك ، وذلك عقب سقوط بغداد في قبضة
هولاكو ،امست الخلافة اسماً دون مسمى الى ان زالت تماماً بالفتح العثماني
حينما نقل السلطان سليم الخليفة العباسي الى قسطنطينية وانتزع منه
الخلافة ومن العرب .

ما هي العوامل التي مهدت السبل للترك لانتزاع السلطة ؟

بلاد البداوة كالكأس الطافحة بالماء كلما اهتزت تدفقت فيما حولها.
لذلك كان علينا اولا استعراض الاسباب التي افضت الى ذلك
الاهتزاز في بادية الاتراك ، فحملت هؤلاء على مغادرة بلادهم تباعا

من حول الصين للاتجاه شطر الشرقين الاوسط والادنى .

لقد كانت اسباب ذلك ترجع الى عاملين سلبي وايجابي. فالسلبي بالنسبة للترك جيران الصين ، كان مداره ان هذه كرهت جوارهم فوالت دفعهم باستمرار عن الامصار القريبة منها ، ولا سيما منذ قامت في الصين الشمالية دولة تنك Thang ، والحقت بها الشطر الجنوبي ، وذلك في اوائل القرن السابع للميلاد. فولى الترك وجوههم تدريجياً شطر الغرب . والايجابي بالنسبة للترك في الشرق الاوسط مداره ان اخبار الدولة العباسية ، وما فيها من انباء تشير الى ما صار للترك المهاجرين اليها من شأن ، ولا سيما في عهد المعتصم وما بعده ، كانت تنشر في الاصقاع التركية بصور مشوقة فتدفعهم ، افراداً وقبائل ، الى التقدم نحو الديار الاسلامية على امل مشاركة اخوانهم السابقين في الخيرات والمناصب .

وكانت السبل اليها قد تمهدت امامهم ، بما اصاب فارس من وهن نتيجة للحروب التي استمرت بينها وبين الرومان ، ثم بينها وبين البيزنطيين فافضت بالتالي الى دخولها في حوزة المسلمين بعد وقعة القادسية (١٤هـ=٦٣٥م) . ولو ان دولة الاكاسرة ظلت قائمة على ما كانت عليه من القوة لما وجد الترك منفذاً الى الشرق الادنى ، ولكانت فارس بالنسبة للترك كسد يأجوج ومأجوج الذي اقامته الصين في وجههم للحيلولة دون غزواتهم المستمرة عليها .

لقد كان الترك اجنـادا للصين ، ولكنهم ، في نفس الوقت ، كانوا مصدر متاعبها ، لذلك كان عواهلها يحاولون تارة تطهير البلاد منهم ، كما فعـل الامبراطور منك ـ تي Ming-te ، وطورا

يستعينون بهم اضطراراً اثناء الحروب الداخلية التي كانت تقع بينهم فيتيحون بذلك للاتراك بعض الفرص لبسط نفوذهم على الصين .

ولما ظهر الاسلام كان للترك شأن عظيم في اواسط آسيا ، وملك قوي الاركان حمل العرب على التهيب من مجابهتهم بعد القضاء على فارس . وآية ذلك وقوف الاحنف بن قيس في خراسان ، واجتنابه التقدم فيما بعدها حينما هرب منه يزدجرد بن شهريار شاه فارس ، والتجأ الى خاقان الترك في فرغانة . وقد وقف هذا الموقف امتثالا لامر الخليفة عمر بن الخطاب الذي كان يسترشد بقول نبيه : « اتركو الترك ما تركوكم . »

غير ان معاوية بن ابي سفيان ما ان استتب له الأمر حتى سمت به المطامع الى ما وراء خراسان. فاجتاز عامله فيها نهر جيحون الى سمرقند ، ودخل بخارى ، واخضع بالقوة ملكتها خاتون ، وفتح ترمذ صلحاً . وقد اخذ الحظ يخدم الامويين في ايام عبد الملك بن مروان ، بسبب ما وقع وقتئذ بين عواهل الترك من الشقاق ، فوالى الامويون الحملات عليهم . ثم لم يأت على ذلك الا نحو جيل حتى اصبحت رايات العرب تخفق على بلاد الترك الى مقربة من تخوم الصين .

ولما انتشر الاسلام في تلك البلاد خلال عهد العباسيين ، دخلت به العلاقات العربية التركية في مرحلة جديدة . ذلك ان الترك اقبلوا على دين محمد افواجاً افواجاً ، وانقلبوا بذلك من خصوم ألداء للاسلام الى حماة له شديدي التعصب . ثم اقبلوا تباعا على بلاده ، زرافات ووحدانا من كل فج عميق ، يلتمسون فيها الرزق والمناصب ، ولا سيما في الجندية التي تتفق مع طبيعتهم .

وازدادوا اقبالا على البلاد الاسلامية بعد اسلام السلجوقيين الذين تطوعوا للدفاع عن بلاد الاسلام وعن دينهم الجديد . وكان الحافز للترك على اللحاق بالسلطنة السلجوقية، على نطاق واسع، وعلى المساهمة معها في النضال طمعهم بمشاركتها في العز والرخاء اللذين اصابتهما في مواطنها الجديدة بالاضافة الى ما صار للترك على وجه عام في دولة العباسيين من النفوذ والجاه، ولا سيما حينما اصبح السلجوقيون يتولون منصب الشحنة في بغداد . وهو من المناصب ذات النفوذ الكبير في ذلك العهد .

وقد اتخذ السلاجقة اصفهان عاصمة لسلطنتهم، ولكن دوام الحال من المحال: فقد اصاب السلطنة السلجوقية، انشقاق فيما بين سادتها افضى الى زوالها، والى زوال هذا النفوذ العظيم الذي ادركه الترك في ايامها. وكان مرد ذلك يرجع الى ان هجرة الترك الى بلاد الاسلام كانت قد افسحت المجال للمغول النازلين في جوار الامبراطورية الصينية لان يخلفوهم على التجند لها وعلى خدمة اغراضها . غير ان هؤلاء كانوا، مع ذلك، يحسدون الاتراك على ما ادركوا من العز في بلاد الاسلام. فما ان تطرق الانشقاق الى آل سلجوق، منذ اواخر القرن الثاني عشر للميلاد، حتى شرع المغول يفكرون في التقدم غرباً شطر العالم الاسلامي أملًا بان يحظوا فيه بمثل ما حظي به جيرانهم السابقون . ولكن هذه الامنية كانت بالنسبة للمغول صعبة المنال لان دولة اخرى تركية قامت على انقاض السلجوقيين، وصار لها بالاسلام شأن عظيم، ونعني بها السلطنة الخوارزمية. فقد قامت هذه في ناحية خوارزم على نهر جيحون فانتصبت في وجه المغول تحول بينهم وبين الشرق الادنى

وما يليه . ولكن لما اتيح لجنكيز خان التغلب على شاه خوارزم فتحت له ابواب همذان واذربيجان وايران فتقدم اليها وألحقها بامبراطوريته. ولولا ان وجهة الفتح المغولي تحولت شطر اتجاهات اخرى لادرك هذا الفاتح البحر المتوسط، خصوصاً وان الدول الاسلامية كانت منصرفة الى دفع الصليبيين، ومنهمكة معهم في تلك الحروب الضارية. هذا وكان الصليبيون قد اتصلوا بهذا الفاتح المغولي وشوقوه للحملة على المسلمين فلباهم وتقدم غرباً الى الشرق الادنى؛ ولكنه لم يلبث ان تحول عنه لاسباب داخلية .

هذا وكان الترك يفرون تباعاً من وجه الجارف المغولي ويتقدمون شطر الغرب كلما تقدم نحوهم . وكانت قبيلة قايي خان، التي انحدر منها آل عثمان، في جملة هؤلاء النازحين فراراً من المغول: كانت هذه القبيلة تنزل في جبال الطون طاغ (جبال الذهب) في اقصى الشرق الاوسط، فتقدمت اولاً الى كرمان تستظل بحماية شاه خوارزم. ثم لما احرز المغول النصر النهائي على هذا الشاه، واحتلو بلاده تقدمت ايضاً نحو الغرب الى كردستان . وفي ذلك الحين حمل المغول حملة جديدة على الشرق الادنى وذلك في ايام جرماغون خان. غير انهم تحولوا ايضاً عن بلاد العباسيين واتجهو الى الاناضول، كما احجم جنكيز خان من قبل عن التعرض اليها بعد القضاء على خوارم شاه. ولا ادري السبب في احجام المغول وقتئذ عن التقدم شطر العراق والشام، وما هو السبب في اتجاههم بدلاً من ذلك نحو الشمال الشرقي. ولكن حملة المغول الجديدة لم تكن موفقة لان علاء الدين الاول السلجوقي صاحب قونية استطاع ان يدفعها . وكان الفضل في ذلك، على رواية مؤرخي

الاتراك ،يرجع الى قبيلة قابي خان ، التي كان يرئسها ارطغرول.
الجد الاعلى لسلاطين آل عثمان ،تلك القبيلة التي كانت قد نزحت ايضاً من
منازلها في كردستان الى الاناضول فراراً من المغول . ولما نشب
القتال بين المغول وعلاء الدين صاحب قونية هرعت هذه القبيلة
لنجدة بني قومها ورجحت كفتهم في القتال . غير ان المغول كروا
بعد سنين قلائل كرة اخرى على علاء الدين المشار اليه وانتصروا
عليه ، وبسطوا سلطتهم على بلاده .ثم لما انتهت احتفالات تنصيب
الخان منكوبي طولي استأنفوا الزحف على العالم من كل ناحية ،
وساقوا تلك الحملة الجارفة بقيادة هولاكو الى الشرق الادنى ، وقد
دخلت بغداد سنة ٦٥٦ هـ = ١٢٥٨م . وكان هولاكو قائداً
من قواد الخان المغولي خلافاً لما يتوهم بعض المؤلفين بانه هو الخان
نفسه . ولما قضت الحملة المغولية وطرها من الدولة العباسية ،واصلت
الزحف الى الامام حتى بلغت شواطىء البحر المتوسط في بلاد الشام .
غير انها لم تتعرض للبقية الباقية من المناطق التي كانت لا تزال في
حوزة الصليبيين بالشام ، واهمها انطاكية ويافا وعكا . ويرجع ذلك
الى ما كان بين المغول والصليبيين من العلاقات الطيبة ، وما تخللها
من مفاوضات ،كان قداسة البابا يتولاها ،للاتفاق معاً على المسلمين ،
هذا فضلاً عن ان سركوتاني امّ هولاكو ،وطوقوزخاتون زوجته ،
كانتا مسيحيتين ، كما فصلنا ذلك في الكتاب الاول من مؤلفنا
« فلسفة التاريخ العثماني » .

هذا واما قبيلة قابي خان التي ناصرت علاء الدين الاول السلجوقي على
المغول فقد لمع نجمها ،ذلك لان هذا السلطان قدّر لها صنيعها ، واقطع رئيسها

الامير ارطغرول ولاية اسكيشهر في آسيا الصغرى عند تخوم الروم
التكفوريين التابعة للامبراطورية البيزنطية ، وذلك في سنة ٦٣٠ هـ
= ١٢٣٣ م .

ولما مات ارطغرل سنة ٦٨٠هـ =١٢٧١م خلفه على الامارة ابنه
عثمان ، وقد ظهرت مواهبه اثناء حملاته على جيرانه البيزنطيين فاتحاً
باسم علاء الدين الثالث السلجوقي .

وفي تلك الاثناء طرأ تطور جديد في الاوساط المغولية ، وكان
مرده ،الى ان الاسلام الذي مني بالهزيمة سياسياً امام المغول ، لم يلبث
ان انتصر عليهم في الناحية الروحية حينما اعتنق غازان بن ارغون دين محمد
فتطور الموقف . غير ان هذا التطور لم يجعل البلاد الاسلامية في نجوى من
الخطر المغولي ، بل ضاعف الخطر لان هذا الخان المسلم حفيد
هولاكو ، تجاوزت امنيته اهداف اجداده ، فلم يعد يقنع بغزو
بلاد المسلمين فحسب ، بل سمت به المطامع لان يكون سلطاناً على
اخوانه المسلمين . غير ان مماليك مصر ،اصحاب الشام وما حولها ،
تصدوا له ودفعوه عنها فاتجه المغول الى الاناضول . وهناك
استطاعوا ان يحرزوا النصر على سلطنة قونية السلجوقية وان
يقضوا عليها القضاء المبرم .

ثم لما انسحبوا من الاناضول خف ثلاثة عشر اميراً من عمال
السلطنة السلجوقية هناك لاعلان الاستقلال . وقام كل منهم على ما كان
في حوزته ؛ وكان بين هؤلاء الامير عثمان بن ارطغرل الذي حكم
حكماً مستقلاً منذ سنة ٦٩٩هـ = ١٣٠٠ م ، وكان حكمه نواة
الامبراطورية العثمانية التي مثلت ،منذ ذلك ،اكبر دور في التاريخ .

الفصل الخامس

آل عثمان يتناولون علم الزعامة من العرب

•

• اختلال التوازن في العالم الاسلامي .

قامت سلطنة آل عثمان في الاناضول عقب حقبة من الزمن كانت اشد الحقبات سوءاً على العرب والمسلمين، وخلال عهد اختل فيه التوازن في الشرق والغرب، وامست فيه بلاد العرب والمسلمين لقمة سائغة لكل طامع .

ففي الشرقين الادنى والاوسط كان العرب خلال القرنين الرابع والخامس للهجرة عرضة للمحن من جراء تنازع الترك والديلم على منصب امارة الامراء في بغداد عهد العباسيين ، هذا المنصب الذي كانت تتمركز فيه السلطة ، وبسبب ما تلى هذا الصراع من تنازع بين الترك انفسهم. ثم كانت الحالة اشد وأمرّ في القرنين السادس والسابع لانقسام السلطنة السلجوقية التي انتهى اليها الحكم على تلك البلاد واستبدت بالسلطة في بغداد. ولما جر هذا الانقسام من حروب بين فروعها ، ومن ظهور دول اخرى قامت على انقاضها ، واهمها دولتا آل خوارزم وآل زنكي التركيتان

وآل ايوب الاكراد . وتلك الحروب جعلت الشرقين الاوسط والادنى ميادين قتال مستمر قوّض اركان معالمهما والقاهما بين انياب البؤس والخراب ، هذا فضلاً عن ان تلك الحروب اظهرت العالم الاسلامي في الشرق على حال من التفكك والتشتت . كان من عواقبه ان انقض على هذا العالم الطامعون به من الغرب، ثم الكرج واللاز والمغول من الشرق، فكانت الطامة الكبرى .

وفي الغرب اصاب العرب المسلمين ما اصاب اخوانهم في الشرق من المحن : فان انتصار الجيوش المسيحية المتحدة على الموحدين البربر في وقعة العقاب باسبانيا في اوائل القرن السابع للهجرة جرّ من بعد انواع الكوارث على مسلمي تلك البلاد . ذلك لان هذا الانكسار جرأ عمال الموحدين عليهم فاجمعوا على اخراجهم من اسبانيا . ولكن هؤلاء العمال لم يستطيعوا الصمود في وجه الاسبان من جراء تفرق اهوائهم ، فصال الاسبان عليهم وانتزعوا منهم خيار بلادهم ؛ ولولا بنو مرين اصحاب مراكش الذين خفوا لدفع ملوك اسبانيا عن بلاد المسلمين هناك لما بقي فيها للاسلام ظل لسلطان .

ولكن بني مرين لم يلبثوا طويلا في اسبانيا حتى منوا بمثل ما مني به الموحدون قبلهم من الانشقاق والتنابذ . وقع ذلك عقب وفاة السلطان يعقوب، الذي ادرك الذروة في تاريخهم، فضاع من بعد كل امل معقود عليهم ، كما ضاع كل امل للمسلمين باسبانيا .

وكان المغرب خلال ذلك موزعاً بين امارات ودول متعددة متعاكسة تتلهى بخلافاتها الداخلية عن كل شيء آخر . وذلك كان مشجعاً للاسبان والبرتغاليين على ان تتجاوز مطامعهم تحرير بلادهم الى

اللحاق بالمسلمين في الضفة الاخرى الافريقية . وقد احتلوا فعلاً طنجة وسبتة وارزيلة ، وهمّوا بالبقية الباقية من سواحل المغرب .

وكأن العالم الاسلامي ، وقد امسى على الحالة التي وصفناها في كل من الشرق والغرب ، اصبح يتطلع الى منقذ ينقذه من الهاوية التي سقط فيها . فلما خرج آل عثمان الى ميدان الكفاح ، وظهرت بوادر نجاحهم في حروبهم ضد الامبراطورية البيزنطية علق المسلمون عليهم الآمال ، واتجهوا بقلوبهم اليهم .

ومثلما كان العالم الاسلامي متأهباً لقبول المنقذ الامر الذي سهل للسلطنة العثمانية ادراك النجاح في الشرق فان الحالة التي كانت عليها اوروبا وقتئذ افسحت المجال ايضاً للسلطنة لان تحرز فيها ايضاً مثل هذا النجاح . وكان من ابرزها تلك الخصومة الحادة التي كانت مستفحلة بين الكنيستين الكاثوليكية والارثوذكسية وبين اتباعهما ، تلك الخصومة التي ازدادت حدة على حدة اثناء حملات الصليبيين على المسلمين من جراء ما وقع بين اتباع الكنيستين من الاحتكاك . وكما ان هذه الخصومة صرفت اوروبا عن دفع الخطر العثماني فان احداثا أخرى وقعت في اوروبا افضت بالتالي الى فوز آل عثمان ذلك الفوز العظيم . وكان من اهم هذه الاحداث الانشقاق الذي وقع بين الملكية والبابوية ، ذلك الانشقاق الذي كان من عواقبه انتصار الملكية وانقسام كنيسة روما الى اثنتين خلال مدة من الزمن . كما فصلنا ذلك تفصيلاً في كتابنا فلسفة التاريخ العثماني .

● **العثمانيون يخلفون العرب في رفع راية الاسلام .**

دخل هولاكو بغداد سنة ٦٥٦هـ = ١٢٥٨ م ، وكانت عاصمة

العروبة الكبرى ، ففتك باهلها فتكاً شديداً حتى قدر المؤرخون عدد القتلى بما يشبه المبالغة : قدروهم تارة بمليون ، وتارة بمليونين . ثم لم يكتف هولاكو بالتعرض للانفس بل تعداه الى الظهور بمظهر من يتعمد تهديم اركان المدنية العربية ، فالقى كتبها في دجلة ، وكان عددها لا يحصى ، وكلها مخطوطات لا يسمح الزمان بالتعويض عنها . وبعد ان فتك في عاصمة العباسيين واتلف ما اتلف ، ساق اجناده الى الامام شطر بلاد الشام . وكان جنده حيثما حلوا يمعنون في التخريب امعان الحاقد المنتقم .

في ذلك العام التاريخي ، عام سقوط بغداد ، الذي يعتبر بداية احتضار التمدن العربي ولد في مدينة سكود بالاناضول ابن لارطغرل التركي احد عمال السلطان علاء الدين الاول السلجوقي سلطان قونيه ، فاسمى المولود عثمان . وهو الذي قدر له ان يكون مؤسس السلطنة العثمانية فيما بعد منذ سنة ٦٩٩هـ = ١٢٩٩ م .

وخلال العراك الذي كان مستمرا بين الاسبان وبين كل من بني الاحمر في الاندلس وعواهل شمالي افريقيا ، وهو اشبه شيء بمعاركة الذئب للخروف قبل التهامه ، استبسلت السلطنة العثمانية واجتازت البوسفور الى الضفة الاوروبية ، وانتصرت تباعاً على دولها منفردة ومتحدة . ثم اتيح لها ان تدخل قسطنطينية فاتحة (٨٥٧هـ = ١٤٥٣م) فتقضي على حياة امبراطورية عظيمة ، هي امبراطورية بيزنطة التي طالما صمدت لحملات العرب وسواهم ، كما تسنى لهذه السلطنة ان تتقدم من نصر في اوروبا الى نصر حتى ادركت فينا عاصمة النمسا وحاصرتها ثلاث مرات .

وبرزت عظمة هذه السلطنة اكثر فاكثر حينما خلفت العرب على سيادة البحار : فعدا البحر الأسود الذي اصبح ، على تعبير احد المؤرخين الأوروبيين ، « بحيرة لتركيا تنظر اليها كأنها جزء من حرمها » فقد بسطت السلطنة سيادتها على البحر الاحمر ، وخليج فارس ، فضلا عن انها اصبحت سيدة البحر المتوسط ، اثر انتصار اسطولها في جوار برهفيزا سنة ١٥٣٨م على اساطيل الدول الاوروبية المتحدة والبابا .

فالعالم الاسلامي الذي كان قد استولى عليه اليأس من جراء الكوارث التي احاقت به في الشرق والغرب ، وذلك بعد انهيار شأن العرب ، شعر اثر هذه الانتصارات ، التي احرزها العثمانيون على التوالي ، سواء في البر أو في البحر ، بحياة جديدة ردت اليه الامال ، ورفعت راسه كرة اخرى .

لذلـك فان العام التاريخي ، عام سقوط بغداد ، الذي كان عام شؤم على العرب اذ كان بمثابة المرحلة الاولى لانهيارهم . ذلك العام الذي ولد فيه مؤسس الامبراطورية العثمانية ، يعتبر من ناحية اخرى ، بالنسبة للمسلمين ، عام خير وبركة . ذلك لان المسلمين الذين كانوا قد امسوا ، في المشرق والمغرب ، فريسة لغزاة الشرق والغرب وجدوا ، من بعد ، في آل عثمان ذلك المنقذ الذي كانوا يترقبون ، بل وجدوا فيهم اكثر من هذا امبراطورية استعادت كرامتهم ورفعت رايتهم كرة اخرى فوق الذروة التي كانت تخفق عليها في الأمس القريب .

الفصل السادس

كيف استطاع آل عثمان ادراك ما لم تستطعه الاوائل في القضاء على الامبراطورية البيزنطية؟

•

كانت الامبراطورية البيزنطية ، ابنة روما ، رابضة على مفترق الطرق في قسطنطينية ، مترامية الاطراف تمتد الى مصر فالحبشة جنوباً ، والى المحيط الاطلنتي غرباً ، وهي تحيط بالبحر المتوسط من ناحيتيه الشرقية والجنوبية ، وتحتل اكثر جزره ، بينما تخفق اعلامها على شواطىء البحر الاسود وعلى كثير من جزره .

وكانت ، وهي تحمل لواء زعامة الغرب ، كالطود الراسخ تصد عنه كل فاتح شرقي يتعرض له من ناحيتها . فدفعت عنه تباعاً قبائل الهن الاسيوية ، واكاسرة فارس ، وسلاطين السلاجقة .

ثم لما همّ العرب باوروبا في صدر الاسلام وزحفوا على الامبراطورية البيزنطية فاتحين انتصبت هذه امامهم وجهاً لوجه فاضطروا لأن يتحولوا عنها الى ناحية شمالي افريقيا ، وهناك بعد امتلاكهم مستعمرات بيزنطة الفسيحة اجتازوا الى اوروبا من ناحية جبل طارق . وكان موسى بن نصير القائد الاعلى لحملتهم الاولى

يعلل النفس بان يواصل الفتح ويعود من اسبانيا الى دمشق بطريق روما وقسطنطينية.

ولكن هذا الحلم الجميل لم يستطع موسى ان يحققه ، ولا احد سواه من عواهل العرب في الغرب، لاسباب داخلية برزت بالاضافة الى اوضاع خارجية . ثم لما انتقلت السلطة العسكرية الى الترك ، وجاور آل سلجوق ، بفتوحاتهم الواسعة ، تخوم الامبراطورية البيزنطية ، طمعوا ايضاً في ازاحتها عن مفترق الطرق قاصدين التقدم الى الغرب شأن الفاتحين الشرقيين قبلهم. بيد انهم عجزوا ايضاً عن بلوغ هذه الامنية الجميلة ، وتركوا هذا الفخار الى اسرة اخرى من قومهم كان لها شرف تحقيقها ،واعني بها اسرة آل عثمان التي حق لها ان تنشد مفتخرة قول المتنبي:

واني وان كنت الاخير زمانه   لآت بما لم تستطعه الاوائل

ونحن نستعرض في هذا الفصل الادوار التي مثلتها الامبراطورية البيزنطية في السياسة العالمية حتى اتاها الاجل المحتوم عن يد السلطان محمد الفاتح ، كما نستعرض المصاعب التي ذللها العرب امام الترك فاتاحوا لهم ان يدركوا مالم يدركه الفاتحون الاولون. وغايتنا من ذلك تدوين ناحية مهمة من نواحي تنازع الشرق والغرب بعد ان انتقلت الزعامة الاوروبية من الاغريق والرومان الى قسطنطينية .

١ - كيف قامت امبراطورية الرومان الشرقية ؟

على انقاض مدينة بيزنطة اليونانية اقام الامبراطور الروماني قسطنطين مدينة جديدة (٣٢٠م) اطلق عليها اسمه فسميت قسطنطينية ،

واتخذها عاصمة لدولته بدلاً من روما لاسباب مذهبية وسياسية .

وكان من عواقب هذا الانتقال من روما الى قسطنطينية انقسام الامبراطورية الرومانية ،الى دولتين شرقية وغربية وذلك عقب موت الامبراطور تيودوس في سنة ٣٩٥م ٠فكانت الدولة التي اتخذت قسطنطينية عاصمة لها تسمى دولة الرومان الشرقية ، والتي ظلت في ايطاليا تسمى دولة الرومان الغربية .

وكان هذا الانقسام نقطة انطلاق جديد بالنسبة لكل منهما . فالشرقية اخذت تتقدم بنشاط بارز في شئونها الاقتصادية والثقافية فضلاً عن العسكرية استناداً الى الشعب اليوناني الذي اتخذته عصبية لها، وعهدت اليه بشؤونها، بينما شرعت الغربية تنحدر وتتلاشى من جراء الغزوات المتوالية عليها من قبل جماعات الخن **Les Huns** والغول والقوط وسائر الحملات البربرية ، وبسبب ما فشى في اوساطها من الامراض الاجتماعية .

على ان اليونان الذين اصبحوا اركان الامبراطورية الشرقية لم يلبثوا ان انتزعوا عرشها بعد اسرة يوستنيانوس واستأثروا به ، فعرفت منذ ذلك بالامبراطورية البيزنطية .

٢ - اسرة تيودوس وخلفاؤها (٣٩٥ - ٥١٨ م)

برهن تيودوس مذ تسنم العرش عن جدارة في الحكم ،خلافاً لخلفائه كلهم باستثناء احدهم مرسين (٤٥٠ - ٤٥٧ م) .ومع ذلك ورغم المشاحنات المذهبية التي منيت بها الكنيسة الشرقية التي ادت الى تفكك الشعب فقد استطاعت هذه الاسرة ان تصد الغزاة عن بلادها من فرس وخن وغيرهم .

غير ان استمرار الخلاف المذهبي بينهم افضى ، في النهاية ، الى ان ينال منهم الانشقاق اشد مما ناله الغزاة ، ولا سيما ابان التوتر الذي اشتد بين الكنيسة الشرقية والبابوية ، وذلك خلال حكم الامبراطور انسطاس ، وافضى الى التقاطع والتعادي بين اتباعهما.

ثم كادت الامبراطورية البيزنطية تلفظ انفاسها باكراً عقب سقوط هذه الاسرة من جراء ما نشب فيها من الثورات العسكرية والتقاتل على التاج ، خصوصاً وان الذين تعاقبوا على العرش بعد هذه الاسرة ما كانوا يتمتعون بثقة الشعب . ولكن قيام اسرة يوستنيانوس انقذ الامبراطورية من الدمار .

٣ – اسرة يوستنيانوس (٥١٨ – ٦١٠ م)

لم ينقذ يوستنيانوس الامبراطورية من الدمار فحسب ، وانما سار بها شوطاً بعيداً في ميدان التقدم . وهو فضلاً عن تعهده الشريعة الرومانية باصلاح عظيم فقد عني كل العناية بالشؤون الثقافية والاقتصادية .

والى ذلك فقد اندفع كالبحر الزاخر شطر اولئك الغزاة الغربيين الذين طالما تعرضوا ، من قبل ، للامبراطورية ، فقضى القضاء المبرم على كل من مملكة الواندال في شمالي افريقيا ، ودولة اوستروغوط في ايطاليا ، واستولى على الجانب الجنوبي الشرقي من اسبانيا رغم كل مقاومة ابداها اصحابها الفيزيغوط .

غير ان حملاته الهجومية هذه كان من عواقبها اضعاف قوته الدفاعية تجاه فارس العدوة التقليدية ، وحيال السلاف والهن والبلغار . فانقض هؤلاء على الامبراطورية ، في عهده وعهد خلفائه ، وافضى ذلك

الى سقوط هذه الاسرة .

٤ – اسرة هرقل (١٢ ق هـ – ٩٩ هـ) (٦١٠ – ٧١٧ م)

استطاع هرقل بما احرزه من الانتصار على فارس من جهة ، وعلى الافارس **Avares** من جهة ثانية ان يستعيد هيبة الامبراطورية. وكان مقدراً له ان يمثل دوراً كبيراً في تاريخ بيزنطة . ولكنه فوجىء بقوة جديدة برزت في جوار بلاده لم تكن بالحسبان قضت على احلامه . اولئك هم العرب الذين لم يلبثوا قليلاً حتى استولوا ، في ايامه وفي عهد خلفائه ، على بلاد الشام والموصل ومصر والمغرب ، فضلاً عن بعض الجزر الكبرى ، كقبرص ورودس ، التي كانت من اعمال الامبراطورية .

وكان العرب ، مذ خفوا للفتح في سبيل نشر الاسلام خلال عهد هذه الاسرة ، يطمعون في أن تمتد فتوحاتهم في الغرب امتدادها في الشرق . ولا سبيل الى ذلك الا بازاحة الامبراطورية البيزنطية ، فخفوا الى احتلال بلادها ، وطوقوا عاصمتها مرات متعددة.

اولاً في خلافة الامام علي بن ابي طالب ، حاصرها معاوية بن ابي سفيان (٣٤ هـ = ٦٥٤ م) (ابن الاثير الجزء الثالث)

ثانياً في خلافة معاوية بن ابي سفيان ، حاصرها سفيان بن عوف (٤٨ هـ = ٦٦٨ م) وقتل ابو ايوب الانصاري خلال ذلك الحصار (ابو الفدا ج ١ ص ١٧٦)

ثالثاً في خلافة سليمان بن عبد الملك ، حاصرها اخوه مسلمة (٩٨ هـ = ٧١٧ م) . (ابن الاثير ، الجزء الخامس ص ١٢) .

ويذكر الاستاذ محمد فريد (تاريخ الدولة العلية) ان العرب

حاصروها ايضاً في عهد اسرة هرقل مرتين اخريتين وذلك في خلافة الامام علي . حاصرها يزيد بن معاوية (٤٧ هـ =٦٦٧ م) ؛ وفي خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٢ هـ =٧١٥ م) ولكن هذه الرواية لم تثبت عندي لاسباب اوردناها في كتابنا فلسفة التاريخ العثماني الكتاب الاول (ص ١٦٠) .

وكان يشجع العرب على مواصلة الهجوم على الامبراطورية البيزنطية ذلك الانشقاق الداخلي الذي نكبت به ، وما رافق ذلك من انصراف عواهلها الى المشاحنات المذهبية دون اي شيء آخر . ولولا قيام اسرة الايزوريين لقضوا لبانتهم منها .

(٥) اسرة الايزوريين (٩٩ - ٢٦٣هـ - ٧١٧ - ٨٦٧ م)

وفق الامبراطوران الاولان من هذه الاسرة بانقاذ قسطنطينية من العرب ولاسترداد ما احتلوه من بلادها في آسيا الصغرى ، كما وفقا لصد هجمات البلغار ، ولكنهما لم يستطيعا سبيلا الى دفع بعض المبادىء الاسلامية عن التسرب الى الاوساط البيزنطية ، هذه المبادىء التي ضاعفت خلافاتهم المذهبية وزادتها ضراما على ضرام . ذلك ان فريقاً من البيزنطيين راقتهم بساطة التعاليم الاسلامية وتقاليدها فدعوا الى رفع التماثيل والرسوم من الكنائس اسوة بالمساجد . ولما كان البيزنطيون واليونان مفطورين على التفكير وسعة التحليل ساقتهم هذه الموهبة ، منذ بداية امبراطوريتهم الى يوم انقراضها ، الى الاشتغال بمشاحنات مذهبية . ولما برزت قضية الدعوة الى رفع الرسوم والتماثيل من الكنائس ازدادت المشاحنات بينهم حدة على حدة وافضت الى نشوب فتن دامية . وقد اشترك

بعض عواهلهم في هذه المشاحنات ، فكان بعضهم يرفع هذه الرسوم والانصاب من الكنائس ، وبعضهم يعيدها اليها ، وهكذا دواليك الى ان اعادتها نهائياً الى الكنائس الامبرطورة تيودورا وقضت على ما كان يدور حولها من المشاحنات والفتن .

غير ان هذا الانشقاق الداخلي لم يذهب دون ان يترك اثراً بالغاً في الامبرطورية . فهو فضلاً عن افضائه الى خسرانها الحق الذي كان لها في صدد حماية البابوية القاها في حالة من التضعضع اطمع فيها اعداءها : فعدا حملات البلغار عليها فان العباسيين ، الذين اظهروا زهداً بالفتوحات منذ بداية دولتهم بغية الانصراف الى العلوم والعمران ، ظنوا ان الفوضى الداخلية التي وقع فيها البيزنطيون تتيح لهم الفرصة لادراك امانيهم من قسطنطينية وما بعدها فأستأنفوا المحاولات الاولى في التعرض اليها . فزحف عليها هارون الرشيد في خلافة المهدي وحاصرها (١٦٥ هـ =٧٨١ م) ، ولم يعد عنها الا بعد ان افتداها البيزنطيون بسبعين الف دينار يؤدونها كل عام عن يد وهم صاغرون .

ويروي محمد فريد ان العباسيين ضربوا الحصار عليها مرة ثانية في خلافة هارون الرشيد وذلك سنة (١٨٢ هـ =٧٩٨ م) . والله اعلم .

على ان الذي لم يتأثر بهذا الانشقاق كل التأثر هي مكانة الامبراطورية الاجتماعية . فقد ظلت ، بالنسبة لعالم الغرب ، تحتل الذروة في الناحيتين الثقافية والاقتصادية ، وعلى رواية كرانجر **E. Granger** فان نشاطها الاقتصادي جعل قسطنطينية وقتئذ أغنى

مدينة في العالم المعاصر .

٥ – اسرة المكدونيين (٢٥٣ - ٤٤٩ هـ ٨٦٧ - ١٠٥٧ م)

متى ذكرت هذه الاسرة يذكر معهـــا مجد جديد أصابته الامبراطورية من جراء الكفاءة التي كان يتمتع بها اكثر عواهلها، بالاضافة الى الظروف السياسية المؤاتية لها .

فان الخلافة العباسية كانت قد وقعت وقتئذ في قبضة الترك وانقلب الامر فيها فصار الخلفاء يقسمون الايمان للذين يتعاقبون من الاتراك على امارة الامراء في بغداد متعهدين لهم بالاخلاص والوفاء . وافضى ذلك ، ليس الى تخاصم الترك على هذا المنصب المغري فحسب، بل الى خروج بعض الامصار العربية على العباسيين تذمراً من هذه الحالة . وحينئذ رأت الامبراطورية البيزنطية ان الفرصة اصبحت سانحة لاسترداد البلاد التي خسرتهـا من قبل ، فتصدت للعباسيين ومضت قدماً في فتوحاتها حتى بلغت الفرات ودجلة .

كما ان ظروفاً اخرى مناسبة سنحت لها في ناحية الغرب فانتصرت على حكومات جنوبي ايطاليا، وعلى كل من البلغار والمجر والروس. وهذه الانتصارات افضت بالتالي الى ازدهار بيزنطة اقتصادياً ، بالاضافة الى ازدهارها الثقافي مما حمل كثيراً من الجوالي الاجنبية على سكنى قسطنطينية وزيارتهم لها للتجارة . وكان بين هذه الجوالي كثير من المسلمين بدليل ما رأيناه في التاريخ من إعمارهم مسجداً لصلواتهم في حدود سنة ٤٤١ هـ =١٠٤٩ م .

غير ان انشقاقاً آخر وقع بين اوساط الكنيسة الارثوذكسية وكان شديداً ، افضى،بالاضافة الى ما رافقه من التنازع على العرش

الى سقوط هذه الاسرة ، والى زوال هيبة الامبراطورية مرة اخرى والى ذبول ازدهارها .

٦ – فترة الفوضى (٤٤٩–٤٧٢ هـ = ١٠٥٧–١٠٨٠ م)

لقد مرّ على بيزنطة، ما بين سقوط اسرة المكدونيين وقيام اسرة كومنانس، ربع قرن تقريباً كان وباله عظيما على الامبراطورية ، ذلك لان هذه الفترة كانت مليئة بحروب داخلية مدارها التنازع على العرش افضت الى تضعضع الدولة ، واطمعت بها جيرانها .

وفي تلك الاثناء كانت السلطنة السلجوقية التركية قد بسطت سلطتها على الخلافة العباسيـــة واصبحت اعظم دولة في الشرقين الأوسط والادنى . وكان من الطبيعي ان تطمع هذه السلطنة بمثل ما طمع فيه العرب قبلها من التقدم نحو الغرب . فادى ذلك الى تصديها للبيزنطيين أيام الامبراطور ديوجن. ولما لم يكن هذا على استعداد لمقاومتها استجار بالدول الاوروبية فلباه الفرنـــك والنورمانديون . ولكن نجدتهم له لم تنجه من الفشل والوقوع في اسر السلطان آلب ارسلان . ونزولاً عند ارادة السلطـــان زوج ابنته من ولده ملكشاه. وقد اعتبر الاتراك هذه البـــادرة بمثابة اكتساب حق لهم في عرش الامبراطورية استناداً الى ان القاعدة التركية المرعية تمنح الزوج حقاً في بلاد حميه.

ثم لما استوى الامبراطور ارمانوس على عرش قسطنطينيـة شاء ان يثأر من السلجوقيين، فجمع جموعاً كثيرة من الروم والكرج والارمن والروس والبجناق وحمل بهم على السلطان على حين غرة. ولكن النصر مع ذلك كان من نصيب السلجوقيين رغم قلة عددهم

في حدود سنة ٤٦٣ هـ - ١٠٧٠ م ، وكان الامبراطور المشار اليه في عداد اسراهم . فلما مثل الاسير بين يدي السلطان قال له معاتباً :

« الم ارسل اليك بطلب الهدنة فابيت ؟ »

فاجابه الامبراطور وهو يائس من الحياة :

« دع التوبيخ وافعل ما يبدو لك »

ثم دار بينهما الحوار التالي :

السلطان : **« ما كنت تفعل بي لو اسرتني ؟ »** .

الامبراطور : **« كنت اقتص منك »** .

السلطان : **« وما تظن اني سافعل بك ؟ »** .

الامبراطور : **« اما ان تقتلني ، واما ان تشهرني في بلاد الاسلام . اما العفو او استفدائي فبعيدان »** .

السلطان : **« كلا واني على هذا قد عولت »**

وقد اخلى السلطان سبيله على مال افتدى به نفسه ، مشترطاً عليه اطلاق كل اسير عنده، وان يمده بعساكر الروم حين حاجته اليها.

غير ان استتباب الامر من بعد لاسرة كومنانس انقذ الامبراطورية من الدمار رغم انها عاصرت السلطنة السلجوقية ابان عصرها الذهبي في عهد ملكشاه .

٦ - اسرة كومنانس (٤٧٣ - ٦٠١هـ -١٠٨٠-١٢٠٤ م)

ابتليت الامبراطورية البيزنطية بداء عضال ، واعني به ذلك الخلاف الكنسي الذي شب معها منذ ترعرعت ونمت . ومن سوء حظها ان هذا الداء رافقه مرض آخر لم يكن اقل منه خطراً ،

وهو مرض التنازع على العرش . وهذا ما حدث في اعقاب اسرة المكدونيين السابقة فقضى على اعمالها الاصلاحية المجيدة ، كما ذهب بفتوحاتها .

غير ان اسرة كومنانس،التي خرجت ظافرة من معركة هذا التنازع الداخلي،استطاعت انقاذ الامبراطورية لمدة قرن تقريباً ، واعادت اليها الاستقرار والازدهار . ولكنها لم تلبث ان ابتليت بمثل ماابتلي به غيرها من الاسر السابقة حينما خرج الكسي كومنانس على اخيه الامبراطور اسحق لانجو وازاحه عن العرش . وقد عبّد هذا التنازع السبل ، ليس لسقوط الاسرة فقط ، بل لانتقال العرش الى الاجانب . ذلك ان بدوين دوفلاندر ، الذي كان قد بلغ البندقية في سياق حملته الصليبية على الشرق ، تلقى رجاء حاراً من الملك المخلوع لمساعدته على اخيه المتوج ، فبدرت بذلك فرصة لهذا اللاتيني لان يعرج على قسطنطينية ، وان يتدخل في شؤونها ويعيد الى العرش الامبراطور اسحق . ومـا ان مات هذا بعد قليل حتى التف الجيش والانصار حول دوفلاندر وبايعوه امبراطوراً على قسطنطينية .

٧ - الاسرة اللاتينية على عرش قسطنطينية

توّج بدوين دوفلاندر امبراطوراً على بيزنطة . وفي مدة خمسين عاماً تعاقب على عرشها ستة عواهل من اللاتين . غير ان هؤلاء لم يتمتعوا بالاستقرار المطلوب من جراء الفتن الداخلية والحروب الخارجية التي واجهتهم ، واخصها تلك الحروب التي نشبت بينهم وبين المملكة الافلاقية البلغارية .

والى هذا فان البيزنطيين انفسهم استثقلوا ظل هؤلاء الغربيين
فاكتسبوا فرص الاضطرابات التي وقعت ، والحروب التي توالت
للانقضاض عليهم ، بغية التحرر من نيرهم الثقيل . وقد اتيح للبيزنطيين ان
يسترجعوا استقلالهم بالدويلات التي اقاموها تباعاً في كل من طرابزون
وازنيق والابيروس . وظلوا يناضلون في سبيل الاستقلال التام
حتى وفق ميخائيل باليولوج لاسترجاع قسطنطينية ، ولطرد هؤلاء
الاجانب منها .

٨ – اسرة باليولوج (٦٦٠ – ٨٥٧ هـ – ١٢٦١ – ١٤٥٣ م)

لقد تمكن الامبراطور ميخائيل المشار اليه من تحرير قسطنطينية
ومن الاستيلاء على عرشها . ولكنه واجه امراً واقعاً وهو تجزء
الامبراطورية الى ممالك ، فكان عليه ان ينصرف الى توحيد المملكة
بالقوة ، والى استرجاع المناطق التي كانت قد وقعت في حوزة جنوا .
ولذلك فان عهده الذي استهل بالحروب ، وظل غارقاً فيها ، لم
يسعفه لأن يعيد كل الامصـــار التي انفصلت ، من قبل ، عن
الامبراطورية ، هذا الى انه اضطر للاستعانة بالبندقية والتخلي لها
عن منطقة بك اوغلي بالقسطنطينية في سبيل الحصول على مساعدتها
من اجل استرجاع المنطقة التي كانت جنوا تحتلها من بلاده .

كل ذلك جعل الامبراطورية الجديدة هزيلة في نظر المجاورين ،
ولاسيما الاتراك السلاجقة الذين كانوا يتربصون بها الدوائر .

وكيف السبيل الى دفعهم ، وها هم قد اقاموا سلطنة مستقلة في
الاناضول على مقربة من العاصمة تفوق قوتها قوة الامبراطورية المتهدمة ؟
انه لم يجد وسيلة الى ذلك الا بالتضحية ، فراح يستنجد بالغرب .

وفي سبيل اغرائه اخذ يقترح عليه وعلى قداسة البابا ضم الكنيسة
الارثوذكسية الى الكنيسة الكاثوليكية . ولكنه كان يحاول عبثاً
لان الشعب البيزنطي كان لا يزال متألماً من الفظائع التي ارتكبها
اللاتين في ديارهم حينما حكموها ، ولان اللاتين من جهة ثانية كانوا
اشد نقمة على هؤلاء الروم من جراء عرقلتهم السبل في وجههم
اثناء الحروب الصليبية .

اجل لقد حاول الامبراطور ميخائيل باليولوج امراً مستحيلاً
لان شعبه صار ، في نقمته على الكاثوليك ، يختار عمامة المسلم على
قلنسوة البابا ، ويجاهر في هذا الايثار ، على حين ان اللاتين كانوا
يرون المصائب التي تنزل بالروم فرصـــاً سانحة للتشفي منهم
وللشماتة بهم .

لذلك فان اندرونيك الثاني خليفة ميخائيل ما ان استوى على
العرش « ٦٨١ هـ = ١٢٨٢ م » حتى قطع كل مفاوضة في صدد ضم
الكنيستين ، وراح يعتمد على نفسه في سبيل دفع الخطر السلجوقي
المداهم ، فانشأ جيشاً كبيراً من المتطوعين كان يلقب بكتلان
Catalans حباه بكل ثقته وعلق عليه آماله .

وكاد الحظ يخدم اندرونيك لان حملات المغول كانت قد
ادت الى انحلال سلطنة السلاجقة في الاناضول « ٦٩٩هـ=١٣٠٠م »
وافسحت المجال لان يقوم على انقاضها احدى عشرة دولة من عمالها ،
وفي جملتها امارة آل عثمان في اسكود . ولكن مشيئة القدر
وقفت في وجه هذا الامبراطور . وكانت اسباب ذلك ترجع الى
ان المشاحنات الدينية والثورات الداخلية كانت تتضافر على

انحلال الامبراطورية البيزنطية، وان جيش الكتلان، الذي كان موضع ثقة الامبراطور، لم يلبث ان صار وبالاً عليه. وقد ثار هذا الجيش وحاصر قسطنطينية مدة تناهز سنتين، ثم لم يتحول عنها الى دوقية فينا التي استسلمت له، الا بعد ان انهك قوى الامبراطورية وافسح المجال لتدخل بلغاريا في شؤونها الداخلية. وقد نحّاه الجيش ورفع اندرونيك الثالث مكانه الى العرش سنة ١٣٢٨ م.

وقد استأنف هذا العمل من اجل ضم الكنيسة الشرقية الى الغربية بغية تأليف جبهة واحدة في وجه الامارات التركية الناشئة في جواره بالاناضول. ولما فشل في هذا المسعى تحول الى مصانعة هذه الامارات، فعقد المعاهدات مع كل من اميري ايدين «١٣٣٠م» وصاروخان (١٣٣٣ م)، فضلاً عن السلطان اورخان بن عثمان. وكانت السرب تطمح بالتوسع في الامصار البيزنطية، فرأت الفرصة سانحة عند نشوب التنازع الجديد من اجل التاج للزحف شطر قسطنطينية. وحينئذ لم ير امبراطورها بداً من الاستنجاد بالسلطان اورخان. فاذا ببكره سليمان باشا يخف لنجدة الامبراطور ضد السرب، ويجتاز الدردنيل الى الشاطىء الاوروبي، ليحتل تزمب **Tzympes** وغاليبولي وما حولها من الاراضي البيزنطية.

ومنذ ذلك الحين استخف آل عثمان ببيزنطة، وما إن بويع السلطان مراد حتى بادر الى اجتياز الدردنيل فاتحاً دون ان يلاقي اية مقاومة من قبل البيزنطيين. وقد جرأه هذا على احتلال ديمتوقة وعلى الانطلاق منها الى ادرنة التي اتخذها عاصمة لسلطنته.

وكانت السرب وقتئذ اعظم دولة في البلقان فانبرت لدفع آل

عثمان عن الامبراطورية، ولكنها منيت بالهزيمة اثر الهزيمة فكان ذلك حافزاً لامبراطور قسطنطينية على السفر بنفسه، الى الغرب مستجيراً، وعلى الاعتراف فعلاً بضم الكنيسة الارثوذكسية الى الكنيسة الكاثوليكية. ولكنه كان يضرب في حديد بارد. فاضطر من ثم الى الارتماء في احضان السلطان. وعربوناً على اذعانه له واخلاصه ارسل ابنه تيودور للخدمة في جيش آل عثمان. على ان البيزنطيين رغم شعورهم بسوء المصير لم يرتدوا عن سيرتهم الاولى في صدد التنازع على العرش. فاذا الخصام مسلح جديد يشتدّ بين الامبراطور حنـا وبين ولده اندرونيك. واذا بكل واحد منهما يستنجد بالسلطان بيلدرم بايزيد، ويزيد في بذل الاموال له لكسب مساعدته. وكان من عواقب ذلك ان تدخل السلطان في التسوية على اساس تقسيم الأمبراطورية بينهما، وعلى اساس ان سلطته تشمل كلاً منهما. وبلغ من ضعفهما انه لما ابى حاكم مدينة الاشهر «فيلادلفيا» ان يسلم مفاتيحها للسلطان، وهي آخر مدينة كانت لبيزنطة في آسيا، بادر الامبراطور حنا ومعه ولده لفتحها له عنوة. ثم لما صار الملك لعمانوئيل بن حنا سنة ٧٩٤ هـ = ١٣٩١ م راودته نفسه ان يتخلص من نير الاتراك، فخف الى اوروبا يضرب ناقوس الخطر، ويحاول ان يثير كلاً من ايطاليا وفرنسا وانكلترا. ولكن مساعيه الحثيثة لم تكن خيراً من مساعي اسلافه فعاد بخفي حنين. غير ان الفرج اتاه من حيث لا يحتسب حينما انتصر تيمولنك على السلطان بايزيد واخذه اسيراً ولاشى سلطنته. وحينئذ جرب عمانوئيل ان يمثل الدور الذي كان السلاطين يمثلونه حيال بيزنطة، خصوصاً حينما

نشب الصراع بين ابناء ييلديوم بايزيد على العرش ابان محاولة كل منهم جمع شتات السلطنة تحت سيطرته ولمّ شعثها . وقد اكتسب الامبراطور هذه الفرصة لاسترداد بعض البلاد البيزنطية ، ولاسيما سالونيك ، فضلاً عن ثغور البحر الاسود .

على ان نجم البيزنطيين كان قد آذن بالافول لان مراداً لم يلبث ان تغلب على اخيه مصطفى الذي كان يناصره عمانوئيل ، وما ان بويع سلطاناً على آل عثمان باسم مراد الثاني حتى خف للثأر من هذا الامبراطور ، فزحف على قسطنطينية « ٨٢٦ هـ = ١٤٢٢ م » وضيق عليها الحصار ، وما كان ليرجع عنها لولا ثورة نشبت ضده في الاناضول .

ثم لما مات عمانوئيل تقسمت الامبراطورية بين اولاده بحسب وصيته : فكانت قسطنطينية وما حولها من نصيب حنا ، بينما اصبحت المورة مع بعض تساليا من نصيب قسطنطين وتوما . وقد اقتنع الاخيران بوجوب مسالمة تركيا ورضيا باداء الجزية لها . واما اخوهما البكر حنا فقد استنكف وابى الا ان يجرب حظه . فسافر الى مجمع فرار **Ferrare** الكنسي (٧٤٣ هـ – ١٤٣٩ » وكان يرافقه بطريرك القسطنطينية ، واعترف هناك بضم الكنيسة الشرقية الى الغربية على أمل الحصول على نجدة الدول الكاثوليكية .

بيد ان مسعاه هذا لم يجده اي نفع لان شعبه وقف ثانية موقف المعارض لهذا الضم مما اضطر حنا لان يجري مجرى اخويه في صدد الخضوع للسلطان مراد الثاني ، والتماس الصلح منه . ولولا انصراف السلطان وقتئذ الى قتال البطلين هونياد المجري واسكندر بك الالباني لما

رضي الا ان يدخل قسطنطينية فاتحاً .

على ان تقسيم الامبراطورية البيزنطية الى شطرين ادى الى نشوب صراع بينهما انتهى باحراز قسطنطين الفوز على اخيه حنا والى قيامه مكانه على عرش قسطنطينية . وبعد ثلاث سنوات من ذلك بويع محمد الثاني سلطاناً على تركيا ، وكان يجمع بين التعقل والاقدام فعقد العزم على البت في امر بيزنطة ، وعلى فتح قسطنطينية . واستعداداً لهذا اقام على شاطىء تراقية قلعة زودها بمدفع يقذف القنابل الى مدى الف ذراع تزن كل واحدة منها قنطاراً . وكان القصد من ذلك ان يمنع المراكب الاوروبية من اجتياز البوسفور اذا خفت لنجدة قسطنطينية .

وحينئذ ادرك الامبراطور سوء المصير ، فشرع يستجير باوروبا مردداً النغمة التي طالما كان اسلافه يرددونها ، واعني بذلك ضم الكنيسة الشرقية الى الغربية جاعلاً كنيسته كبش الفداء . ولما ايقن ان هذا المسعى غير مجد لان شعبه غير مستعد لمجاراته على رأيه ، فضلاً عن ان اوروبا ليست متأهبة لمساعدته ، اعتمد على نفسه متذرعاً بالصبر والثبات .

واصبح الصباح فاذا بالسفن التركية تربض امام العاصمة مخترقة ، بوسيلة مدهشة ، الحصار البحري الذي اقامه حولها البيزنطيون ، واذا بالمدافعين عنها ، وعلى رأسهم الجنويون الذين لبوا وحدهم دعوة الامبراطور الملحة وتقدموا لنجدته ، يركنون جميعهم الى الفرار ، فايقن قسطنطين بسوء المصير ؛ ولكنه آثر الموت على التسليم ، وظل يشدد عزائم الفئة القليلة التي صابرت وثبتت معه ، الى ان مات

شريفا في ساحة الوغى .

وقد دخل العثمانيون فاتحين القسطنطينية ، وقضوا القضاء المبرم على الامبراطورية البيزنطية. فانتهت بذلك مرحلة نضال شديد بين الشرق والغرب استمرت ١١٢٣ سنة انتصر في آخرها الشرق على الغرب ، وتمكن من الاستئثار براية السيادة العالمية مدة طويلة .

وقد جاء تاريخ هذا الفتح « بلدة طيبة » ٨٥٧ هـ » وهو يوافق سنة ١٤٥٣ م .



الفصل السابع

الصراع بين آل عثمان والغرب على الزعامة العالمية

●

قضى آل عثمان على الامبراطورية البيزنطية واحتلوا عاصمتها وبلادها ، واستأثروا بمكانتها العالمية الاستراتيجية ، فاستردوا بذلك للشرق لواء السيادة الذي كان قد هوى من يد العرب .

وكان لفتح قسطنطينية نتيجتان مختلفتان بالنسبة للشرق والغرب هما بمثابة الخطوة الاولى لتحول عظيم بالنسبة لكل منهما. ففي الشرق كان من عواقب هذا الفتح تفوق شديد احرزه آل عثمان في الناحية العسكرية ، بلغ من شأنه انهم استطاعوا الاستيلاء على قسم كبير من شرقي اوروبا ، واكتساح ما بعده حتى حاصروا فينا عاصمة النمسا ثلاث مرات ، وذلك حينما كانت النمسا تكاد تكون اعظم مملكة معاصرة في اوروبا .

وفي الغرب كان من عواقب هذا الفتح استعجال نضوج التمدن الحديث من جراء هجرة كثيرين من علماء بيزنطة وادبائها الى اواسط اوروبا ، ولاسيما الى ايطاليا فراراً من الترك . فكانت هجرتهم هذه

كنقطة الماء التي تلقى على اناء طافح فتدفعه الى التدفق . ذلك لان
هؤلاء المثقفين لم يلبثوا ان ساهموا في نهضة الغرب وخدموا مدنيته
الناشئة بما نقلوه اليه من مخلفات المدنية اليونانية ومن مقتبسات
الحضارة الاسلامية ، فكانت لهم يد طولى في اخراج التمدن الحديث
من حيز القوة الى حيز الفعل مما حمل بعض المؤرخين على تحديد بداية
التمدن الحديث بدخول قسطنطينية في حوزة آل عثمان .

ومن المؤسف ان الشرق الاوسط لم ينتفع من التمدن المعاصر
في عهد الفتح العثماني واثناء تفوق التركي في الناحية العسكرية ، مثلما
استفاد وافاد في العهد العربي .

لقد اتيح للعرب من قبل ان يتمتعوا بقوة عسكرية هي اعظم
من القوة التي ادركها آل عثمان ، وتسنى لهم ان يتبسطوا في
الفتوحات الى مدى ابعد كثيراً من فتوحات هؤلاء الى حد تنتفي
فيه النسبة بينهما . ولكن كان من ثمرات توسع العرب ظهور مدنية
مستقلة زاهرة استمرت قائمة مدة طويلة ، وظلت تزدهر حتى بعد
انكماش العرب ، وبعد زوال حكمهم ، مدنية كانت في سلسلة
التمدن العالمي حلقة متينة بين الماضي والحاضر .

واما العهد العثماني فقد اقتصر على العناية بالقوة العسكرية ،
فانطلق ، في البداية ، وراء الفتوحات ، واستغرق اوقاته ، في النهاية ،
بالدفاع عما كان في حوزته من امصار ، وبمحاولة سلامة الدولة .

هذا وكان التمدن العربي قد لقح اوروبا قبل الفتح العثماني
بجراثيم الحياة وذلك بالاتصال المباشر الذي وقع بين الشرق والغرب
خلال مد كل منهما وجزره . وكما ان احتلال العرب لاسبانيا وجزر

البحر المتوسط ، لاسيما صقلية ، افضى الى انتقال تمدنهم وانتشاره في
الاوساط الاوروبية المختلفة ، فان اكتساح الاوروبيين لبيزنطة في
طريقهم الى البلاد المقدسة ، اثناء الحروب الصليبية ، ومكوثهم
في بلاد الشام وما يليها مدة قرنين تقريباً اديا الى اقتباس المزيد من
التمدنين العربي والبيزنطي ، وكانا حافزين للاوروبيين على تقليد العرب
ليس في الانكباب على طلب العلوم والفنون والآداب فحسب ، بل
الى اقتباس تقاليدهم وعاداتهم واساليب حياتهم الى حد ان تعدد الزوجات
والطلاق والتسري وغيرها من الامور المباحة عند المسلمين راجت
من بعد في اوساطهم .

وبهذا الاتصال المباشر الذي حدث بين الشرق والغرب اقتبس
العرب قليلا من الغرب واعطاه كثيراً من موضوعاته ومن
موضوعات الاقدمين من اغريق وفرس وهنود وسريان وغيرهم ،
بينما ان آل عثمان اقتصرت خدمتهم للتمدن الحديث الذي عاصروه
في كل من نشأته وريعان شبابه اقتصر على اسداء الخدمة لهذا التمدن
بهجرة بعض مثقفي بيزنطة الى اوروبا . ثم لم يستفد الترك منه شيئاً الا
في اواخر ايامهم .

(أ) الى اي حد بلغت عظمة الامبراطورية العثمانية ؟

لقد اتيح لآل عثمان ان يقيموا سلطنتهم على انقاض الامبراطورية
البيزنطية خليفة اليونان وروما ، وكانت وقتئذ ارفع شأناً من
سائر الدول الأوروبية في الحضارة والثروة ، فجنى العثمانيون من
موقعها الاستراتيجي بعض الفوائد المرموقة في الناحية العسكرية ،
ولكنهم لم يقتبسوا شيئاً من تمدنها فيما عدا المظاهر والتنظيمات المدنية .

... والواقع ان خسارة السلطنة من جراء قيامهـــا على انقاض البيزنطيين ربما كانت اشد من نفعها ذلك لان الشعب التركي المقيم في القسم الاوروبي، ولا سيما رجال الحكم منه، اقبل اي اقبال على المفاسد الاخلاقيـــة التي كانت مصدراً لزوال بيزنطة، حتى كانت هذه المفاسد وبالاً عليهم، وسبباً لانهيار دولتهم.

اما نجاح آل عثمان في القضاء على بيزنطة وما حولها من الممالك الارثوذكسية وغيرها فيعود، على الاكثر، الى الخلاف المذهبي الذي كان متفاقماً بين الارثوذكس والكاثوليك، هذا الخلاف الذي بلغ من خطورته، اثناء الحملات الصليبية وما بعدها، حداً كان يحمل البيزنطيين على القول «عمامة المسلم ولا قلنسوة البابا». ولا سيما حينما احاق بهم الخطر العثماني.

ولكن ما ان ازفت الساعة واحتل محمد الثاني قسطنطينية حتى فار التنور وقامت قيامة الغرب، فتنادى لاستئناف الحروب الصليبية. ثم ما ان ذاع نبأ موت السلطان الفاتح حتى اعتبرت أوروبا موته بمثابة السلامة من خطر كان محققاً. وبلغ من سرورها لهذا الخبر، حسب رواية لافاليه **Lavallée**، ان قداسة البابا امر بان يعتبر يوم وفاة السلطان يوم عيد. وبان تقام صلوات الشكر خلال ثلاثة ايام.

غير ان موت محمد الفاتح لم يبدل شيئاً في الموقف الراهن كما لم يغير شيئاً في المصير. بل ان حفيده ياوز سليم (١٥١٢–١٥٢٠) وقف يومـاً امام خريطة الارض فاستصغرها، وقال في اعتزاز واعتداد على النفس: «هل تتسع هذه الارض لاكثر من ملك واحد؟».

قال هذا وهو لا يجهل بان عاهلاً آخر، واعني به الشاه اسماعيل مؤسس الدولة الصفوية في فارس، كان يشاطره في هذا التساؤل. ولعل ذلك هو الذي كان حافزاً للسلطان سليم لمهادنة اوروبا والتحول الى آسيا. فدخل تبريز عاصمة الشاه منتصراً، ثم عرج على البلاد العربية في الشرق الادنى فاستولى عليها من الرافدين وبردى الى النيل، واستأثر بالخلافة دون العرب، وخطب باسمه حتى في الحجاز وتهامة اليمن.

ولكن اجله كان قصيراً فلم يتح له تحقيق امانيه البعيدة. غير ان ابنه سليمان القانوني (١٥٢٠–١٥٦٦)، الذي ورث مطامع ابيه، تمتع بفسحة من الاجل كافية لادراك بعض هذه المطامع في الغرب بعد ان انتصر على شاه فارس ودخل عاصمته. والواقع ان المهمة لم تكن سهلة المنال في هذه المرة لان شارلكان امبراطور المانيا العظيم كان قد استطاع ان يصهر في بوتقة ملكه كلاً من المانيا والنمسا وايطاليا وهولندا واسبانيا مع مستعمرات هذه الاميركية الفياضة بالثروة، وان يجمع بين اعظم المرافىء وقتئذ، برشلونة ونابولي ومينوركا وصقلية ووهران في الجزائر، فاصبح بذلك سيد البر والبحر، ولا سيما منذ اتيحت له السيطرة على جنوا وفلورنسا ومحالفة البندقية.

هذا ولما تسنى لشارلكان ان يتغلب على فرنسا في موقعة بافي بايطاليا سنة ١٥٢٦، وان يأخذ ملكها فرنسوا الاول اسيراً، وان يكتسحها حتى بلغ مرسيليا، اصبح بذلك امبراطوراً على أوروبا المتحدة دون منازع، وبات من حقه ان يحلم، اكثر من سائر عواهل الغرب، بان يجعل التاج الذي فوق رأسه تاج العالم.

وحينئذ كان لا بد من اصطدام سليمان وشارلكان هذين العاهلين اللذين كان كل منهما لا يرى الارض تتسع لمليك آخر سواه . واذا تأهبت النفوس لامر ما ساعدها القدر ، فاذا بالمناسبة تبرز عاجلاً حينما استنجد ملك فرنسا الاسير « بسلطان البرين والبحرين وحامي الحرمين الشريفين » . فكان هذا الاستنجاد بمثابة الشرارة لحرب ضارية اشتعلت بين الفريقين في البر والبحر . وانتهت بانتصار السلطان سليمان على اوروبا التي كانت متحدة بشخص شارلكان ، هذا الانتصار الذي افسح المجال للسلطان لأن يستأثر دون سواه بالسيادة على البر والبحر .

وكأن شارلكان لم يستطع ان يتحمل تبعات هذا الفشل الذي مني به مع حلفائه فوقع بين انياب يأس شديد كان حافزاً له على اعتزال العرش سنة ١٥٥٥ واللجوء الى مكان منّا في جوار سان جوست ، على ما جاء في معجم لاروس ؛ تاركاً لاستامبول المجال لان تصبح المرجع العالمي الاوحد حتى كأنها عاصمة الدنيا .

ومنذ ذلك شرعت الدول الاوروبية تتزلف اليها ، وتتسابق الى كنف عواهلها ملتمسة الامتيازات ، بينما صار سلطانها المنتصر المحفوف بالاجلال لا يبالي ، في تصرفاته الديبلوماسية ، بمعاملة سائر الدول على اعتبار انه السيد الاعظم ، وان على هذه الدول واجب الطاعة والصدوع لمشيئته .

ان هذه النزعة النفسية كانت بارزة عند السلاطين قبل ان يحرز سليمان هذا النصر المبين على شارلكان ، فكان احدهم اذا خاطب ملكاً من ملوك العالم يستهل كتابه بعد ذكر الله ورسوله ، بتعداد

الالقاب التي تنوه بمكانتهم ، وبتعداد الامصار والبحار التي يبسطون حكمهم عليها ، وهي كثيرة ، حتى اذا انتهى الى صلب موضوع المراسلة خاطب سواه خطاب المتبوع للتابع ، مظهراً الاعتزاز بقوتهم والاشادة بسيرتهم وسيرة ابائهم . وظلوا يجرون على هذه الطريقة الى ان عدل عنها السلطان احمد الاول ١٦٠٣ - ١٦١٧ م . ولكن السلطان سليمان تجاوز هذا الحد في مخاطبة العواهل المعاصرين حتى كان يستشف من عباراته انه اذا خاطب احداً منهم كان يشعر بوجود سيد ومسود .

ومن هذا القبيل جواب السلطان سليمان على كتاب كان قد تلقاه من فرنسوا الاول ملك فرنسا يلتمس فيه النجدة على شارلكان وتخليصه من الاسر . فقد جاء في مقدمة هذا الجواب الذي لا يزال محفوظاً في مكتبة باريس جاء فيه :

« انا سلطان السلاطين وبرهان الخواقين متوج الملوك في الارضين » وبعد تعداد السلطان امصاره والقابه يقول : **« الى فرنسيس ملك ايالة فرنسا »** . ولعل هذه البرودة التي بدت في هذه المخاطبة كانت ترجع الى ذكريات مؤتمر كمبري ، الذي عقدته اوروبا قبيل ذلك ، حيث ناشد فرنسوا ملك فرنسا الدول الاوروبية كي تتحد ضد آل عثمان ، وتعمل يداً واحدة لاقتسام بلادهم . هذا وكان شارلكان قد ارسل ايضاً وفداً الى القسطنطينية جاء يدعو السلطان الى التحالف قصد ان يصرفه عن مساعدة فرنسا ، ولكن العاهل العثماني الذي كان يحرص على تهديم شارلكان اختار انجاد فرنسا ، التي استجارت به ، على مخالفة عاهل اوروبا الاعظم . وقد

نتصر عليه انتصاراً أعظما، كما قدمنا، وانقذ السلطان ملك فرنسا من الاسر .

ولكن لما توثقت الصداقة بين السلطنة وفرنسا بعد ذلك شرع السلطان يغير لهجته في مكاتبة صديقه واخذ يمنحه لقب باديشاه ، وهو لقب كان يضن به على سواه ، فاعتبر هذا التلطف من قبيل منحة كبرى الفرنسا ، لم تدركها دولة اخرى .

واما فرنسا فكانت اذا راسلت السلطان تلقبه تارة بالسيد الاعظم **Le grand Seigneur** وتارة بامبراطور العالم الكبير **Le grand Empereur du monde**

والى هذا فكان السلاطين يترفعون عن تنصيب سفراء لهم في العواصم الاخرى على اساس انهم في غنى عن سائر الدول ، وان على هؤلاء ، الذين يحتـــاجون اليهم ، ان يقيموا الممثلين في دار السعادة لتأمين مصالح شعوبهم. وعلى رواية دوفيلاي **de velay** فان هذه التقاليد ظلت متبعة الى عهد السلطان محمود في مطلع القرن التاسع عشر. والواقع ان السلطان سليمان الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧م) هو اول من نصب معتمداً للسلطنة في اوروبا .

وكانت التقاليد المرعية ان يقدم السفراء الى السلطان والى كبراء الدولة هدايا ثمينة وذلك قبل المثول بين أيديهم . وبقوة الاستمرار اصبحت هذه الهدايا كجزية مفروضة عليهم لا مناص من تأديتها كل عام .

والى هذا كان السلاطين يحرصون على ان لا يتقيدوا بمعاهدات على اعتبار انهم وحدهم اصحاب الحق في العطاءات والامتيازات ، وفي استرداد ما يمنحون حينما يشاؤون. وقد اشار الى ذلك الشوفاليه دار فيه **Chevalier d'Arvieux** حيث قال :

« كان السيد الاعظم يأنف من الارتباط مع ملوك النصارى بمعاهدات ، وكان العثمانيون يردون ذلك الى الدين بينما ان الدين بريء من هذه التهمة ، وكان السلطان يفضل على المعاهدات منح الامتيازات على اعتقـــاد ان الغاءها هو حق له يتصرف به متى شاء . »

(ب) انهيار السلطنة العثمانية .

يعتبر عهد السلطان سليمان القانوني بمثابة الذروة بالنسبة لحقبة الازدهار الذي تمتع به آل عثمان، كما يعتبر ، في نفس الوقت، بداية الانحدار في تاريخ امبراطوريتهم ، وهو في هذه الناحية شبيه بعهد لويس الرابع عشر في فرنسا .

مات السلطان سليمان فشرعت عوامل الانهيار تتفاعل وتتكامل في اعقابه، ولكن رغم ظهورها فان السلطنة ظلت تبدو سليمة طوال نحو نصف قرن بقوة الاستمرار . حتى اذا دخل القرن السابع عشر فتح القدر صفحة جديدة في حياة آل عثمان جاءت مختلفة كل الاختلاف عن سابقاتها . صفحة تجلت فيها بوادر الانحدار بشكل مخيف مكشوف ، وزالت منها كل مميزات للعثمانيين كانت لهم فيما سلف من الزمن سواء أكان ذلك في التقـاليد المرعية أو المعاملات الدولية . وقد تمّ كل ذلك دفعة واحدة حينما اضطرت السلطنة أن توقع مع النمسا على معاهدة ستيفاتوروك سنة ١٦٠٦ م.

ويطيب لنا ان نترك الكلام هنا الى هامر **Hammer** المؤرخ الالماني الكبير في كتابه تاريخ الامبراطورية العثمانية . فحديثه ينوه بمكانة هذه المعاهدة في صدد تطور التقاليد الدولية بالنسبة لآل

عثمان ، فضلاً عن انه يزيدنا معرفة بالامتيازات المرعية التي كانت لهم من قبل في نطاق هذه التقاليد . قال :

« ان صلح ستيفاتوروك الذي لم يسترع الانظار واسدلت عليه معاهدة كارلوفتز ستار النسيان . ان هذا الصلح كان في الواقع مهماً جداً في ناحية الحقوق السياسية المتبادلة بين السلطنة والدول الاخرى . وليس مرد ذلك الى انه وضع حداً للفتح العثماني فحسب ، بل لانه قضى القضاء المبرم على التقاليد التي كانت مرعية من قبل ، تلك التقاليد التي تشير الى تفوق آل عثمان . هذا فضلاً عن ان هذه المعاهدة نصت على الغاء الجزيات التي كان على السفراء ان يقدموها للسلاطين كل عام باسم هدايا ، كما قررت قيام العلاقات السياسية بين السلطنة وسائر الدول على قواعد المساواة . ناهيكم بما احرزته ترنسلفانيا بهذه المعاهدة من التحرر الجزئي ، وبما ادركته المجر من الغاء الجزية التي كانت تؤديها للسلطنة عن يد صاغرة كل عام .

والى ذلك فان النمسا اصبح من حقها التدقيق في مضمون المعاهدة قبل التوقيع عليها ، بينما كان يقتصر في كتابة المعاهدات السابقة على اللغة التركية دون ان يؤذن للفريق الآخر ان يتفهم فحواها . »

على ان معاهدة ستيفاتوروك هذه وان اسقطت السلطنة الى مستوى الدول الأخرى في ناحية التقاليد المرعية ، ووضعتها على قدم المساواة مع غيرها في الحقوق السياسية ، الا ان معاهدة كارلوفتز حطتها من بعد الى مرتبة الدول التي لا يخشى من خطرها .

ومعاهدة كارلوفتز هذه هي التي وقعت سنة ١٦٩٩ من السلطنة العثمانية من جهة والنمسا وروسيا وبولونيا والبندقية من جهة ثانية ، وذلك بعد حرب وسمت من قبل اوروبا بالقداسة دامت خمس عشرة سنة ، وانتهت بانتصار الحلفاء وبجلاء السلطنة نهائياً عن المجر .

ومنذ ذلك ، اي من بداية القرن الثامن عشر ، استقر الاطمئنان في افئدة اوروبا بزوال الخطر العثماني ، فانصرفت الدول الى شؤونها الداخلية ، وتسابقت شعوبها في ميادين التمدن الحديث تاركين الى روسيا القيصرية متابعة مهمة الجلاء التركي عن اوروبا الشرقية .

اما آل عثمان فقد استمروا في غفلتهم يعمهون ، وهم وان اضطروا للتخلي عن شنشناتهم حيال الدول المعاصرة ، الا انهم ظلوا في شؤونهم الداخلية يترفعون عن اقتباس كل اصلاح جديد يمت بنسب الى التمدن الحديث ، واستمروا يترفعون عن العناية بما وراء حدودهم .

وبلغ من جمودهم ومن خوفهم من كل شيء اوروبي انه لما عاد رسمي احمد افندي من اوروبا ، وذلك في اواسط القرن الثامن عشر ، وشرع يشرح ليوسف افندي ، احد المقربين من السلطان مصطفى الثالث ، ما شاهده هناك من العمران والتجدد تطرق الى ذكر المحاجر الصحية معدداً فوائدها في دفع الاوبئة التي كانت كثيراً ما تكتسح البلاد وتودي بحياة جمهور كبير من اهلها .

فما ان اقترح رسمي افندي اقامة مثل هذه المحاجر في بعض ثغور السلطنة حتى انتفض يوسف افندي وقال له ؛ على رواية جودت باشا الوزير المؤرخ :

« كنت اظنك ذكياً عاقلاً تفكر بالمصير فاذا بي اراك تغفل عن العواقب . اجل فان قلة اقبال الاوروبيين على بلادنا انما ترجع الى حسبانهم حساب الامراض السارية فيها . فاذا اخذنا باقتراحك واقمنا المحاجر الصحية فلسوف يتهافتون على المملكة المحروسة . وكيف يتسنى لنا من بعد ان نسوسهم ونأمن بالتالي اذاهم . »

وهكذا عكف آل عثمان على ممارسة سياسة الترقيع ، متكلين على التوازن السياسي **Statuquo** حتى حان الحين فاصبحوا في عداد ذكريات التاريخ ، ولم يكن زوالهم امراً عجيباً ، بل كان بقاؤهم طويلا هو العجيب « ولكل اجل كتاب فاذا جاء اجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون . »



الفصل الثامن

لماذا تخلف آل عثمان ، ابان عظمتهم ، عن انجاد العرب في اسبانيا ؟

●

لما تفرق شمل العرب في اسبانيا بعد انهيار الدولة الاموية ، وصال عليهم الاسبان ، وتولى كبر ذلك دولتا اراغون وقشتالة خفت دول البربر اصحاب مراكش لنجدتهم ، واجتازت الحدود تباعاً : المرابطون والموحدون والمرينيون . فكانت الواحدة تلو الاخرى تدفع هجمات الاعداء ، وتعيد للمسلمين كرامتهم .

ورغم ما كان يتخلل ذلك من تنازع على السلطة بين هؤلاء البربر وبين العرب فقد ظل الاسلام عزيزاً في تلك الديار الى وفاة السلطان يعقوب المريني . لقد اعترضت هذا السلطان مصاعب كثيرة في شمالي افريقية اثارها عليه بعض الطامعين من قومه البربر فذللها بحكمته اوقوته ، ثم مني باسبانيا بمشاكل مثلها في الخطورة اثارها عليه بنو الاحمر اصحاب غرناطة فتغلب عليها ايضاً ، وانصب بعد ذلك كالسيل الجارف على الملك سانش الاسباني فانتصر عليه (٦٨٤هـ = ١٢٨٥م) ، واضطره للتوقيع على شروط من شأنها ان تعيد للمسلمين كرامتهم . غير ان وفاة هذا السلطان في ذلك العام كانت نقطة

انطلاق لانشقاق جديد وقع فيه المسلمون باسبانيا ، وافضى في آخر
الامر الى جلائهم عنها . وليس مرد ذلـــك الى ان خلفاءه كانوا
لايتمتعون بمثل كفاءته فحسب، بل لما قام بينهم وبين بني الاحمر
اصحاب غرناطة من خصام كان يحمل هؤلاء، في بعض الاوقات، على
الاتفاق مع الملك سانش. على ان هذا الصراع بين المسلمين ساعد الاسبان
على التقدم تباعاً في بلادهم حتى حصروهم في غرناطة وما حولها عند
ساحل البحر .

وكان فرديناند الخامس ، المعروف بالكاثوليكي، ملك اراغون،
يوالي الضغط على غرناطة . ومـا ان تزوج بايزابيل ملكة قشتالة
واتحد بذلك عرشاهما حتى اتيح له ان يقضي القضاء المبرم على بني
الاحمر ، فسلمت اليه غرناطة في سنة (٨٩٧ هـ = ١٤٩٢ م) على
شروط مدارها احتفاظ المسلمين هناك بحريتهم الدينية وكرامتهم
الاجتماعية .

ولكن الملك فرديناند لم يلبث الا قليلا حتى نكث بما قطعه
لهم من العهود . ولم يمض على سقوط غرناطة الا ست سنوات حتى
اجبرهم على التنصر ، وشدد في معاقبة الذين استمروا يقيمون منهم
الشعائر الاسلامية سراً . وبلغ من ظلمه انه كان يعذب هؤلاء اشد
العذاب، ولا يتورع عن احراق بعضهم ، هذا فضلاً عن تعقبه الذين
لجأوا منهم الى بعض الجبال منفذاً في ذلك احكام مجلس التفتيش
هذا المجلس الذي انشىء سنة ١٤٨١ ثم لم يكن ضربة قاضية على
المسلمين واليهود فحسب، بل شملت مظالمه المسيحيين الاحرار افراداً
وجماعات .

وجرى خلفاء فرديناند مجراه في اضطهاد المسلمين الى ان اجلوا
البقية الباقية منهم في مطلع القرن السابع عشر .

تلك هي قصة مسلمي اسبانيا في نكبتهم الكبرى . وهذه القصة
عاصرت آل عثمان فابتدأ الفصل الأول منها اثناء قيام سلطنتهم في
الاناضول ، وانتهى بزوال دولة غرناطة بعد تسع وثلاثين سنة على
دخول قسطنطينية في حوزة السلطنة ، وامـا الفصول التالية التي
تستعرض العذاب الذي كان المتخلفون في اسبانيا عرضة له ، والتي
تشير الى حملهم المسلمين على ان يختـاروا بين التنصر ام الجلاء فقد
وقعت خلال حكم السلاطين بايزيد الثاني وياوز سليم وسليمان القانوني
وسليم الثاني ومراد الثالث ومحمد الثالث وذلك في القرنين الخامس عشر
والسادس عشر ، ابان ما كان العثمانيون في اول وآخر هذين القرنين
من اسياد العالم ، وكانوا في وسطها اسياد العالم الوحيدين . وهم ما كان
بوسعهم حينئذ ان يدفعوا الغائلة عن المسلمين فحسب ، بل كان بوسعهم ان
يحتفظوا باسبانيا للمسلمين ، فضلاً عن استطاعتهم انقاذهم من ذلك
الاضطهاد العظيم .

ان هذه القصة المؤلمة وما خلفها من عواقب كثيراً ما تبعث على
التساؤل : « لماذا تخلى آل عثمان، ابان قوتهم، عن ابناء دينهم في الغرب
على حين انهم ظهروا، في اللحظة الاولى من قيـام دولتهم، بمظهر
المتعصبين للاسلام المجاهدين في سبيله ، وذلك في عصر جاء خلفاً
للحملات الصليبية على الشرق، وعاصر الحملات الصليبية في الغرب، وكانت
اجواؤه مليئة بالتعصب للدين عند المسلمين والمسيحيين على السواء ؟ »
والواقع ان لبني عثمان عذرهم قبل السلطان محمد الفاتح لمـــا

اصابهم من الاحداث الداخلية التي افضت الى انقراض سلطتهم بالغزوة التيمورلنكية، وحملتهم، من بعد، على لمّ شعثهم واعادة دولتهم، هذا فضلاً عما خلف ذلك من انكسار عظيم اصابهم في حرب النمسا ايام مراد الثاني (١٤٢١ – ١٤٥١ م) .

ولكن ما عذرهم بعد ان استتب لهم الامر في عهد ابنه محمد الفاتح (١٤٥١ – ١٤٨١) هذا السلطان الذي ما ادرك امنيته من القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م حتى راح يسترسل في الفتوحات ، فاخضع نهائياً مملكة الافلاق والسرب والبوسنة والهرسك والالبان في اوروبا ، كما استولى على سلطنة قرمان في الجانب الاسيوي بالاناضول ، وذلك اثناء ما كانت دولة بني الاحمر بالاندلس تشرف على الاحتضار .؟

واذا انتحلنا لمحمد الفاتح عذراً ما ، فما عذر ابنه بايزيد الثاني (١٤٨١ – ١٥١٢) الذي عاصر فرديناند المسمى بالكاثوليكي (١٤٧٤ – ١٥١٦) وكانت تصل اليه انباء مظالم مجلس التفتيش وسومه المسلمين سوء العذاب ، فضلاً عن اجبارهم على التنصر ، وحرق من يقوم منهم سراً بممارسة الشعائر الدينية ؟

وما عذره وقد وصلت اليه الوفود من مسلمي الاندلس مستجيرة ولكنه بدلاً من انقاذ اخوانه المستجيرين به انصرف الى محاربة مماليك مصر المسلمين ، والى غزو قبرص ، والاستيلاء على سواحل المورة في اليونان ؟

اجل هذه غرناطة عاصمة بني الاحمر ، التي كانت آخر ملجأ لمسلمى اسبانيا ، امست على شفا جرف هار ، ولم يبق لها امل الا

بنجدة تأتيها من آل عثمان اولئك الذين اصبحوا بقوتهم المتفوقة سادة البر والبحر .

وهذا ابو عبدالله آخر ملوك غرناطة يبعث سنة ٨٩٢ هـ ١٤٨٧م رسولاً الى السلطان بايزيد الثاني يلتمس منه النجدة على فرديناند ولكن السلطان وضع اصابعه في اذنيه ، ولم يستجب لاي نداء.

واذا استثنينا ماقاله صاحبا كتاب العالم **l'univers ,Joianin & Vangaver** بان السلطان استجاب لنداء الاندلس وساق اسطولاً لنجدتها بقيادة رجل من حاشيته اسمه جمال نظراً لما كان يتمتع به من الجمال الفائق ، واذا استثنينا هذا الخبر فانا لا نجد في كتب التاريخ ما يشير الى هذا الاسطول او الى التنويه بنجدة قدمها السلطان لمسلمي الاندلس مما يجعلنا نشك في صحة هذا الخبر .

وربما كان يعود هذا الاغضاء عن مسلمي الاندلس الى الحرب التي نشبت وقتئذ بين السلطان بايزيد ومماليك مصر الشراكسة تلك الحرب التي استمرت عدة سنوات ، وصرفت ايضاً ملك مصر عن الاستجابة للاندلسيين الذين استنجدوا به ايضاً .غير ان هذا العذر هو اقبح من ذنب لان كلا من العثمانيين ومماليك مصر انصرفوا الى التقاتل بدلاً من ان يجدوا في انفسهم حافزاً لانقاذ الاندلس .

او ربما كانت الثورات التي نشبت في المجر عقب وفاة مليكها مانياس كورفن في سنة (٨٩٧ هـ – ١٤٨٢ م) هي التي شغلت السلطان عن اخوانه بالاندلس ، إذ خيل له ان الفرصة سانحة للاستيلاء على بلغراد التي عجز عن فتحها سلفه تاركاً دولة بني الاحمر تقع فريسة بين انياب الاعداء .

على انا اذا افترضنا وجود مبرر ما للسلطان بايزيد المشار اليه لانصرافه عن نجدة غرناطة اثناء احتضارها فماذا عسانا نجد من المعذرة لياوز سليم (١٥١٢—١٥٢٠م) الذي كان يسمع انباء اجبار المسلمين على التنصر والتنكيل بهم وذلك بعد سقوط ملجئهم الاخير في تلك الديار ، فما عذره وهو الذي كان يرى الدنيا صغيرة لان يحكمها اكثر من عاهل واحد ؟

اننا لا نجد له عذراً اذ تحول عنهم الى حروب كان يشنها على اخوانه المسلمين في فارس ومصر وبلاد الشام . وفوق ذلك فهو لم يتورع عن ختم ايامه بعقد معاهدة مع اسبانيا ، ضارباً صفحاً عن كل ما ترتكب بالمسلمين من المنكرات . وكانت اولى المعاهدات التي عقدت بين السلطنة واسبانيا .

ثم عاصر السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ — ١٥٦٦) فيليب الثاني بن شارلكان ، وهو الذي سجلت ايامه اعظم مظالم ارتكبها مجلس التفتيش . وكان رعاياه المسلمون ، خلال ذلك ، يتطلعون بفارغ صبر الى آل عثمان الذين جمعوا ، في ذلك الحين ، بين السلطتين السياسية والروحية ، كما جمعوا بين السيادتين البرية والبحرية .

وكان من حقهم ان يتطلعوا الى السلطان سليمان القانوني وهم يرونه قد استجاب في الامس القريب الى نداء فرنسوا الاول ملك فرنسا حينما وقع اسيراً في قبضة شارلكان ، فانقذه من الاسر ، وحرر بلاده من امبراطور كاد يكون تاجه تاج اوروبا قاطبة .

ولكن سليمان رغم انتصاره على شارلكان ، الذي كانت اسبانيا جزءاً من البلاد الخاضعة له ، لم يحفل بمصير المسلمين هناك . وما نرى

سبباً لذلك التغاضي الا ان يكون قيام آل عثمان على انقاض البيزنطيين قد انتزع من قلوبهم ما كان عند آبائهم من قبل من الحدب على الاسلام والمسلمين ، خصوصاً بعد ان اصبحت امهات وزوجات كثيرين منهم أوروبيات . وعلى هذا الافتراض تكون بيزنطة التي كان لتسرب المبادىء الاسلامية الى اوساطها الدينية اثر كبير في خلافاتها الداخلية تلك الاختلافات التي قضت على امبراطوريتها ، تكون قد ثأرت لنفسها إذ اضفت روحها على آل عثمان الى حد انها جعلتهم لا يبالون باخوانهم مسلمي اسبانيا ابان نكبتهم الكبرى . واما المساجد الكثيرة التي لا تزال قائمة في عاصمة الدولة وغيرها التي تنوه بآثرهم الدينية فما كان تنافسهم في تشييدها الا قصد اكتساب عطف الشعب . وكذلك يقال بالنسبة للحروب التي كانوا يواصلونها في اوروبا الشرقية بعد فتح القسطنطينية ؛ فهي حروب وان ظلت تتسم بالطابع الديني عندهم وعند الافرنج الا انها ، في الواقع ، كانت ترجع الى اسباب سياسية ، قبل كل شيء آخر ، ولا سيما بالنسبة لآل عثمان .

بلى وان القسطنطينية التي استولوا عليها سياسياً قد استطاعت ان تستولي عليهم من الناحية الاخلاقية فتجعل مصيرهم من ثم كمصير الامبراطورية البيزنطية من حيث الانهيار .

ولقد كان من المؤسف ان الخلافة انتقلت الى آل عثمان حينما صار هؤلاء لا يشعرون مع الاسلام ، ولا يأبهون لنصرة المسلمين فامسى لقب الخليفة عندهم « حامي حمى الدين » لقباً اجوفا ليس فيه ذرة من الحقيقة .

ولا بدع وهذا السلطان سليم الثاني (١٥٦٦ – ١٥٧٤) الذي خلف والده سليمان على ملك عظيم ، والذي قضى حياته في احضان المحظيات بين الكاس والطاس حتى لقب عند الافرنج بالسكير ها هو يفضل فتح قبرص على انقاذ المسلمين من جور مجلس التفتيش والقيمين عليه . ذلك لان سميه اليهودي وصف له خمر هذه الجزيرة فما تردد في الحملة عليها ، ثم ما تردد في اقامة هذا اليهودي والياً عليها ليختار له افخر خمورها !

وقد علق المؤرخ الالماني ليوبولد رنكي على هذا بقوله :

« لما صارت السلطنة الى سليم الثاني عرض عليه القيام باحدى حملتين تتفقان كلتاهما مع الخطة البحرية التي اختطها من قبل محمد الفاتح . وكانت وجهة الاولى منهما ضد اسبانيا عدوة الاسلام الاولى ، ووجهة الثانية شطر قبرص الجزيرة التي كانت تابعة للبندقية فاهمل السلطان أولاهما رغم ما كان يقدر لتلك الحملة من النجاح الاكيد من جراء ثورة كان المسلمون قد اضرموها هناك ، وكانوا يبلغون نحواً من خمسة وثمانين الف عيلة طالما ارسلوا الرسل الى عاصمة آل عثمان يستنجدون بهم ، واختار الثانية التي جرت عليه المتاعب . »

وقد بيّن المؤلف الخطأ في هذا الاختيار بقوله :

« فلو هوجمت اسبانيا لما تجرأت البندقية على الدخول في الحرب ضد السلطنة لما بينهما من بعد التخوم ، فضلاً عن ضعفها بالنسبة لتركيا . ولكن مهاجمة السلطان لقبرص اعتبرته البندقية تعرضاً مباشراً اليها مما حمل فيليب الثاني ملك اسبانيا ،

الذي كان يتوجس خيفة من تركيا ويتوقع خطرها ، مما حمله على ان يكتسب هذه الفرصة للقضاء على العمارة العثمانية ، فسارع الى ضم اسطوله الى اساطيل البندقية والفاتيكان ومالطة والسافوا ، وكانت العاقبة وقوع معركة ليبانتيه البحرية تلك المعركة التي انكسرت فيها تركيا ، وافضت الى خسرانها ، من بعد ، سيادتها البحرية ، بالاضافة الى خسرانها قوتها المعنوية . »

وكان من عواقب ذلك ان اسبانيا ما ان ارتاح بالها من الخطر العثماني الذي كانت تحاذره حتى بادرت الى اجلاء المسلمين من بلادها وذلك في عام (١٠١٧ هـ = ١٦٠٨ م) فضلاً عن اليهود ، الا من تنصر من الفريقين ، او تظاهر بالتنصر .

ذلك كله كان يحمل العرب خاصة والمسلمين عامة الذين لا يزالون يتحسرون على الفردوس المفقود ، يحملهم على توجيه اللوم الى سلاطين آل عثمان بسبب تخلفهم عن نجدة اخوانهم هناك ، بينما كانت تركيا تتمتع بقوة تسمح لها باسداء المعونة لهم ، وحينما كانت تستأثر بالخلافة وتحمل تبعاتها .

والى هذا فاذا ذكرت اندلس القرن العشرين وتساءل العرب والمسلمون عن سبب موقف الجمهورية التركية المعاصرة من فلسطين المنكوبة واهلها المشردين جاز لهم ان يعتبوا ايضاً ويقولوا « ما اشبه الليلة بالبارحة . »

الفصل التاسع

تطور الاتجاهات في تاريخ الامبراطورية العثمانية

•

امست السلطنة العثمانية في ذمة التاريخ، ولكنها ما قضت نحبها الا بعد ان لعبت ادواراً مهمة في العالم السياسي خلال ستة قرون ونيف، ولذلك فان كتبة الغرب ومثلهم مؤرخو الترك ما انفكوا يعنون، كل العناية، في تدوين اخبارها على قدر تلك الادوار التي مثلتها في التاريخ حتى لم يغادروا كبيرة ولا صغيرة الا احصوها. غير اني رغم كثرة المؤلفات في هذا الموضوع لم اجد فيما تسنى لي الاطلاع عليه احداً تعرض لتدوين اتجاهات السلطنة وتطورها بمقتضى الازمنة التي عاصرتها، وبحسب الظروف التي عاشت فيها، فرأيت سداً لهذا الفراغ ان ازود هذا الكتاب بمعلوماتي الخاصة في هذه الناحية بالاضافة الى مشاهداتي خلال الزمن الذي كنا فيه رعية من رعاياها، والتزمت في ذلك الاختصار الذي يتناسب مع الكتاب.

تركيا الاسلامية

من ٦٩٩ الى ١٢٢٣ هـ

١٢٩٩ ١٨٠٨ م

نشأت سلطنة آل عثمان في ذلك العصر الذي جاء في اعقاب الحروب

الصليبية، العصر المشبع بروح التعصب الديني والجهاد في سبيل الدين، ولذلك فان السلطان عثمان واولاده، الذين تنشقوا هواء ذلك الزمن، انساقوا بروح العصر الى فكرة الجهاد، فولوا وجوههم شطر الممالك الاوروبية. وقد استهلوا فتوحاتهم بالتعرض الى جيرانهم في آسيا الصغرى اصحاب بورصة وازمير وازنيق وطرابزون التابعين للامبراطورية البيزنطية، وخيروهم بين الاسلام والجزية.

وكان النجاح حليفهم فسموا بانظارهم الى ما وراء الدردنيل. ولما اتيح لهم الاستيلاء تباعاً على بلغاريا وسربيا والامبراطورية البيزنطية راودتهم نفسهم التقدم الى روما مقام المرجع الاعلى للكثلكة. وكانت النمسا، وهي الدولة القوية، تحول بينهم وبين قاعدة البابوية، ولذلك انصبوا عليها وانتزعوا منها المجر، وجاسوا اراضيها حتى بلغت جيوشهم اسوار فينا عاصمتها ثلاث مرات. ولقد كان الحافز لهم في بداية السلطنة على الاتجاه شطر اوروبا هو العامل الديني. وظل هذا الاتجاه على حاله بفعل قوة الاستمرار وتشابك المصالح بعد ان اصاب هذا العامل الديني ما اصابه من الفتور الكثير نتيجة لقيام سلطنتهم على انقاض الامبراطورية البيزنطية.

غير ان واحداً من هؤلاء السلاطين رأى ان يتحول في الفتح عن اوروبا الى آسيا، واعني به السلطان ياوز سليم (١٥١٢ — ١٥٢٠ م). ومع ذلك فان تحوله هذا لم يكن يخلو من حافز ذي طابع مذهبي يمت بصلة الى الدين.

ذلك ان التعصب الديني الذي اتسمت به تلك العصور رافقه تعصب طائفي افضى الى مذابح بين السنة والشيعة في آسيا، كما

افضى الى مثل ذلك باوروبا بين الروم واللاتين، ثم بين البروتستانت والكاثوليك .

وتحت تأثير هذا التعصب الطائفي زحفت دولة الفاطميين في مصر الى فتح بغداد في اواخر عهد العباسيين ، ولولا السلجوقيون السنيون الذين كانوا قد اصبحوا قيّمين على العباسيين لدخلت دار الخلافة في حوزة الفاطميين قبل ان يتعرض لها هولاكو ، ولو حالف النجاح الفاطميين لتحرر العرب من النير التركي في ذلك الحين .

وصادف ان عاصر السلطان سليما عاهل آخر في فارس هو الشاه اسماعيل مؤسس الدولة الصفوية ، وكان يحمل لواء الشيعة ، فلما اضطهد هذا اهل السنة جاراه السلطان سليم باضطهاده الشيعة ، فكان ذلك مما ادى الى وقوع الحرب بين الدولتين ، ومما حمل السلطان سليما على ان يتحول عن اوروبا الى آسيا، ويسوق الاجناد الى فارس ويحتل عاصمتها تبريز . ولما قضى منها وطراً عرج على بلاد الشام فمصر . وكانت القاهرة قد اصبحت بعد سقوط بغداد مقاماً للخلافة ، كما اصبحت عاصمة للثقافة العربية . فلما قضى السلطان سليم على المماليك بمصر وانتزع الخلافة لنفسه (١٥١٧ م) كان ذلك بمثابة القضاء المبرم على العرب .

على ان السلطان سليماً قضى نحبه بعد سنوات ثلاث من دخوله القاهرة فاتحاً ، ولذلك لم يتح لنا ان نعلم فيما لو مد القدر بعمره أكان يمضي في التوسع بآسيا ام انه كان ينوي استئناف مهمة آبائه في اوروبا . واما خلفه سليمان القانوني فسرعان ما تحول عن الشرق بعد تدويخ فارس للمرة الثانية ، وانصرف بكليته الى اوروبا ، منساقاً

اليها بدافع المصالح التي انبثقت عن وجود السلطنة الى جانبها ، ولمواجهة الخطر الصليبي الذي كان جيران السلطنة يحاولون اثارته في ارجاء اوروبا . هذا وكانت الحروب الصليبية قد انهكت قوى الدول الغربية ، كما ان الفشل الذي احاق بها في ختام تلك الحروب انتزع من اهلها القوة المعنوية . لذلك فان الدول الغربية لم تنشط الى نجدة الامبراطورية البيزنطية رغم توسلاتها المتكررة ، ولم تحفل ايضاً بنداءات الدول الارثوذكسية من بعدها . وكان ابرز ما يثبط همم الدول الغربية عن نجدة الدول الارثوذكسية ، تلك البغضاء التي تفاقمت بين الكاثوليك وبين الروم اثناء الحملات الصليبية ، والتي بلغت حداً كان يحمل الكاثوليك على الشماتة بالروم . هذا فضلاً عما كانت عليه تلك الدول الكاثوليكية ، عقب هذه الحروب الدينية من التضعضع سواء أكان ذلك في الناحية المادية ام المعنوية .

ولكن ما ان استفحل الخطر العثماني ، واحاق بالمجر حتى قدرت الدول الغربية سوء المصير فتنادت باسم الدين ، وتألبت من اجل دفع الخطر التركي ، وعلى رأسها بابوات روما .

على ان كثرة هذه الدول لم تكن مجدية لها في اكثر الحروب ، ولكن ما ان بدأ الانحدار العثماني يستهل بعد موت السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠—١٥٦٦م) ، ويظهر في ايام مراد الثالث (١٥٧٤—١٥٩٦م) ، ويكتمل في حكم احمد الاول (١٦٠٣—١٦١٧م) ، ويتفاقم في عهد محمد الرابع (١٦٤٨—١٦٨٧م) حتى شرع الاتحاد الاوروبي ضد السلطنة يتلاشى على التوالي بقدر الاستغناء عنه . وانتهى الامر بان اضطلعت كل من النمسا وروسيا باعباء مهمة اجلاء التركي عن اوروبا .

ثم القيت هذه المهمة على عاتق روسيا فحسب ، التي كانت وماتزال تطمع بالاستيلاء على قسطنطينية .

وهكذا فقد قدر على سلطنة آل عثمان ان تقضي حياتها في حروب دينية الطابع ؛ بدأت هجومية ، ثم صارت دفاعية ، وذلك رغم ان اكثر سلاطينها بعد فتح قسطنطينية كانوا قد خسروا تلك العواطف الملية . وهكذا كان شأنها في سياستها الداخلية : فان السلطنة كانت تحرص على ان تستند احكامها الى الشريعة الاسلامية بمجاراة لروح العصر ، وفي هذا يقول ده سن **Dohsson** : « سواء في زمن السلم ام في شؤون الحرب ، ولوضع قانون سياسي ، ام نظام عسكري ، ولقصاص وزير او قائد عام كانت الوزارة تلجأ الى المفتي تستفتيه في الامر . وكثيراً ما كانت تتفاوض معه في القضية التي ستعرض عليه ، وذلك لانه لم يكن يكفي الأطمئنان الى شرعية الحكم فحسب ، ، بل كان الواجب الرجوع الى رؤساء الدين في قضايا الدولة ، ولاسيما الى كبيرهم المفتي (١) »

وكان المفتي ، على رواية صاحبي تاريخ العالم **Jouanin & Vangaver** هو مرجع السلطنة في الامور الشرعية والمدنية على السواء . ولذلك كان يتمتع بمقام سام دونه مقام الوزراء حتى انه اذا جاء للمثول امـــام السلطان يخف هذا لاستقباله متقدماً سبع خطوات بينما لم يكن يتقدم في استقبال الوزراء اكثر من ثلاث خطوات .

---

(١) كان المفتي هو كبير رجال الدين . واول من لقب مفتي استامبول بشيخ الاسلام هو السلطان محمود الاول سنة ١١٥٤ هـ ١٧٤١ م .

هذا فضلاً عن انه كان للمفتي ان يقبل كتف السلطان على حين لم يكن مألوفاً بالنسبة لكبير الوزراء الا ان يكتفي بلثم ذيل ثوبه . كل ذلك كان يجري مراعاة لروح العصر الذي يضع الدين فوق كل اعتبار آخر . وان ماخلفه السلاطين ، ولاسيما في استامبول وبورصة وادرنة ، من المساجد العظمى التي انفقوا على تشييدها الملايين لدليل على عناية آل عثمان في مراعاة هذا الشعور المستحكم بين الرعية .

ويخال لي ان تنافس السلاطين في اقامة هذه الجوامع لم يكن مصدره ، في بعض الاحيان ، حاجة ماسة اليها ، بل كانت الغاية منه ، اكتساب قلوب الشعب .

وآية ذلك قيام مسجدي السلطان سليمان القانوني ، والسلطان احمد الاول الى جانبي جامعين أنشأا قبلهما : فالاول قام على مقربة من جامع بايزيد ، والثاني بجوار اياصوفيا . ولعلهم لم يقصدوا بتعمير تلك المساجد اقامة الصلوات فحسب ، بل ارادوا ان تكون وسطاً اجتماعياً حافلاً بالمنشآت الخيرية والمنافع العمومية من مدارس وكليات ومكتبات ومطاعم مجانية وتكايا واسبلة ومدافن ، حتى كأن الجامع وما حوله من هذه المؤسسات مدينة مستقلة للاعمال الخيرية العامة . وهذا ما شاهدناه اخيراً حول جوامع محمد الفاتح وسليمان القانوني واحمد الاول باستامبول وييلدرم بايزيد وجلبي محمد في بورصة ، ناهيك بجامع ادرنة الذي يعتبر تحفة فنية من آثار المهندس المعمار سنان باشا ، بل هذا ماهو ماثل امامنا على مستوى أصغر بدمشق حيث تقوم الى جانب الجامع التكية والمدرسة اللتين اقامهما السلطان سليمان القانوني مكان قصر الابلق الذي كان شيده السلطان بيبرس .

البندقداري . على ان هذه المؤسسات القائمة حول الجوامع وان تحولت في العهد التركي الحاضر الى وجهات اخرى ضمن نطاق المنافع العامة الا انها لا تزال تدل على عظمة اولئك الذين عمروها ، كما تنوه بتمسك الشعب بالدين ذلك التمسك الذي حمل السلاطين على التنافس في تشييد تلك المؤسسات من اجل اكتساب ثقته وعواطفه .

ونحن لا نرى حاجة للاسهاب هنا في صدد تعصب الشعب التركي للاسلام في ذلك الحين ، ولا سيما في الجانب الاسيوي من السلطنة ، لان ذلك اصبح من المعلومات العامة . وما الشجاعة التي اشتهر بها الجندي التركي الا نتيجة لهذا التعصب ، استناداً الى انه كان يؤمن ايماناً صادقاً بان الذين يقتلون في سبيل الله احياء عند ربهم يرزقون .

تركيا الاصلاحية

من ١٢٢٣ الى ١٢٩٣ هـ
١٨٠٨ ١٨٧٦ م

بينما كانت الامبراطورية العثمانية منهمكة في دفع غارات النمسا وروسيا المتتابعة ، كان التمدن الحديث في اوروبا يزداد نشاطاً يوماً بعد يوم ، ويزوّد دولها باختراعاته ومكتشفاته حتى انقطع التشابه بين الامبراطورية العثمانية والدول الاوروبية .

وكان الافراط الذميم في تعصب الشعب التركي للدين تعصباً لا يرتضيه الاسلام كان هذا مصدراً آخر لبقاء الدولة على جمودها وعزوفها عن الاصلاح والتجدد . وبالاضافة الى ذلك كان الجهل يصور للشعب ان التشبه بالاوروبيين كفر من عمل الشياطين ، وان ما عندهم من ارث الاجداد هو خير من كل جديد لدى الاوروبيين .

وخلال ذلك تفاقم نفوذ الانكشارية ، فاستعان بهم المحافظون على مكافحة كل تجدد واصلاح ، كما ان هؤلاء الاجناد اخذوا يثيرون الشعب واعداء التجدد باسم الدين في سبيل تأمين غاياتهم ومطامعهم الاشعبية .

لذلك فان المصلحين من السلاطين ورجال الحكم كانوا يرون انفسهم عاجزين عن التعرض لاي اصلاح . واذا وجدت عند احد منهم الجرأة على تحقيق شيء منه تعرض للعزل والقتل . وهذا ما اصاب كلاً من مصطفى الثالث (١٧٥٧ — ١٧٧٤) وسليم الثالث (١٧٨٩ — ١٨٠٧) .

على ان هذه الحقبة من الزمن لم تخل ، مع ذلك ، من اصلاحات في بعض النواحي التي لم يكن بد منها : ففي سلطنة ابراهيم الاول (١٦٤٠ — ١٦٤٨) جُهزت السفن بالمدافع ، وفي عهد احمد الثالث (١٧٠٣ — ١٧٣٠) انشئت اولى دور الطباعة على الطريقة الاوروبية ، وفي حكم مصطفى الثالث اقيمت المدارس للفنون الحربية وبعض المحاجر الصحية . وفي ايام سليم الثالث بوشر بتنظيم الجيش على النسق الحديث .

غير ان اقدام السلطان سليم على هذا افضى الى خلعه استناداً الى فتوى صدرت عن المفتي بان كل سلطان يدخل انظمة الافرنج وعوائدهم ويجبر الرعية على اتباعها لا يكون صالحاً للملك ، كما افضى ، من ثم ، الى قتله بتهمة الكفر . وتولى كبر ذلك الانكشارية .

ولكن ما ان اتيح للسلطان محمود الثاني (١٨٠٨ — ١٨٣٩) الفتك بطغمة الانكشارية حتى تذللت العقبات امامه فانبرى الى تحقيق بعض الاصلاحات . فانشأ المعهد الطبي على النمط العصري ،

وبنى سفنا حربية في دار الصناعة العثمانية ، واوفد بعثة من الطلبة الى مدارس اوروبا للتخصص ، هذا فضلًا عن تزييه ،ورجال دولته وجنده ، بالزي الاوروبي ،واصداره جريدة رسمية باللغتين التركية والافرنسيـــة ، وانشائه الاوبرا في استـــامبول ، وضربه الأوسمة .

وكان من المفروض ان توالي السلطنة منذ ذلك القيام بالاصلاحات الضرورية لولا انها فوجئت باحداث سياسية صرفتها عن شؤونها الداخلية . فقد شنت روسيا الحرب على السلطان محمود ، وخرج عليه محمد علي باشا والي مصر بتشجيع من فرنسا ،وظل يتقدم منتصراً شطر استانبول .

وقبل ان يصل نبأ انتصار محمدعلي في نصيبين الى مسامع السلطان محمود توفي هذا العاهل تاركاً مهمة انقاذ السلطنة الى ولده السلطان عبد المجيد (١٨٣٩ = ١٨٦١) .

والواقع ان الفضل في انقاذ السلطنة انما كان يعود الى اختلاف وجهات انظار الدول في القضية العثمانية . ولما اتيح الفوز لنظرية انكلترا ومن كان على رأيها حكم على المنتصر محمدعلي بان يعود الى مصر من حيث اتى . على ان هذا الانقاذ كانت له عواقب سيئة من بعد على السلطنـة . ذلك انها صارت مدينة للمنقذين ،ومضطرة بالتالي للتقيد بتوجيهاتهم التي لم تكن خالصة لوجه الانسانية .

انهم طالبوا باعلان ما كان يسمى « بالتنظيمات » ومدارها المساواة التامة في الحقوق بين المسلمين وغيرهم . وهذا شيء معقول ،لكنه كان يبدو صعباً نظراً لان كثرة الشعب لم تكن متأهبة لقبوله .

ومع ذلك فلم يتردد عبد المجيد باعلان هذه التنظيمات . ولم يبال بما تلا ذلك بسببها من الفتن ، بل وجه مصطفى رشيد باشا الى البانيا لاخماد ثورة الارناؤوط ، كما وجه شيخ الاسلام احمد عارف افندي الى بعض الولايات لاقناع الناس بان هذه « التنظيمات » لا تتعارض مع الاحكام الشرعية . وبعد انتهاء الحرب مع روسيا المعروفة بحرب القرم اصدر السلطان فرماناً آخر بيَّن فيه الاصلاحات المقتضي ادخالها الى المملكة .

ولكن كل ذلك لم يدفع المؤامرات الخفية التي كانت تحيكها الدول متفقة ومنفردة في صعيد اثارة بعض المقاطعات العثمانية عليه تحت ستار تأييد المبدأ القومي ، فكانت ثورة اكريد وفتنة لبنان ونازلة جدة ، فضلاً عن غيرها في مكدونيا مما شغل السلطنة عن متابعة الاصلاح ، وافرغ خزينتها .

على ان استواء عبد العزيز على العرش (١٨٦١ — ١٨٧٦) انعش الآمال فانصرف فؤاد باشا الصدر الاعظم الى اصلاح الشؤون المالية والجمركية لان السلطنة كانت مشرفة على الافلاس بسبب الديون الكثيرة التي كانت اقترضتها من قبل ، ولكن الافلاس كان امراً محتوماً ، ولاسيما لما اشتهر به هذا السلطان من التبذير .

اما الشعب فكان لا يزال على حاله في صدد معارضة كل تجدد الى حد انه لما شاء الصدر الاعظم فؤاد باشا منح شركة اجنبية الأمتياز لمد اول خط حديدي في تركيا قابل الرأي العام هذه البادرة بالنقمة خوفاً من امتداد النفوذ الاجنبي صحبة هذه الشركات . ويروي فمبري **Vambery** انه شاهد امرأة يغمى عليها حين وصلت اليها

من اوروبا صورة ابنها ، حيث كان يستكمل علومه فيها ، ذلك لانه كان يتزيا بالزي الاوروبي .

تركيا المخضرمة (الحميدية)

من	١٢٩٣	الى	١٣٢٧ هـ
	١٨٧٦		١٩٠٩ م

استوى عبد الحميد الثاني على العرش ابان ما كانت الازمات تحيق بالسلطنة من كل جانب : خزنة مفلسة ، وجند اعزل ، وعناصر تدغدغ انفسها احلام القومية الجميلة ، وشعب تواق للحكم البرلماني. والى جانب ذلك مؤامرات دولية في سبيل تحقيق الاماني القومية لبعض العناصر العثمانية ،هذا بالاضافة الى مؤامرات سياسية للاتفاق على اقتسام ارث الرجل المريض .

وماذا عليه ان يفعل بعد ان اعلن الدستور على امل ارضاء الشعب التواق لحكم الشورى وقصد ارضاء اوروبا التي لا تبرح تطالب بالاصلاحات ؟...

وماذا عليه ان يفعل واعلان الدستور لم يجعل اوروبا تقنع به وتعدل عن الاستمرار في التدخل بشؤون الدولة الخاصة ، كما انه لم يمنع روسيا الطامحة عن اشهار الحرب عليه ، وعن مفاوضة سائر الدول لاقتسام امصاره ؟؟...

وبعد فاين القوة ليستعين بها على قمع الثورات العنصرية ،وعلى مجابهة التهديدات الدولية ؟...

اذن فليس امامه إلا ان يستعين بالسياسة . ففي الشؤون الخارجية اصطفى المانيا الدولة الناشئة التي اصبحت تطمح ، منذ

انتصارها على فرنسا ، في أن تقاسم الدول المستعمرة مستعمراتها ، وذلك تحت ضغط الحاجة الماسة من جراء تقدم الصناعات في بلادها. اصطفى المانيا التي كانت تتحبب اليه ، ولا تشترك في الانذارات التي كانت تنهال عليه من سائر الدول .

وقد استفاد السلطان من محالفة المانيا لانها كانت في كثير من الاحيان درعاً في وجه سهام المطامع المصوبة الى صدر السلطنة ، ودافعاً عنه شر المؤامرات (١) .

وفي الشؤون الداخلية اختار العرب عصبية له فقرب بعض رؤوسهم ، واسند اليهم بعض الوظائف في « المابين » والجيش ومناصب الدولة والمعاهد العلمية والفنية ،وألف فرقة منهم لحراسته ، وانشأ لهم في العاصمة مدرسة العشائر ، ووصل بلادهم ، وذلك ما بين سوريا والحجاز ، بالخط الحديدي الحجازي ، فضلاً عن انه اجرى المرتبات على زعمائهم ؛ وكانت تصل اليهم وهم في بيوتهم حيث كانوا (٢)

وقد انتفع السلطان موقتاً من ممارسة هذه السياسة الداخلية ، ولاسيما لانه خدر اعصاب العرب ،وصرفهم عن مشاركة غيرهم من العناصر في الثورات القومية ،وذلك بما بثه في روعهم من انهم جزء من دولة اسلامية هي لهم مثلما هي للترك سواسية .

---

(١) « فلسفة التاريخ العثماني » الكتاب الثاني للمؤلف فيه تفصيل واف عن سياستي عبد الحميد الداخلية والخارجية .

(٢) في الجزء الثاني من كتابنا « قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور » بحث واف عن العرب في عهد عبد الحميد

والى هذا وذاك فقد عني بلف العالم الاسلامي حول الخلافة .
وكانت رسله وعطاياه وصحفه تتفقد المسلمين في الصين والهند وفي الشمال الافريقي، فتوثق بينهم وبينه حتى شعر مسلمو العالم، بعد ان كادوا ينسون، بان لهم خليفة عليهم حق الطاعة له .

ولكن هذه السياسة : سواء أكانت داخلية ام خارجية، وان استمهلت اجل السلطنة نحو جيل، ولكنها قضت عليها في الخاتمة، ولاسيما لانها سياسة لم تكن متفقة مع روح العصر ، ولا مركزة على قواعد الاصلاح التي تصون الدول من الدمار .

ذلك لأن اعتماد السلطان على المانيا ومنحه اياها خط بغداد اثار عليه ثائرة بريطانيا العظمى وروسيا وفرنسا، فشرعت هذه الدول تترقب الفرص لاسقاطه . كما ان ايثار العرب على الترك بتقريبهم اليه، جعل هؤلاء يصغون الى وساوس الاجانب، وحمل بعض شبابهم على الاشتراك مع الارمن وغيرهم من اجل اسقاطه. وكانت تجمعهم المطالبة بالدستور على ما بين الفريقين، الترك والارمن، من اختلاف في الاهداف .

وقد نجحت جمعية « الاتحاد والترقي » بازاحة السلطان عن العرش ومن ورائها انكلترا وفرنسا .

تركيا الاتحادية

من ١٣٢٦ الى ١٣٣٢ هـ
١٩٠٨ ١٩١٤ م

استأثرت جمعية الاتحاد والترقي بالسلطنة كل الاستئثار بعد خلع عبد الحميد الثاني، وفي عهد خلفه محمد الخامس (١٩٠٩ - ١٩١٨)

حتى لم يبق للسلطان محمد في الحكم إلا الاسم .. وبلغ من نفوذها عليه انها ساقته للتوقيع على حكم عسكري يقضي بتنفيذ الاعدام على صهره رغم ما كان يضمر له من المحبة .. فكان هذا السلطان حيال الاتحاديين كالخليفة العباسي المنتصر تجاه كل من حاجبه وصيف وقائده بغا التركيين اللذين قال فيهما الشاعر وفيه :

خليفة في قفص   بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له   كما تقول الببغا

وما ان تسلم الاتحاديون زمام السلطنة حتى تحولوا عن سياسة الاتحاد الاسلامي : سياسة عبد الحميد، الى صعيد العزم على اقامة دولة مدنية دستورية على اساس مبادىء الثورة الفرنسية، شعارها الحرية والاخاء والمساواة .

وكان اعضاء هذه الجمعية من الشباب المتعلمين المخلصين، ولكن الخبرة تنقصهم وحسن الظن يتغلب عليهم، فلم يعتبروا بما سلف، ولم يحسبوا حساباً لما هو لا يزال قائماً في صلب سياسة اعدائهم . وهكذا فاتهم ان الاصلاح فضلاً عن انه لا يرضي الغرب فهو مجلبة لمشاكل كانت تثيرها الدول كلما هرعت السلطنة لتحقيق شيء منه . ذلك ان اعداءها، الذين يوجسون خيفة من ارتداد الروح اليها، سرعان ما كانوا يخفّون الى وضع العصي في الدواليب كلما خطت خطوة نحو الاصلاح كيما تبقى عجلتها في مكانها . قال « فكتور بيرار »

« ما ان همّ التركي بالاصلاح العسكري حتى ابتلي بانفراط عقد سلطنته : فبين سنة ١٨٣٠ و١٨٤٠ مني بفقد المورة ومصر.

كما انه مـــا ان خف للاصلاح الاداري حتى واجه مثل هذا التفكك . فبين سنتي ١٧٧٨ و١٨٨٢ خسر تساليـا والبوسنة وبلغاريا والروملي وقبرص، بالاضافة الى امصار اخرى اغتصبها كل من روسيا والنمسا ، علاوة على بلاد غيرها حررهـا رعاياه القدماء . »

والى هذا فـــان العناصر العثمانية التي كانت تناضل من اجل الاستقلال قبل الدستور لم تكن مستعدة للتخلي عن اهدافها القومية لمجرد الحصول على الحكم الشوري، بل استعانت بالحرية، التي يفرضها هذا الحكم، للاعراب عن امانيها بالطرق الدبلوماسية :

ولذلك لم يمض على اعلان الدستور الا قليل من الزمن حتى توالت النكبات على السلطنة في النـاحيتين الداخلية والخارجية على السواء : فضمت النمسا اليها الهرسك والبوسنة ، وانتزعت اليونان جزيرة اكريد، والتهمت ايطاليا طرابلس الغرب ، واستقلت البانيا، واكتسحت دويلات البلقان الجانب الاوروبي من تركـيا ، وانتزعت اكثره .

هذا فضلاً عن نشاط العناصر الاخرى من غير الاتراك في حقل المطالبة بحقوقها كاملة . وكان نشاطاً عامـاً لم يقتصر على العناصر المسيحية ، بل شمل العرب والكرد والالبان من المسلمين .

وحينئذ ذكر بعض الترك السلطان عبد الحميد بالخير، وشرعوا يدعون للرجوع الى سياسته الاسلامية؛ كما ان البعض الآخر شرع يؤيد فكرة الاتحاد الطوراني . واثناء هذه البلبلة في المبادىء العامة ألف الترك المنشقون عن جمعيه الاتحاد والترقي « الحزب الائتلافي»

في مجلس الامة ، وانضم اليه نواب العرب وزملاؤهم من العناصر الاخرى ، وتضافروا على انتزاع زمام الحكم من الاتحاديين الذين حملوا علم الدعوة للطورانية بعد تألب العناصر عليهم .

وقد وجد الحزب الائتلافي في المصاعب الخارجية التي توالت على الدولة وسيلة لانتزاع الحكم من الاتحاديين ، ولتـأليف الوزارة برئاسة كامل باشا احد رجالات الدولة المرموقين في العهد الحميدي ، ولكن الاتحاديين ظلوا يتحينون الفرص حتى اتيح لهم استرداد الحكم وتأليف الوزارة برئاسة شوكت باشا الفاروقي . وعدا اعلانهم الحكم العرفي ، والتشديد على الذين كانوا يسمونهم رجعيين عمدوا الى تعطيل الصحف ، وابعاد خصومهم من الجيش ، والتدخل في الانتخابات ، والى ابعاد المشبوهين بالنسبة اليهم ، فضلاً عن التزامهم سياسة تتريك العناصر . غير انهم لم يتمتعوا ، مع ذلك بالاستقرار ، بل ثابرت العناصر الاخرى على المطالبة بحقوقها في شتى الوسائل والطرق ، وثـأر الائتلافيون لناظم باشا، الذي قتله الاتحاديون ، بفتكهم بشوكت باشا الفاروقي الذي كان رئيساً للوزارة .

ونشبت الحرب العالمية الاولى (١٩١٤ — ١٩١٨) في الوقت الذي كانت تركيا تضطرم كالبركان من خلافاتها الداخلية ، بينما كان الاتحاديون لا يزالون يسيطرون بالقوة عليها ، ويحاولون اخفات اصوات المعارضين باساليب لا تختلف كثيراً عن مناهج السلطان عبد الحميد رغم ان الحكم وقتئذ كان يتسم بالطابع الدستوري .

من ١٣٣٤ الى ١٣٣٧ ه
١٩١٥ ١٩١٨ م

لما خلع الاتحاديون السلطان عبد الحميد واعلنوا الدستور شاركتهم جميع العناصر العثمانية في الافراح واقامة المهرجانات على امل ان يكون العهد الجديد عهد اخلاص متبادل وازدهار كامل . وشمل هذا الفرح شباب العالم التركي غير العثمانيين في سائر الامصار التركية . بل كان حافزاً لبعض هؤلاء الشبان على أن يهرعوا الى استامبول للمساهمة مع اخوانهم هناك في بنيان الامبراطورية المنشودة.

وكان في طليعة هؤلاء الشبان المتحمسين رجلان من تركستان: اقتشوراوغلي يوسف، واحمد آغاييف، وقد اصبحا معروفين، فيما بعد، بانهما واضعا مشروع الاتحاد الطوراني، وذلك على اساس التفاف الترك، حيث كانوا، حول السلطنة العثمانية .

وقد تردد الاتحاديون، في بادىء الامر بقبول هذا المشروع ، غير انهم ما ان نفضوا ايديهم من العناصر العثمانية غير التركية حتى اقبلوا عليه يؤيدونه ، وكان يظاهرهم في ذلك شبان من الترك تأثروا بالنشرات التي كانت تنشر داعية الى الطورانية منوهة بفوائدها.

ولكن نشوب الحرب العالمية الاولى حمل الاتحاديين على التظاهر بانهم من المخلصين للجامعة الاسلامية دون سواها ، فكان جمال باشا قائد الجيش الرابع منذ وصوله الى بلاد الشام لا يدع مناسبة تمرّ الا ويعلن حرص الدولة على هذه الجامعة .

بل انه رتب حفلة دعا اليها شبيبة دمشق ، وذلك عقب وصوله

اليها ، والقى فيهم خطاباً تعرض فيه للاتحاد الطوراني فقال مموهاً مطمئناً مايلي:

« يجب ان تثقوا بان مشروع الجامعة التركية الذين سمعتم عنه وعن وجوده في استامبول وفي الجهات الاخرى الآهلة بالترك ، لا يتنافى مع الاماني العربية بشكل من الاشكال .

« انتم تعلمون ان هناك في الامبراطورية العثمانية حركات بلغارية وبولونية وارمنية كما تقوم هنا حركات عربية . اما الاتراك فقد نسوا وجودهم بتاتاً، او تناسوه الى حد انهم كانوا يعدلون عن ذكر جنسهم مما ادى الى ركود الروح الوطنية بينهم حتى بتنا نوجس خيفة من تلاشي الشعب التركي تلاشياً تاماً.

لذلك ، وتداركاً لمثل هذا الخطر المداهم خف رجال تركيا الفتاة ، بغيرة تستحق الاعجاب ، الى السلاح قصد اثارة الروح الوطنية وما يرافقها من الفضائل في صفوف الاتراك. »

وكان الاتحاديون يتوخون من الجامعة الاسلامية اثناء تلك الحرب ، اثارة المسلمين في داخل المملكة وخارجها للجهاد تحت راية الخلافة . ولكنهم إذ كانوا غير مخلصين في مادعوا اليه، وإذ كان الناس يعلمون حق العلم انهم لم يتركوا للخلافة معنى فقد باؤوا بالفشل في دعوتهم هذه ، ولاسيما في الاوساط العربية .

و كان الاتحايون، اثناء تلك الحرب الطاحنة ،يتلمسون الاستزادة من القوة والتأييد من اية جهة تأتي فتحولوا بكليتهم الى الاتراك ابناء جنسهم ،وكشفوا القناع عن وجوههم الطورانية ، وعكفوا على تحقيقها بكل الوسائل الممكنة .

وقد فتحت وزارة الداخلية ووزارة الاوقاف ومشيخة الاسلام خزائنها لهذا المشروع، وتضافرت الصحف على الدعوة اليه ،وعلى رأسها اقدام وترجمان حقيقت وجون ترك . واقبل زعماؤهم وشبابهم على تأليف الاحزاب والجمعيات لتأييد الطورانية ، نذكر منها (تورك يوردو) اي المسكن التركي و«تورك اوجاغي » اي البيت التركي . وكانوا يعقدون الاجتماعات في تلك الاندية ، ويلقون المحاضرات ويوجهون النشرات، ولاسيما الى الاتراك خارج السلطنة العثمانية ، كما كانوا يوفدون الدعاة الى الامصار التركية يحثونها على تأييد الدولة وعلى الالتفاف حولها . وفضلاً عن ذلك ادخلوا ،على رواية انريكو انسباتو ، الى المدارس كتباً في التاريخ جعلوا بطلها جنكيز خان .

وكانت حليفتهم المانيا تشجعهم على نشر هذه الدعوة الطورانية ، وتساعدهم بايصالها الى الاوساط التركية عبر السلطنة ، ولاسيما الى روسيا قصد اثارة تلك الاوساط ضد هذه العدوة المحاربة .

وقد ظهرت تباشير هذه الدعوة هناك بالمحاضرات التي نظموها في سنة ١٩١٦ حيث اظهر التتر والكرج والجاكاطاي الجركس كثيراً من الحماس للاتحاد الطوراني .

ثم كانت الثورة البلشفيكية ، فاعطت مجالاً اوسع لنجاح هذا المشروع ، وكان مرد ذلك الى ان سقوط القيصرية في روسيا ترك المجال ، مدة من الزمن ، للاتراك الذين كانوا يرزحون تحت اثقال حكم بطرسبرج لان يتحرروا وذلك قبل ان يشتد ساعد الشيوعية . وقد خف اليهم دعاة الاتحاد الطوراني من استامبول، وعملوا على تمكين

اواصر العلاقات بينهم وبين اخوانهم في تركيا .

وعقدوا مؤتمر قازان ، ثم مؤتمر موسكو ، في سنة ١٩١٧ وبلغ الاقبال على المؤتمر الاخير ان شهده ثمانماية مندوب جاؤوا اليه من اطراف البلاد التركية والمغولية .

ثم لما خسرت تركيا الحرب لجأ انور باشا القائد العام الى آسيا الوسطى ليتزعم الحركة الطورانية ، واظهر في ذلك نشاطاً مرموقاً ، ولكنه لاقى حتفه هناك في حرب خاسرة مع السوفييت ،ولحدت معه الفكرة الطورانية .

هذا وكان الاتحاديون قد رأوا في الحرب القائمة ، وفيما عقدوا عليها من آمال النصر فرصة تتيح لهم طلاقة اليد من اجل تتريك العناصر . وهم فضلا عن ظهورهم بالمظهر العنصري الى حد عزوفهم عن تسمية دولتهم بالامبراطورية العثمانية ،واختاروا بدلاً من ذلك لقب تركيا ، فقد تعمدوا اهمال اللغة العربية التي كانت شبه رسمية ، واظهروا تعصبهم للتركية تعصباً لم يقتصر على الامور الجدية فحسب . وقد شاهدت بنفسي الواناً من هذا التحيز وفي جملة ذلك ايعازهم الى افراد الشرطة للتدخل كيما تكتب اللوحات فوق الدكاكين والمخازن باللغة التركية بدلاً من العربية وغيرها .

وكانت عنايتهم من اجل طغيان اللغة التركية على غيرها في المدارس اشد واعظم . وبينما اصطفوا بعض المعلمات العربيات وساقوهن الى استامبول لاستكمال علومهن ، وبغية صبغهن بالصبغة التركية ،فقد اوفدوا الى بلاد الشام بعثة تعليمية نسائية كانت على رأسها اديبتهم المشهورة خالدة اديب ،وكانت ترافقها شقيقتها نيكار خانم.

واتخذت هذه البعثة بيروت مركزاً لها واحتلت بعض المعاهد الاجنبية التابعة للدول المحاربة .

غير ان بنات البلاد لم يقبلن الاقبال الكافي على مؤسسات هذه البعثة ببيروت رغم ما فيها من المشوقات. ويرجع ذلك الى اسباب متعددة اهمها ما كان في تلك المؤسسات من حرية، كانت في ذلك الوقت، تعتبر اوسع نطاقاً مما تألفه الاوساط الاسلامية. هذا بالاضافة الى الكراهية العامة لتركيا التي اثارها جمال باشا في البلاد من جراء تعليقه على الاعواد فريقاً من اهل البلاد الاحرار ، ونفيه بعض الاسر.

ولكن ما ان دارت دائرة الحرب على تركيا وحليفتها المانيا حتى أمسى مشروعا الاتحاديين الطورانية والتتريك في عالم الاهمال. بل كان من عواقب الحرب ايضاً زوال الامبراطورية العثمانية نفسها تلك التي لعبت اعظم الادوار في تاريخ سبعة قرون هي بالنسبة للعهد الاسلامي بمقدار نصف مدتـــه .



الفصل العاشر

انتفاضات العرب على آل عثمان
وكفاحهم ضد الاستعمار

●

استطاعت السلطنة العثمانية ان تبسط سيادتها ، في وقت من الاوقات ، على كل الامصار العربية من المحيط الاطلسي الى تخوم فارس ؛ ولكنها لم تستطع ان تحتفظ بهذه السيادة الا اسمياً في المغرب باقسامه الثلاثة مراكش والجزائر وتونس. واما في الشرق الادنى ، حيث كانت تتمركز هذه السلطنة ، فقد حكمت حكماً مباشراً كان يختلف في الدرجة بالنسبة للبلاد المتحضرة والبلاد التي تغلب عليها البداوة. وكانت السلطنة تحاول خلال ذلك ان تطمس على كل نزعة قومية وذلك بتشجيع نزعة الجامعة الاسلامية .

على ان النزعة القومية وان خفت صوتها في حواضر العرب ودساكرهم خلال العهد العثماني الاول إلا ان وميض هذه النزعة ظل يتسع بين الفينة والفينة في جزيرة العرب وبعض بلادهم : ففي اليمن اصطدمت السلطنة بثورات متعاقبة كانت كأنها حلقة مفرغة لا اول لها ولا آخر، حتى اضطرت السلطنة للجلاء عنها في اوائل القرن الحادي

عشر ، ثم للاعتراف باستقلالها في مطلع القرن العشرين ، كما انها اصطدمت بثورات اخرى في الحجاز حيث كان اشراف مكة اصحاب النفوذ المطلق يمدون احياناً ، في السر ، ائمة الزيديين في اليمن بالمساعدات، واضطرت للاعتراف باستقلال الحجاز ايضاً في نهاية القرن السابع عشر وذلك عقب الثورة التي قام بها شريف مكة سنة ١١٥٠ ه في عهد السلطان احمد الثاني (١٦٩١ – ١٦٩٥).ولكن ظروفاً مؤاتية سنحت فيما بعد للسلطنة لان تعيد سلطتها على الحرمين الشريفين .

وفي نجد صدرت اعظم حركة استقلالية عربية في غرة القرن الثامن عشر .فقد استولى كل من محمد بن سعود وسعود الكبير على الحجاز وعلى قسم من جنوبي العراق ، وبلغت طلائع الوهابيين مشارف الشام. على انهم وان خسروا المعركة في اوائل القرن التاسع عشر حيال الجيش المصري المنظم الذي ساقه اليهم السلطان محمود الثاني فقد ظلوا يناضلون عن استقلال الجزيرة ، بين كرّ وفر ومد وجزر ، حتى كان لهم ما ارادوا من استقلال .

وخلال ذلك كان كل من آل مهنا في جنوبي العراق ، وآل ابي ريشة بعانة ، وآل شعيب في ناحية البصرة يحكمون كالملوك مستقلين ،بينما اتيح للاسرة الجليلية ان تحكم الموصل طوال القرن الثامن عشر .

واستأنف هذا الجهاد القومي في العراق الشيخ سعدون ،ولما تمكن (كهية) بغداد من القبض عليه بحيلة اتهمه صراحة بانه كان يرمي الى استعادة الحكم للعرب . كما استأنف النضال في هذا السبيل الحاج

سليمان الشاوي في اواخر القرن الثامن عشر بالاتفاق مع كل من الشيخ تويني صاحب المنتفك ، وشيخ الخزاعل في المحمرة .

واما بلاد الشام ، التي هي اقرب من سواها الى مهد التمدن الحديث ، فقد سجلت حواضرها انتفاضات مماثلة منذ بداية حكم السلطان سليمان القانوني في القرن السادس عشر ، تلتها انتفاضات أخرى اخصها ثورتا نابلس سنة ١٨٢٩ ودمشق سنة ١٨٣١ .وتبلورت هذه الانتفاضات في عهدي الامير فخر الدين المعني الثاني والشيخ ظاهر المعمر .

كان الامير فخر الدين عربي النزعة ، وتجلت فيه هذه الفكرة بعد ان رجع الى بلاده من ايطاليا حيث قضى خمس سنين تقريباً يشاهد انبعاث الوعي القومي عند الامم : فقد ذكر الشيخ احمد الخالدي في تاريخه :

« ان الامير فخر الدين وكل الى كتخداه بالاستانة الحاج درويش امر الحصول على فرمان سلطاني يمنحه الولاية على عربستان . »

ويعلق الخالدي على هذه الرواية بقوله :

« فأتت البشرى والفرمان السلطاني سنة ١٦٢٤ م على ان يكون متوليـاً على ديرة عرب بستان من حد حلب حتى حد القدس ،وان يتخذ اسم جده المغفور له الامير فخر الدين،وهو سلطان البر على المقاطعات المذكورة . »

وبعد جيل من ذلك ورث هذه الاماني الاستقلالية اميرعربي آخر ،واعني به الشيخ ظاهر العمر من المشائخ الزيادنة في فلسطين.

وقد هزم حملتين كبيرتين ساقتهما دولة الاستانة لمحاربته ، واضطرها سنة ١٧٧٤ للاعتراف به اميراً مستقلاً ، ولاقراره على ماملك من تخوم مصر الى طرابلس .

ثم ما ان دخل القرن التاسع عشر حتى كان العرب ، ولاسيما في بواديهم ، يتلمسون الاسباب للتحرر من تركيا : اشار سدّيو المؤرخ الفرنسي الى ذلك وقال ان نابليون الاول اوفد سنة ١٨٠٤ السيد ليسقاريدس الى جزيرة العرب والعراق وسوريا قصد الاتفاق مع امرائها وشيوخها على تسهيل مرور جيش كان يعده لاكتساح الهند . وان التقارير التي رفعها هذا المندوب الى الامبراطور واشارت الى ان البدو عموماً ، ما عدا عنزه ، كانوا يكرهون تركيا ، وتتوق انفسهم للتحرر من ربقة سلطتها . وقد ايد ذلك دوتي **Charles Doughty** في كتابه رحلات في بلاد العرب الصحراوية الصادر سنة ١٨٨٨ حيث ذكر بان العرب يعتبرون الاتراك دخلاء في بلادهم وانهم يضمرون لهم الشر . ولكن الاستاذ دوتي اعاد هذا النفور الى السياسة الانكليزية التي كانت تثير النفور بغية تمكين اقدامها حول جزيرة العرب .

● بدء التحسس بالقومية

والواقع ان هذه الحركات الاستقلالية كانت حتى القرن التاسع عشر محاولات فردية واقليمية ، ولكنها شرعت ابتداءً من هذا القرن تتحول الى قضية عربية : فقـــد انبثقت عن الثورة الافرنسية ، فيما انبثق ، فكرة القومية في العالم فاتخذتها الدول الاوروبية مطية لتحرير الامصار البلقانية والمكدونية من ربقة

الحكم العثماني ، كما استعملتها وسيلة لاثارة العناصر الاخرى في الشرق الادنى ضد هذا الحكم . ولما دوت اصوات قذائف الاسطول الاوروبي في ثغر ناورين اليوناني الموجهة ضد الاسطولين العثماني والمصري واغرقتها كانت هذه الطلقات ، على زعم الساسة ، تزف الى العالم بشرى انتصار المبدأ القومي ، مما شجع البلاد البلقانية على ان تحذو حذو اليونان في الخروج على السلطان .

وكانت فرنسا لا تزال ترنو بابصارها الى الهند بعد انسحاب نابليون الاول من مصر فتقربت من محمد علي والي مصر ونشطته للخروج على تركيا باسم القومية ، فاصغى اليها عزيز مصر وزحف على متبوعه ملقباً نفسه بـ« صاري عسكر الجيش العربي . » وكان يلقى العطف والتأييد من البلاد العربية التي كانت ترى فيه محرراً ومنقذاً . وكاد يصل الى الاستانة لولا ان خفت انكلترا الى احباط هذا المسعى ، وردت الحملة المصرية الى مصر ، لا حباً بتركيا وانما نكاية بفرنسا . على ان قيام الامبراطورية العربية المنشودة وان لم يتحقق في ذلك الحين الا ان الفكرة القومية العربية ظلت قائمة بل شرعت تنمو وتشتد بما كان يذاع في الاوساط العربية من انباء الحركات القومية داخل السلطنة وخارجها .

فكان العرب يصغون الى اخبار اليونان ورومانيا والصرب والبلغار والجبل الاسود ونضالها في سبيل الاستقلال والتحرر من تركيا ، كما كانوا يقرأون جهاد بلجيكا في كفاحها للاستقلال ضد هولاندا . ويراقبون جهود كل من الولايات الايطالية والالمانية في سبيل الاستقلال .

وربما كان الشعب العربي في حواضره لا يرحب ، في اول الامر ، بهذه الحركات الاستقلالية الموجهة ضد دولة الخلافة ، خصوصاً وهم يرون ان الايدي الاجنبية هي التي كانت تثيرها ، ولكن عوامل اخرى عرضت في هذا القرن تضافرت مع المساعي الاجنبية فجعلت العرب ، من بعد ، عرضة للتفكير في مصيرهم ومستقبلهم ، واثارت فيهم المزيد من الرغبة في الاستقلال . واهم هذه العوامل هي :

● ضياع هيبة تركيا في نفوسهم من جراء انكساراتها المتوالية في صدر القرن التاسع عشر ، وذلك في الحروب التي نشبت بينها وبين محمد علي باشا والي مصر ، ثم في الحربين اللتين وقعتا تباعاً في غرة القرن العشرين بينها وبين ايطاليا ، ثم بينها وبين الدويلات البلقانية .

● تفاقم النفوذ الاجنبي في السلطنة خصوصاً بعد ان انقذتها الدول من الحملة المصرية وشرعت تتدخل ، من ثم ، في شؤونها الداخلية تحت ستار المطالبة بتحقيق الاصلاحات التي وعد بها الباب العالي ؛ وكلها ترمي ، اولاً وفي الذات ، الى رفع النير التركي عن رقاب الشعب ، وثانياً وفي العرض ، الى المساواة بين عناصره ، ولاسيما في الولايات الاوروبية .

● انتشار المدارس الاجنبية والارساليات التبشيرية التي كان المجال لها متسعاً لان تبث مباديها وافكارها بحرية بين الشعب . هذه المدارس والبعثات التي اصبحت ترى نفسها منذ عهد السلطان عبد الحميد والخديو اسماعيل فوق القانون فتفعل ما تشاء .

● نشاط قناصل الدول الاجنبية في حقل الدعايات مذ ساد الاعتقاد ان الرجل المريض « تركيا » امسى في حالة الاحتضار ،

وذلك بغية حصول كل منهـا على القسط الاوفر من ميراث هذا المحتضر .

فهذه العوامل منفردة ومتحدة بدلت اجواء الشرق العربي ، بما بذرت بين اهله من بذور فكرة التحرر والاستقلال : ففي مصر شرع الحزب الوطني برئاسة احمد عرابي باشا يستثقل حكم الخديو توفيق على اعتباره حكماً اجنبياً ، واخذ يطالب باصدار دستور مصري ، وتطهير الجندية من الغرباء ، ولاسيما الجراكسة .

وفي جبل حوران ، حيث وقف بنو حمدان في وجه الوهابيين فالمصريين وقفة الابطال في الدفاع عن استقلالهم ، صمد آل الاطرش ، الذين خلفوهم في الامارة ، في وجه تركيا طيلة القرن التاسع عشر .

وفي لبنان افضى النضال بين السياسات الاجنبية المختلفة الى نشوب فتنة المتوالية المعروفة ، التي انتهت بوقوع مذبحة سنة ١٨٦٠ ، وافضت بالتالي الى قيام نظام حكم فيه على اساس الاستقلال المركزي .

• نقطة الانطلاق لفكرة العروبة

ويمكن اعتبار فتنة ١٨٦٠ في سوريا ولبنان بمثابة نقطة الانطلاق لبعث جديد بالنسبة للقضية العربية ، وذلك لان بلاد الشام ، ولاسيما بيروت ، اصبحت ، من بعد ، خلال مدة من الزمن ، مركزاً لموفدي الدول الاجنبية الذين جاؤوها للتحقيق في اسباب هذه الفتن ولوضع حد لها . كما ان نظام لبنان الجديد ، الذي قام اثر ذلك ، ترك المجال اوسع امام هذه الدول لبث دعاياتها في الامصار العربية ، هذا فضلاً عن ان بيروت اصبحت حينئذ محط رحال جوال كثيرة

كانت متشبعة بفكرة التحرر من تركيا فلقحت اهل البلد بمبادئها.

وصادف ان تسنم العرش عقب تلك الفتنة ، سلطان مجدد أعني به السلطان عبد العزيز : وكان ميالاً للاصلاح خلافاً لما كان عليه والده عبدالمجيد ذلك العاهل الذي رغم اصداره تباعاً «خطي كلخانة وتنظيمات » الاصلاحيين مجاراة للدول الاوروبية لم يكن يؤمن كعبد العزيز بهذه الاصلاحات . فاقبل السلطان عبد العزيز على الاخذ باسباب التمدن والعمران بدافع شخصي، واسرف في النفقات اكثر من طاقة الخزنة .

هذا وكانت الولاية في مصر قد صارت للخديو اسماعيل، فشرع ينافس معاصره السلطان المشار اليه في هذا التجدد بالاضافة الى تنشيط الآداب العربية معتمداً في ذلك على ابناء لبنان الذين ما ان آنسوا فيه هذه الرعاية حتى خف بعضهم الى مصر للعيش في رحابه. ولعل الخديو اسماعيل كان متأثراً في هذا التنشيط بالغاية التي رمى اليها جده محمد علي الكبير في صدد الاستعانة بالقومية العربية لانشاء دولة كبرى .

وخلال تلك النهضة التي سجلتها كل من بلاد الشام ومصر في عهدي هذين العاهلين تلفت العرب الى ماضيهم الزاهر فنوهوا به في خطبهم وشعرهم داعين لاستعادة امجادهم. وتجاوز بعضهم هذا الحد الى التحمس بقوميتهم. وقد روى لي ابن العم المرحوم راشد بيهم ان والده الحاج حسين بيهم الذي رئس الجمعية العلمية السورية بعد الامير محمد ارسلان: «كان هو والامير المشار اليه على اتصال بالشريف عبد المطلب

امير مكة ؛ وكان هذا الامير يعمل لحركة ثورية ضد تركيا بالاتفاق مع الامير عبد القادر الجزائري المقيم في دمشق . وربما كان لفرنسا يد في هذه المحاولة . »

وعلى رواية المرحوم جورج انطونيوس في كتابه Arabs Awaikening ان اول مجهود عملي منظم للحركة يرجع الى سنة ١٨٧٥ وذلك حينما الف بعض طلبة الكلية السورية الانجيلية في بيروت (الجامعة الاميركية) اولى الجمعيات السورية، وانشأوا لها فرعاً ، من بعد ، في دمشق وطرابلس وصيدا على اساس استقلال بلاد الشام ، ومنها لبنان وذلك ضمن نطاق الامبراطورية العثمانية .

وفي هذه الاثناء صارت ولاية بلاد الشام الى مدحت باشا الملقب بابي الاحرار (١٨٧٩-١٨٨٠) . وكان هذا الوالي يطمع في ان يستقل بسوريا كاستقلال الخديو بمصر، ويؤيده في هذا المسعى المشير احمد ايوب باشا بالاتفاق مع فرنسا . وقد حدثني المرحوم واصل بك المؤيد ان مدحت باشا شرع وراء هذه النية يؤلف حوله قلوب السوريين باسناد الوظائف الكبرى الى بعض رجالاتهم بدلاً من الترك : فنصب هولو باشا العابد متصرفاً على حماه ، ثم على دمشق، وقربه اليه حتى كان يوليه منصب الولاية بالوكالة حين غيابه عن دمشق ، كما انه نصب شمدين بك متصرفاً على البلقاء ، اي نابلس، ومحمد باشا اليوسف فاحمد باشا الصلح على عكا وهلم جرا

وشاء مدحت باشا من جهة اخرى ان يكتسب ثقة اوروبا اثناء مساعيه لتحقيق آماله: فاطلق حرية الكلام، ونشط اسباب النهضة

وفي جملتها التمثيل الفني ،فكان لابي خليل القباني نصيب وافر من تشجيعه ، هذا فضلًا عن ابدائه العطف نحو المسيحيين .

قال واصل بك :

« ولكن اعيان البلاد كانوا على غير رأي الباشا في صدد تشجيع هذا الفن حتى انهم كانوا يرون انه ليس من قدرهم شهود هذه الروايات . »

وعلق على ذلك بقوله :

« فلما وصلت بطاقة دعوة لحفلة تمثيلية الى والدي وجيه بك ارسلني لحضورها ومعي اثنان من اخواني ، هما اصغر مني سناً . فاستاء مدحت باشا وقال بتهكم: «ألم يجد ابوك اولاداً في القماط اصغر منكم يرسلهم لشهود الحفلة بالنيابة عنه ؟ »

● السلطان عبد الحميد يحارب القومية بالجامعة الاسلامية

غير ان السلطان عبد الحميد الثاني سرعان ما شعر بمطامع مدحت باشا فلم يمهله ، بل خف الى نقله الى منطقة اخرى ، وظل غاضباً عليه حتى قتله . كما انه بادر الى القضاء على الحركات الاستقلالية في بلاد الشام وغيرها . وهو وان نجح في إلهاء المسلمين بالجامعة الاسلامية الا ان سياسته الملية حملت غيرهم من الطوائف الاخرى على الاصغاء اكثر فاكثر الى الدعايات الاجنبية ، ولاسيما في لبنان .

والواقع ان السلطان عبد الحميد وان استطاع تحويل المسلمين الى الجامعة الاسلامية فان صوت العروبة في عهده ظل يرتفع خارج السلطنة بين الفينة والفينة ، ولاسيما بالصحف التي انشأها بعض ابناء العرب في انحاء اوروبا . ولكن هذا الصوت لم يكن مخلصاً في

اكثر الاوقات ، بل انه يأتي امَّاصدى لدعايات اجنبية مأجورة ، او لاغراض شخصية ، ولاسيما من جماعة المستوظفين. وقد اشترك بعض العرب ، خلال ذلك العهد ، في بعض المؤتمرات التي عقدها احرار العثمانيين في اوروبا قصد اعلان الدستور . وكان ندرة بك المطران احد اعيان بعلبك من خطباء مؤتمر فينا سنة ١٨٩٠.

● الاصطدام بين العرب والترك في العهد الدستوري

لما حدث الانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨ واعلنت جمعية الاتحاد والترقي التي قامت بهذا الانقلاب عزمها على انشاء امبراطورية هي لجميع العناصر العثمانية على السواء شعارها الحرية والاخاء والمساواة هلَّل العرب، اسوة بسواهم ، لهذا الانقلاب وكبروا ، وتناسوا الى حين الهدف القومي ، وحذا نوابهم في الاستانة حذو الترك وغيرهم بتأسيس الجمعيات على اساس التعاون العربي العثماني (١) . ففي سنة الانقلاب قام شفيق المؤيد العظم وشكري الايوبي الدمشقيان وندرة المطران البعلبكي بتأسيس جمعية الاخاء العربي العثماني ،وكان هدفها اعلاء شأن العرب بالتعاون مع الاتحاديين . بيد ان هؤلاء سرعان ما حلوها عقب الانقلاب الفاشل الذي حاول السلطان عبد الحميد ان يقوم به ضدهم ، هذه المحاولة التي افضت الى خلعه عن العرش وحملت الاتحاديين من بعد على الحذر الى حد انهم حظروا وظائف الدولة في سائر ارجاء الامبراطورية على من لم يقسم اليمين على مبادئهم ، وقبضوا على زمام الحكم علناً .

(١) تالفت ايضا في حواضر البلاد العربية مثل هذه الجمعيات منها « الجامعة العثمانية » في بيروت برئاسة عبدالقادر القباني وكنت على صغر سني عضواً فيها.

غير انهم تسامحوا وقتئذ بقيام المنتدى العربي في استامبول برئاسة عبدالكريم الخليل من لبنان للصفة الادبية التي كانت لهذا المنتدى. فاذا بالعرب هناك يلتفون حول هذا المنتدى، ويقبلون على المجلة التي اصدرها، واذا بالنادي يصبح بيت العروبة يجتمع بين جدرانه احرار العرب ونوابهم وضباطهم، فيتبادلون الآراء، ويلقون الخطب، وينشدون الشعر مجددين العزم على النهوض ببني قومهم.

وخلال ذلك كان مجلس النواب، الذي تألف بعد الانقلاب، ميدان عراك للمبادىء العنصرية المختلفة ذلك لان الدستور وما رافقه من حرية القول ترك المجال للعناصر غير التركية لان تفصح عن امانيها. وكان وراء بعضهم دول اجنبية اشفقت على مطامعها ان تصبح اثراً بعد عين في عهد الحكم الدستوري فسارعت الى وضع العراقيل في وجه السلطنة سواء في شؤونها الداخلية او الخارجية، واتخذت من هذه العناصر مطايا لغاياتها.

على ان هذا الانتفاض العنصري على حكومة الاتحاديين كان له اثر رجعي على سياستها اذ التزمت هي ايضاً خطة مماثلة انتهت بها الى اعتناق المبدأ الطوراني. ورافق هذه السياسة شدة في الحكم، وضغط على الحريات، واعلان للاحكام العرفية مما افضى الى اشتداد الخلاف بين الترك والعناصر الاخرى. وكانت الصحف تذكي هذا الخلاف بلهجات عنيفة.

وكان من ابطال الحملات الصحفية على العرب في عاصمة السلطنة جلال نوري واحمد راسم في جريدة استامبول، وحسين جاهد صاحب جريدة طنين يؤازره يوسف اقتشورا واحمد افايت، وهما من

تركستان ومن اركان الدعاة للجامعة الطورانية، هذا فضلاً عن جرائد اقدام، وترجمان حقيقت، وجون ترك وجريدة العرب التي كانت تصدر باللغة العربية للشيخ عبيد الله نائب ايدين وتتكلم بلسان جماعة تورك اوجاغي، ومجلة اجتهاد.

وبلغ من شطط بعضهم في هذه الحملات ان جلال نوري لم يتورع عن دعوة الحكومة لاجلاء العرب عن ديارهم وتحويلها الى مستعمرات تركية. بينما ان جريدة اقدام اقترحت تنقية اللغة التركية من الكلمات العربية.

وزيادة على ذلك فقد لقنوا التلاميذ اناشيد وقصائد كانت تجعل من جنكيز خان المثل الاعلى للزعيم المنقذ، فراح هؤلاء ينشدونها في كل مناسبة، كما انهم اجزلوا العطاء للاندية التركية التي انشئت لتأييد المبدأ الطوراني. وساعدوا على نشر الكتب التي ظهرت وقتئذ مؤيدة هذا المبدأ مثل قوم جديد، ومستقبل تاريخي، وصوك كتاب. وقد تضمن كتاب «قوم جديد» خطبة القاها الشيخ عبيد الله في جامع ايا صوفيا جاء فيها:

«ما هذا الجهل، وما هذه الغفلة التي استولت عليكم؟ تعلقون اسماء خلفاء العوب على جدران جوامعكم؛ ولا تذكرون بالاحترام اسماً من اسماء خلفاء الترك الذين قدستهم الاحاديث النبوية الكثيرة!»

وانبرت في حواضر المدن العربية صحف اخرى شرعت تقابل تلك الحملات بمثلها وعلى رأسها جريدة النهضة في بغداد لمزاحم الباجه جي، والمقتبس في دمشق لمنير الريس واحمد كرد علي،

وجريدة المؤيد للشيخ علي يوسف بالقاهرة، وجريدة المفيد لعبد الغني العريسي ومحمد المحمصاني في بيروت ، والاتحاد العثماني للشيخ احمد طباره في بيروت. وقد اقتص جمال باشا من هؤلاء البيروتيين خلال الحرب العالمية الاولى وصلبهم في جملة من صلب من احرار العرب.

وكان اهل الشام في الساحل والداخل يتحمسون لما تنشره جريدتا المفيد والاتحاد العثماني ويترقبون بفارغ صبر صدورهما .

وقد ذكر لي الشيخ محمد حبيب العبيدي مفتي الموصل، الذي كان خلال تلك الفترة ضيف بيروت ، ذكر لي في التنويه بمقدار شوق الناس لقراءة جريدة المفيد التي اشتهرت في الدفاع عن العروبة ، انه كان اذا زار ادارة الجريدة لا يستطيع الوصول اليها من جراء كثرة موزعي هذه الصحيفة الذين ينتظرون صدورها الى حد انهم كانوا يملأون سلمها حتى لا يجد الزائر اليها منفذاً للمرور .

وافضى اقبال الناس في البلاد العربية على تلقف الاخبار الى زيادة عدد الصحف زيادة عظيمة ، كما ازدادت المجلات نتيجة للنهضة الفكرية ، حسبما يشير اليه الجدول التالي :

	ما بين ١٨٩٤ = ١٩٠٤		ما بين ١٩٠٤ – ١٩١٤	
	جرائد	مجلات	جرائد	مجلات
سوريا	١	٢	٧٣	١٤
لبنان	١٥	١٤	١١٧	١٥
فلسطين	١		٢٦	٥
العراق	١		٦١	٩
الحجاز	٠٠	٠٠	٦	٠٠
	١٨	١٧	٢٨٣	٧٩

هذا فضلاً عن جرائد مصر والاميركتين التي كانت تفصح عن افكارها بحرية اشد فترسلها داوية مؤثرة، وتصل الى البلاد العربية بالطرق السرية ، وبواسطة برد القناصل .

وكان للصحف تأثير كبير على الرأي العام الى حد ان التعاطف المتبادل بين العربي والتركي الذي كان متوثقاً خلال عهد السلطان عبد الحميد انقلب الى نفور . وبعد ان كان الترك على وجه عام يقدسون بلاد الشام ويعتبرونها الاول والمصير « اولّي شام آخري شام . » امسوا يرددون القول « نه شام شكري نه عرب يوزي » اي لا سكر الشام ولا وجه العرب. ولا زلت اذكر حادثة وقعت في بيروت للشيخ محمد حبيب العبيدي تدل على مبلغ هذا التنافر.

قال لي: **«جئت الى مكتبة السيد احمد محرم عند مدخل الجامع الكبير لابتياع شيء من الورق، وما ان سألته عما اذا كان لديه « كاغد » للبيع (وهو الورق باللغة التركية) حتى ثارت ثائرته وقال لي « كاغد بعينك » احك عربي».**

حدثني العبيدي بهذا وهو يضحك مسروراً لانه تناسى اهانته ازاء امتنانه من شدة شعور الشعب بالقومية .

على ان هذا الشعور تحول في العراق الى عراك ومقابلة العنف بالعنف ، فلم يطق العراقيون صبراً على ضغط الاتحاديين في سبيل محو المعارضة، بل هب بعض الزعماء سنة ١٩١٠ للدفاع عن حريتهم ، وفي طليعتهم يوسف السويدي وحمدي الباجه جي وكلاهما من بغداد ، ورشيد العمري من الموصل .

هذا وكان التشاحن بين عرب وترك قد تجاوز الصحف

واحتل مجلس المبعوثان في العاصمة ، ولاسيما مذ حل" الاتحاديون
جمعية الاخاء العربي باستامبول عقب قضائهم على فتنة ٣١ اذار سنة
١٩٠٩ التي دبرها السلطان عبد الحميد. فألف نواب العرب سنة ١٩١١
الكتلة النيابية العربية التي تزعمها طالب النقيب زعيم البصرة، وشفيق
المؤيد نائب دمشق ، وعبد الحميد الزهراوي نائب حمص ، وسعيد
الحسيني نائب القدس .

وهذا التكتل الذي شهده المجلس وشهد معه اصوات نواب
العرب تجلجل فوق منبره ، رافقه نشاط في صعيد انشاء الاندية
والجمعيات العربية . وكانت القحطانية اولى هذه الجمعيات في استامبول ،
ولكن الاتحاديين لم يلبثوا ان حلوها بعد عام ، فخف طلاب العرب
هناك الى تأليف جمعية العلم الاخضر ، كما بادر زملاؤهم في باريس
لتأليف جمعية الفتاة العربية .

● مطاليب العرب تتعدى المساواة الى الاستقلال

كانت مطاليب العرب في صدر العهد الدستوري لا تتعدى
المطالبة بالحرية والمساواة، ولكن ظهور الاتحاديين بالمظهر الطوراني
واستعمالهم العنف في سبيل كبت اصوات المعارضين حمل العرب
على تجاوز حدود امانيهم الاولى الى العمل في سبيل الاستقلال .

ففي باريس اجتمع سنة ١٩١١ عوني عبد الهادي ورفيق التميمي
من فلسطين، وتوفيق يوسف السويدي من بغداد، ورستم حيدر من
بعلبك ،وجميل مردم بك من دمشق، وعبد الغني العريسي ومحمد
المحمصاني من بيروت، وانشأوا جمعية «الفتاة» التي ترمي الى الاستقلال
التام. وانضوى تحت لوائها من بعد عدد كبير من الشباب في سوريا

بينهم شكري القوتلي وفارس الخوري وعلي رضا الركابي من
دمشق ، وابراهيم هاشم من فلسطين .

وكانت كثرة العرب تجنح وقتئذ الى المطالبة باللامركزية دون
الاعراب عن اي ميل للانفصال عن السلطنة . غير ان هؤلاء
ازدادوا اهتماماً بامر مصير البلاد العربية اثر ما شاع وذاع وقتئذ
عن اتفاق الدول على اقتسام السلطنة وذلك عقب ما احاق بها من
الفشل في الحرب الايطالية سنة ١٩١١ ، ثم في الحرب البلقانية
سنة ١٩١٢ .

وفعلاً فان منشورات وزعت في ذلك الوقت العصيب في بعض
البلاد العربية تزعم **« بان جاويد بك وزير المالية ذهب الى اسواق
اوروبا (ليدلل) على مرافق البلاد العربية ، وان حقي بك
غادر العاصمة ايضاً لمثل هذه الغـــاية . وجاء في احدى هذه
المنشورات العبارة التالية :« انظروا في موقف بلادكم قبل ان
يسلمكم تيوس الاستانة الى ذئاب اوروبا . » ولا ازال احتفظ
ببعض هذه المنشورات .**

واثنـــاء هذا الاضطراب الفكري نشأ سنة ١٩١٢ حزب
اللامركزية العثمانية في القاهرة ، فانتخب رفيق العظم للرئاسة
واسكندر عمون لنيابة الرئاسة . وكان بين اعضاء الحزب النافذين
الشيخ رشيد رضا والدكتور شبلي شميّل وسامي الجريديني .
وحرص الحزب منذ تأليفه على الاتصال بالولايات العربية وعلى اقامة
فروع له في كل منها. وكان مدار دعوته المطالبة باستقلال الولايات
العربية على اساس الوحدة اللامركزية بينها وبين السلطنة .

وقد وجدت هذه الدعوة قلوباً واعية في بيروت وتنادى نوابها واعيانها الى اجتماع نظموا فيه مطاليبهم وقدموها الى ادهم بك والي الولاية طالبين تحقيقها .

وكانت فرنسا ، التي ما برحت تظهر طمعها ببلاد الشام وتلقي شباكها كلما بدرت فرصة مؤاتية ، كانت تظهر نشاطاً مرموقاً في اثارة الخلاف بين الحاكم والمحكوم على امل ان تصطاد في الماء العكر ، فاذا ببعض الجند اللبناني يزحفون سنة ١٩١٣ من شمالي لبنان الى بعبدا ويحتلون فيها دار الحكومة ، ويرفعون على السارية علماً ابيض تتوسطه الارزة بدلاً من علم الدولة . وكانت حجتهم في ذلك قلة الرواتب وسوء تصرف الرؤساء .

وقد تعرض جمال باشا ، القائد العام للجيش العثماني الرابع اثناء الحرب العالمية الاولى ، في كتابه « ايضاحات » الى دسائس فرنسا وقتئذ ، ذلك الكتاب الذي نشره لتبرئة نفسه من جريمة اعدامه بعض احرار العرب ، وقال :

« تأسست بلبنان جمعية سرية وهي اولى الجمعيات الاستقلالية اطلق عليها اسم « جمعية النهضة اللبنانية » وكان قنصل فرنسا في بيروت من عمدة اعضائها يمد لجنة بيروت وفروعها بلبنان بالنقود الوافية ، وكانت هذه الجمعية منتشرة ولها فروع في مصر وباريس ونيويورك . »

وكانت هذه الجمعية تتقيد بتوجيهات آل الخازن ولفيف من الكتبة والصحفيين ، وعلى رأسهم خليل زينية صاحب جريدة الثبات ورزق الله ارقش . وكان يحمل لواءها في باريس شكري غانم ،

وفي نيويورك نعوم مكرزل مؤسس جريدة الهدى .

ووجدت لها انصاراً اقوياء في اوساط حزب اللامركزية بمصر ، منهم اسكندر عمون ، نائب رئيس هذا الحزب . وكانت جريدة الاهرام في القاهرة تتكلم بلسانها .

غير ان الدعاية الواسعة التي قامت بها هذه الجمعية لفرنسا حملت بريطانيا العظمى على البروز الى الميدان ، فاصبح لها ايضاً بين اعضاء حزب اللامركزية بمصر انصار مؤيدون كانت جريدة المقطم تنطق بلسانهم .

على ان نشاط الحركة العربية وان ظهر بارزاً في الولايات العربية وغيرها خارج العاصمة غير انه ظل قوياً في استامبول نفسها . وقد عرضت وقتئذ مناسبة كان من نتائجها تأليف جمعية العهد . ذلك ان خلافاً وقع بين الفريق عزيز علي المصري وبين اركان القيادة التركية حمله على التفكير في انشاء جهاز سري للضباط العرب داخل الجيش ، فانضم اليه نوري السعيد وحمدي ومزاحم الباجه جي وجميل المدفعي من العراق .

غير ان هذه الجمعية لم تمد يدها الى الاجانب ، اعتقاداً من اربابها انه من الممكن التعاون سياسياً مع الاتراك ضد الاجانب . وكانت تتغلب عليها الصبغة العراقية لان السواد الاعظم من اعضائها كانوا من العراق . وهذا ما اوحى الى لورنس لان يقول في كتابه اعمدة الحكمة السبعة **« ان جمعية الفتاة كانت سورية مثلما ان جمعية العهد كانت عراقية . »**

وقد اصابت جمعية العهد نجاحاً كبيراً حتى قدر عدد الذين

انتسبوا اليها باربعة آلاف عضو جلهم من العسكريين .

● **الحركة الاصلاحية في بيروت وغيرها**

في غمرة هذا الاضطراب الذي كان يسود البلاد ، ولاسيما بعد الفشل الذي مني به الاتحاديون القابضون على زمام الدولة في كل من حربي طرابلس الغرب والبلقان ، تمكن حزب الائتلاف في البرلمان من انتزاع السلطة من هؤلاء والفوا الوزارة برئاسة كامل باشا احد تلاميذ مدرسة السلطان عبد الحميد تلك المدرسة التي تقوم مبادؤها السياسية على قاعدة « فرق تسد » . وكان هذا الحزب خليطاً من عناصر مختلفة جمعتها عداوة الاتحاديين الذين اسفروا عن وجههم الطوراني ، وفي مقدمتهم نواب العرب . ولذلك فاني لم اتوقع له الحياة الطويلة وقد اعلنت ذلك وقتئذ بجريدة الرأي العام البيروتية داعياً الى وقف المشاحنات بين عرب وترك والتعاون على اساس المساواة .

وكان كامل باشا سياسياً محنكاً تولى الصدارة العظمى في العهد الحميدي اكثر من مرة ، فما ان ايقن بان فرنسا تتحفز للتدخل فعلاً في حل القضية السورية على هواها ، وما ان سمع مسيو بوانكاره يطالب بالحاح بوجوب المبادرة الى اجراء الاصلاحات في الولايات الاسيوية حتى خف الى اصدار اوامره الى والي بيروت ادهم بك على الوجه التالي: **« اجراء المذاكرات في مجلس الولاية العمومي من اجل الاصلاحات المطلوبة وتنظيم اللوائح القانونية . »**

وقد تلقى اهل بيروت هذا الخبر بفرح وسرور كما تتلقى الارض العطشى الماء . فخفوا لاستئناف الاجتماع على شكل مؤتمر لوضع المذكرة الاصلاحية المعلومة . وبذلوا المساعي لانشاء فروع لهذا

المؤتمر في البلاد العربية الاخرى على اساس تـأييد الحزب الائتلافي الحاكم .

غير ان الخلاف بين المؤتمرين لم يلبث ان برز للعيان منذ الجلسة الاولى . ذلك ان الفئة الموالية لفرنسا سرعان ما اعلنت رغبتها في التخلص من الحكم العثماني بينما كان المؤتمرون من غيرها يريد مجرد الاصلاح ، ويود ادراك حقوقهم كاملة على اساس اللامركزية دون الانفصال عن السلطنة .

وبينما هم كذلك إذ بالانباء تفاجئهم بخبر استرداد الاتحاديين الحكم من الائتلافيين وتأليفهم الوزارة برئاسة شوكت باشا الفاروقي العراقي ، وتفاجئهم ايضاً بان الوزارة الجديدة استهلت اعمالها باوامر اصدرها الحاج عادل بك وزير الداخلية الى والي بيروت حازم بك بوجوب استعمال الشدة من اجل القضاء على الحركة الاصلاحية على اعتبار **« ان الهيئة التي تألفت في بيروت لوضع المذكرة الاصلاحية لم تكن قانونية استناداً الى ان الفصل في هذه الامور يعود الى اختصاص المجلس النيابي وحده دون سواه . »**

غير ان هذه الاوامر جمعت شمل الاصلاحيين على اختلاف اهوائهم وجعلتهم يقابلونها بالتمرد حتى لم يبال هؤلاء بالحكم العرفي الذي اعلنه الوالي ، بل استأنفوا النضال علانية . وقد عقدت الجمعية الاصلاحية جلستها الثالثة في دار المجلس البلدي بحضور ستة وثمانين عضواً انتخبوا من قبل المجالس الملية ، واقرت اللائحة الاصلاحية ، وانتخبت لجنة تنفيذية ألقي على عاتقها تبعة تحقيقها .

وكان العراق يراقب باهتمام ما يجري في بيروت فاذا بطالب

النقيب يعقد اجتماعاً حافلاً في داره بالبصرة ، اشترك فيه كثيرون من زعماء العشائر فضلاً عن وجهاء آخرين من المدن الاخرى،واذا بالمجتمعين يصدرون لائحة اصلاحية لولاية البصرة .

اما في بغداد فقد شاء بعضهم ان يحذو حذو البصرة،بينما اراد آخرون منهم ان يتعاونوا مع اهل الشام؛ولكن الكلمة كانت مجمعة على طلب الحقوق ،فقامت هناك المظاهرات في اذار ١٩١٣ تحمل اللافتات وتدعو للثورة ضد الطغيان.حتى اذا جاء الخريف تم عقد اجتماع عام اتفق فيه على وضع لائحة اصلاحية على غرار لائحة بيروت. وما ان اقدمت جريدة المقتبس الدمشقية على نشرها حتى تعرضت للاقفال .

وكانت جريدة النهضة لمزاحم الباجهجي تحمل لواء المعارضة بمقالات نارية يردد الشعب صداها حتى اذا لجأت الحكومة لسياسة العنف وقبضت على عدد من الزعماء كان بينهم حمدي الباجهجي ويوسف السويدي .

على ان الاتحاديين ، وقد هالهم ما رأوه من صلابة العرب في معارضتهم ، لم يقفوا منهم موقف المصانعة ، بل استسلموا الى عواطفهم ، واسترسلوا في سياسة العسف . وفضلاً عن تشديدهم في اساليب التتريك فقد اقصوا الضباط العرب عن الولايات العربية ، ثم لما حان موعد الانتخابات للمجلس النيابي الجديد تدخلوا علناً في معاكسة العرب حتى لم يستطع هؤلاء ان يؤمنوا نجاح اكثر من خمسين نائباً بينما كان لهم في المجلس السابق المنحل سبعون نائباً .

والى هذا فان ضغط الاتحاديين على الجمعيات العربية ورجالاتها

العاملين في داخل السلطنة افضى الى تطور مجرى النضال القومي والى انتقال ادارة الحركة الاصلاحية من بيروت الى القاهرة حيث اضطلعت بها الجمعية اللامركزية .

بل اصبحت هذه الجمعية ، من بعد ، زعيمة القضية العربية ، ولاسيما حينما اندمجت بها الجمعية الثورية والجمعية اللبنانية ، وبايعها كل من المنتدى العربي في استامبول ، وجمعية الفتاة في باريس .

● المؤتمر العربي في باريس

شعر شباب جمعية « الفتاة » في باريس بان الوقت قد حان لتنسيق الاهداف العربية المشتتة التي كانت تتأرجح بين الاصلاح واللامركزية والاستقلال،وذلك ابان سفور الطورانية في السلطنة العثمانية ، وممارسة الاتحاديين سياسة الضغط . فاستقر رأيهم على الدعوة لمؤتمر في باريس يساهم فيه اركان الجالية المقيمون في عاصمة فرنسا ، وتشترك فيه بعض الامصار العربية العثمانية، ومهاجروها في اميركا .

وعلى هذا القصد تألفت لجنة تحضيرية قوامها عوني عبد الهادي وجميل مردم بك وشارل دباس وجميل المعلوف استهلت عملها بالاتصال بالجمعية اللامركزية في القاهرة . وقد رضيت هذه الجمعية بان تتبنّى المشروع ،فكان ذلك مما جعل فكرة اللامركزية تتغلب على كل فكرة اخرى في صدد هدف المؤتمر . وقد جاء في الدعوة الموجهة الى المؤتمرين « نصارح الدولة العثمانية بان اللامركزية قاعدة حياتنا، وان حياتنا اقوى حق من حقوقنا ، وان العرب شركاء في هذه المملكة ، شركاء في الحرية ، شركاء في السياسة . واما في داخلية

بلادهم فهم شركاء انفسهم . »

وفي حزيران ١٩١٣ كانت قاعة البلدية في باريس تغص بمندوبين من سوريا ولبنان وفلسطين فضلاً عن مهاجري اميركا وغيرهم . وترأس المؤتمر مندوب الجمعية اللامركزية السيد عبد الحميد الزهراوي . واختير شكري غانم نائباً للرئاسة وشارل دباس اميناً للسر .

واتخذ المؤتمر في نهايته قراراً اعلن فيه حق العرب في الاشتراك بادارة السلطنة على طريقة اللامركزية ، وايّد لائحة بيروت الاصلاحية .

ولكن جو باريس كشف الغطاء مرة اخرى عن اختلاف وجهات انظار المؤتمرين اشد منه في بيروت . ذلك انه بينما كانت الكثرة ترفض كل حل يقوم على اساس قبول الحماية الاجنبية كان فريق منهم يصر على التماس حماية فرنسا .

لذلك ، ونفياً لما شاع وذاع بان المؤتمر انما عقد بوحي فرنسا لخدمة امانيها تعمّد كل من عبد الحميد الزهراوي رئيس المؤتمر ، واحمد مختار بيهم احد مندوبي بيروت التصريح امام مسيو بيشون وزير خارجية فرنسا بانهما يتمسكان بعثمانيتهما ، وذلك حينما قابلاه للاعراب عن شكر المؤتمر للامة الافرنسية ولحكومتها على حفاوتها به .

وهذا الاختلاف في وجهات المؤتمرين افضى الى تسهيل مهمة احمد شكري بك الذي اوفدته حكومة استامبول للتفاهم معهم ، كما افضى الى انفضاض المؤتمر على وعود مجردة نالوها من الاتحاديين .

كان احمد شكري بك لا يرد للمؤتمرين مطلباً ، وقد رضي ان يوقع معهم على صك اتفاق هذا اهم ما جاء فيه :

- **ان تصبح اللغة العربية لغة التدريس في المدارس الحكومية**

بالبلاد العربية ، ولغة رسمية الى جانب اللغة التركية .

- **ان تمنح الولايات العربية شيئاً من الحكم الذاتي .**
- **ان يشترك ثلاثة وزراء من العرب في مجلس الوزراء .**

وسرعان ما وافقت حكومة الاتحاديين على هذا الصك ، واعلنت عزمها على تحقيقه ، فانفض المؤتمر وعاد الوافدون الى ادراجهم الى حيث يقطنون ، وهم بين ناقم على هذا الاتفاق ، وبين مغتر بما جاء فيه من وعود .

ولكن حكومة استامبول ، التي كانت تضمر غير ما تظهر ، اكتفت من بعد بتعيين خمسة اعضاء من العرب في مجلس الاعيان . ثم ما ان انتهت حرب البلقان ، وانتهى معها خوفها من المصير حتى راحت تتملص من الوعود ، وتعود لممارسة سياسة العنف .

وعلى هذه النية ولت على ولاية بيروت ، التي كانت مركزاً للانتفاضات العربية ، بكر سامي بك المعروف بصلابته ودهائه ، كما نصبت على العراق جاويد باشا الذي اشتهر بشدته في البانيا ، واسرّت اليه بقتل طالب باشا النقيب زعيم البصرة . ولكن هذا الزعيم كان اسبق الى اغتيال القائد ، فما أن وطأت قدماه ارض البصرة حتى لقي حتفه .

● استئناف النضال في سبيل الاستقلال

على ان نكول الاتحاديين عن تحقيق صك باريس بعد انتهاء حرب البلقان ، وامعانهم في سياسة العنف والتتريك حملا العرب على التحول الى سياسة النضال في سبيل الاستقلال بعد ان اظهروا في مناسبات عدة ، دون جدوى ، انهم من المخلصين للعرش العثماني .

وهكذا فان المنتدى العربي باستامبول الذي كان وسيطاً بين مؤتمري باريس وبين حكومة استامبول ، اخذ يتحول عن موقفه المعتدل الى صفوف المطالبين بالاستقلال ، كما ان جمعية العهد التي يتزعمها الفريق عزيز علي المصري شرعت تطالب بان لا تتعدى صلة البلاد العربية بالسلطنة صلة المجر بالنمسا ، بينما ان جمعية الفتـــاة الباريسية نشطت الى العمل على اساس الاستقلال التام ،هذا فضلا عن ان الجمعية القحطانية ، التي انشأها حقي العظم في القاهرة ،وذلك عقب تضعضع الجمعية اللامركزية هناك وانشقاقها ، واصلت رسالة الحكم الذاتي نابذة فكرة اللامركزية .

واما جمعية النهضة اللبنانية ومن كان على رأيها فقد طفقوا من ثم يتصلون بالافرنسيين لادراك هدفهم الذي لا يحيدون عنه ، واعني بذلك التخلص من النير التركي .

وشاءت الجمعية القحطانية بمصر ان تشد ازرها بحكام الجزيرة فاوفدت الى بعضهم من اوفدت ، وراسلت من راسلت ،وحذا حذوها طالب النقيب زعيم البصرة فشرع يفاوض امراء العرب ومشائخهم لعقد مؤتمر في الكويت .

ولكن كلاً من الجمعية القحطانية وطالب النقيب لم يلقيا في هذه المحاولة اكثر من الترحيب بفكرة المطالبة بالحكم الذاتي ، دون ان يتأتى لهما ادراك العمل الجدي ، وذلك لاختلاف المقاصد في جزيرة العرب ، وتباين الوجهات ؛ او بكلمة اصح لان الاستعداد لمثل هذا الهدف لم يكن قد تهيأ بين زعماء الجزيرة ، فضلاً عن ارتباط بعضهم بمعاهدات مع الاجانب .

ونادى منادي الحرب العالمية الاولى والعرب لا تجمعهم كتلة واحدة ، ولا يتفقون على هدف واحد ، ولذلك فقد خرجوا منها كما دخلوها اشتاتاً تظللهم الرايات الاجنبية ، بل خرجوا منهـا مجزئين رغم المحاولة الصريحة التي قام بها شريف مكة الملك حسين الهاشمي من اجل وحدتهم ، ولا بدع بذلك لان هذه المحاولة كان لها بين العرب انفسهم ناقدون ، ولاسيما بين الاوساط التي تنتمي الى الجامعة الاسلامية دون العربية .

● العرب خلال الحرب العالمية الاولى

نشبت الحرب العالمية الاولى والحالة بين الترك والعرب على ما وصفنا من التنابذ والتوتر : اولئك ماضون في سياستهم الطورانية . وهؤلاء مصرون على مبادئهم القومية الاستقلالية .

ولكن الحرب لم تلبث ان بدلت الموقف : فاذا بالاتحاديين ينقلبون ، بين ليلة وضحاها ، مذ دخلت تركيا الحرب الى جانب المانيا في ٢ تشرين الثاني سنة ١٩١٤ ، ينقلبون من حماة الطورانية الى دعاة للاتحاد الاسلامي .وهم في الواقع يضمرون غير ما يعلنون . واذا بجمال باشا قائد الجيش الرابع بدمشق يلبس قفازاً حريرياً منذ وصوله الى سوريا فيمد يده الى العرب متحبباً اليهم ،ويبالغ في هذه المصانعة الى حد انه ما كان يتورع عن ان يثير فيهم الحماس لقوميتهم وعروبتهم . واذا ببعض ادباء الترك يتحولون الى انصار للعرب فيطرونهم ويشيدون بفضلهم ويتعمدون تسفيه ما ذهب اليه زملاؤهم قبل الحرب من رفع جنكيز الى مصاف المنقذين .وكان بين هؤلاء سليمان نظيف الأديب المرموق ، وهو من الولاة

السابقين، فقد كتب سلسلة مقالات في مجلة الاجتهاد التركية في ١١ تموز و٥ ايلول سنة ١٩١٣ وقال ما يلي :

« ان جهاد عبد الرحمن الغافقي هو عندي اشرف واثمن من المذبحة الملعونة التي قام بها هولاكو في بغداد (سنة ٦٥٦ هـ = ١٢٥٨ م) .

« ان مليكنا ليس هو جنكيز خان بل عمر الفاروق، وان احط خليفة اموي هو خير من هولاكو واجداده : ذلك لان العرب هم الذين ارشدونا الى سواء السبيل ، وهم اساتذتنا الممدنون ، بل هم كل شيء بالنسبة لنا حتى اذا اعدنا للعرب ما اخذناه منهم فلا يبقى لدينا الا جبة ذات اكمام طويلة . »

غير ان السفاح جمال باشا ما ان اطمأن فيما بعد الى نتيجة الحرب، وتوهم بان النصر مضمون لدولته ولحلفائها حتى نزع هذا القفاز ، وكشف عن يد مجرمة، وعن قلب طافح بالحقد ، ثم ساق رجالات العرب دفعتين الى المشانق في بيروت ودمشق في سنتي ١٩١٥ و١٩١٦ ، كما ساق الى المنافي والسجون بعض الاسر والافراد ، بالاضافة الى تعمده اماتة لبنان بالمجاعة . وهو في كل ذلك يتستر بقرارات مجلس عسكري كان اقامه في عاليه ، ويستند الى ملفات القنصل الفرنسي السابق في بيروت جورج بيكو التي اكتشفت في القنصلية الفرنسية بعد نشوب الحرب ومغادرته بيروت . وقد اتهم الفرنسيون المرحوم فيليب زلزل الذي كان مستشاراً للقنصلية بانه هو الذي دلهم على مكان هذه الملفات ، ولذلك فقد نبذوه بعد دخولهم الى لبنان منتدبين بعد ان كان من اقرب المقربين .

وكانت جمعية « العربية الفتاة » التي الفها طلاب العرب بباريس قبيل الحرب قد انتقلت الى بيروت بعد عودة اركانها الى بلادهم ، ثم استقرت بدمشق خلال الحرب ، واشتد ازرها بمن دخلها من كبار القادة امثال ياسين باشا الهاشمي وعلي رضا باشا الركابي، فضلاً عن غيرهم من اعيان دمشق . فكان ذلك بالاضافة الى عسف الاتحاديين مما ساعد على انضمام الامير فيصل بن الحسين اليها . ولعل الاتحاديين كانوا قد اختاروا له الاقامة في سوريا ليكون بمثابة رهينة عندهم.

وكأنهم كانوا على علم بان بريطانيا العظمى كانت لا تفتأ، منذ اعلان تلك الحرب، تراود الشريف للانضمام الى الحلفاء بواسطة سير مكماهون ممثلها في مصر . وكان الشريف حسين يتردد في اول الامر ، ولكن ما ان رفض انور باشا شفاعته بمحكومي سنة ١٩١٦ ، وهم من رجالات العرب، واصر على صلبهم، كما رفض جمال باشا وساطة ابنه الامير فيصل حتى خرج شريف مكة عن تردده وقبل العروض والوعود التي وصلت اليها المفاوضات بينه وبين لندن .

كان ذلك في حزيران سنة ١٩١٦ . وهو تاريخ خروج القضية العربية من حيز الاماني القومية ، ومن نطاق النضال الداخلي، الى حيز السياسة العالمية والكفاح المسلح .

وقد شعر العرب في اكثر امصارهم منذ ذلك التاريخ بانهم في حالة حرب ضد تركيا . وكان ما كان بعدها من انتصار حلفاء العرب، ونكول هؤلاء ، واعلانهم الانتدابات والحمايات ، ومن زوال السلطنة العثمانية . ثم كان ما كان من نضال جديد للعرب في كل قطر من اقطارهم في سبيل الاستقلال .

● كفاح العرب عقب الحرب العالمية الاولى

كان بودنا الوقوف في الكلام على انتفاضات العرب عند هذا الحد كيلا نكرر ما اوردناه في الجزء الثاني من كتابنا « قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور » حيث افردنا لكل قطر من الاقطار العربية فصلا بسطنا فيه جهاد ذلك القطر في سبيل الاستقلال، سواء ما كان منها تحت الانتداب ام تحت الحماية ؛ ولكنا نرى من المفيد اختتام هذا الفصل بالمامة نشير فيها الى احداث العالم العربي ما بعد هذه الحرب حتى الآن وذلك بايراد بعض الخطوط الكبرى لمراحل القضية العربية الاخيرة .

كان الاستعمار قد بسط جناحيه تباعاً على العالم العربي في المشرق والمغرب خلال القرن التاسع عشر باحتلال الجزائر (١٨٣٠) فتونس (١٨٨١) فمصر (١٨٨٢) فليبيا (١٩١١) ثم مراكش (١٩١٢) ؛ وكان قد طوّق جزيرة العرب بالمستعمرات والمحميات من عدن الى الكويت . واما منطقة الهلال الخصيب والحجاز ونجد وما بينهما فكانت خلال ذلك جزءاً من السلطنة العثمانية . ولما نشبت الحرب العالمية الاولى علق العرب عليها الآمال المعسولة استناداً الى ما كان يكيل لهم الحلفاء من الوعود البراقة . ولكن ما ان وضعت الحرب اوزارها حتى استكملت دول الاستعمار اهدافها القديمة بتقسيم تركة السلطنة العثمانية فيما بينها على شكل جديد يسمى الانتداب . وما عدا الحجاز واليمن ونجد ، فقد جزأت بلاد العرب الى مناطق متعددة ترزح تحت اثقال انتدابات انكليزية وافرنسية .

احتفظ الانكليز بالعراق ثم ضموا اليه الموصل التي كانت من

نصيب فرنسا حين التقسيم ، واما بلاد الشام فقد جزأت الى ثلاثة اقسام :

- فلسطين — انتداب انكليزي ومعها شرق الاردن .
- سوريا — انتداب افرنسي بعد القضاء على مملكة فيصل بن الحسين .
- لبنان — انتداب افرنسي قامت في عاصمته المفوضية الافرنسية وكانت مرجع سوريا الداخلية والساحلية .

وهذا التقسيم في عهد الاحتلال ارجع القضية العربية الى الوراء مراحل كثيرة اذ جعل كل قطر من هذه الاقطار يناضل على حدة عن استقلاله بعد ان كان النضال العربي شاملا يدور على محور الامبراطورية العربية ، ولاسيما خلال الحرب العالمية الاولى ، ويبني القصور على اسس وحدة كاملة .

لذلك فان انتفاضات العرب في المشرق والمغرب اخذت تبدو من بعد موضعية قوامها ثورات اخذت برقاب بعضها البعض منذ سنة ١٩١٩ . وهذه اهمها :

- ثورة مصر على الانكليز ١٩١٩
- ثورة ليبيا على ايطاليا ١٩١٩
- ثورة العراق على الانكليز ١٩٢٠ = ١٩٢١
- ثورة تونس على فرنسا ١٩٢١ = ١٩٥٤ = ١٩٥٥ = ١٩٥٦
- ثورة الريف المراكشي على اسبانيا ١٩٢٥
- ثورة سوريا على فرنسا ١٩٢٥ = ١٩٢٦ = ١٩٢٧
- ثورة فلسطين على الانكليز ١٩٢٩ = ١٩٣٦ = ١٩٣٧
- ثورة مراكش على فرنسا ١٩٥٤ = ١٩٥٥ = ١٩٥٦
- ثورة الجزائر على فرنسا ١٩٥٠ = ١٩٥٦ ولا تزال

• ثورة المحميات على انكلترا ١٩٥٥ = ١٩٥٦

وقد انتهت هذه الثورات بالانتصار تباعاً على الاستعمار في كل الامصار العربية ، وفي عدادها شرقي الاردن، وتمتعت هذه الامصار بالاستقلال ما عدا الجزائر التي لا تزال تجاهد منذ سنتين ونصف السنة تقريباً لانتزاع استقلالها ، وما عدا المحميات الانكليزية التي شرعت تنتفض تباعاً في كل ناحية.

على ان النضال العربي وان بدا بعد الحرب العالمية الاولى على شكل نضال محلي الا ان هدف العرب الاسمى ظل يتجلى من ورائه ، ولاسيما مذ وحدت فلسطين حولها كلمة العرب وتوالت المؤتمرات من اجل الدفاع عنها . والبادرة الاولى من حيث وحدة الهدف العربي برزت من قبل الدولتين اللتين احتفظتا باستقلالهما ، واعني بهما المملكة العربية السعودية والمملكة اليمنية . فما ان لفظت الحرب انفاسها، تلك الحرب التي نشبت بينهما سنة ١٩٣٤ ، حتى خف الفريقان الى وضع معاهدة صداقة واخوة عربية كانت اولى المعاهدات التي وضعت قواعد عامة لسياسة عربية . وقد جاء في المادة السادسة عشرة منها ما يأتي :

« **يعلن الفريقان الساميان المتعاقدان اللذان تجمعهما روابط الاخوة الاسلامية والعنصرية العربية ان امتهما امة واحدة ، وانهما لا يريدان باحد شراً ، وانهما يعملان جهدهما لاجل ترقية شؤون امتهما في ظل الطمأنينة والسكون .** »

وتلت ذلك خطوة اخرى جريئة موفقة حينما عقدت معاهدة « اخوة عربية وتحالف » بين المملكة العربية السعودية وبين العراق

سنة ١٩٣٦ ؛ فقد استهلت تلك المعاهدة بمقدمة ورد فيها : « **بناء على الروابط الاسلامية والوحدة القومية التي تجمع الفريقين** » . وقد انضمت اليمن الى هذه المعاهدة في عام ١٩٣٧ .

ثم لما احرزت البلاد العربية الاخرى استقلالها تباعاً نحت هذا النحو في وضع المعاهدات بينها ، بيد انها صارت تقوم من بعد على اساس قومي فحسب ، وما كاد يطل يوم ٢٢ اذار ١٩٤٥ حتى كان مولد « جامعة الدول العربية » وهي وان لم تحقق اماني الشعوب العربية في الوحدة الكاملة الا انها جاءت اساساً لها ، وخطوة اولى في سبيل تأمين هذه الاماني .

ونحن جد مغتبطين لان الله مد في اجلنا حتى شاهدنا قومنا يحرزون استقلالهم في المشرق والمغرب، وان الازمات التي واجهتهم في الآونة الاخيرة، واهمها ما وقع حول حلف بغداد من انقسامات، افضت الى توثيق الروابط فيما بين اكثر بلادهم توثيقاً اخذ يسير بهم في طريق الوحدة المنشودة . واني لارجو ان تصبح هذه الوحدة كاملة شاملة بين ليلة وضحاها ؛ وان ارى الاعلام العربية خفاقة فوق فلسطين المغتصبة حتى لا تبقى هناك شوكة تدمي قلب العروبة، أو رقعة في ثوبها لا تشين منظره فحسب بل تقوم فاصلا بين شطريه الشرقي والغربي . وما ذلك على أولي العزم بعسير .

الفصل الحادي عشر

تطور الاتجاهات في تاريخ الجمهورية التركية

●

خسرت تركيا مع حليفتها المانيا الحرب العالمية الاولى ، وامست بعد انتصار الحلفاء تترقب مصيرها وفقاً لارادة المنتصرين ومشيئتهم ، وهي جد قلقة لهذا المصير . وعلى انتظار اتفاق هؤلاء نهائياً على اقتسام التركة احتلت بريطانيا العظمى استامبول، واذنت لليونان ربيبتها بان تحتل ازمير وما حولها، كما استولت فرنسا على كيليكيا .

وكانت بريطانيا تحرص وقتئذ على ان لا تتزحزح عن دار السعادة خشية ان تلتهمها روسيا التي ما زالت ترنو اليها، وتطمع بها.

وكان الشعب التركي خافض الرأس لا يبدي ولا يعيد منتظراً قرار الحلفاء في شأن مصيره ، بينما كان سلطانه محمد السادس (١٩١٨ — ١٩٢٢) كحبيس في قفص ليس له من الامر شيء ، واذا استرسل في التمني فانما كان يتمنى ان يبقى سليما على عرشه شأن المستعصم الخليفة العباسي حينما هدد هولاكو مملكته ، واحاط ببغداد .

غير ان امراً واحداً اثار ثورة الترك في سنة ١٩١٩ ، وكان بالتالي حافزاً لهم على الوثوب، وحافظاً بلادهم من التقسيم المنتظر . واعني

بذلك احتلال اليونان ازمير وما حولها من الاناضول . اليونان تلك الدويلة التي كانت في الامس ايالة من ايالاتهم تجتزىء قسماً من مملكتهم، وتنتقم من المعاصرين عن خطيئات الغابرين. هذا لن يكون ابداً وهو ليس بالامر المحمول.

ومن هذه العواطف الثائرة، ومن هذا الالم والخوف على المصير انبثق مصطفى كمال باشا ، ورفع صوته منادياً الى انقاذ الوطن ، فلبته نخبة من قومه ما كانوا دونه ألماً وتحمساً ، وعقدوا الجمعية الوطنية العمومية (١٩٢٠) التي قررت تجنيد جيش منظم يوكل اليه انقاذ الاناضول واجلاء اليونان عن ازمير .

وهنا خفت بريطانيا للعمل بغية الحفاظ على سلامة حليفتها اليونان في بلاد احتلتها فاستصدرت من السلطان الحبيس في استامبول منشوراً اذاعته يعتبر الكماليين ثواراً . غير ان مصطفى كمالاً وصحبه لم يفت في عضدهم هذا المنشور، ولم يأبهوا لاستخفاف الناس بهم ، وانما حملوا على اليونان رجالاً ونساء ، وابلوا البلاء الحسن حتى اجلوها قسراً عن بلادهم في سنة ١٩٢١ .

وحينئذ اتجهت الانظار الى الجمعية الوطنية في انقره، واصبحت تمثل الشعب التركي الطامح للاستقلال ، وحينئذ انقلبت السخرية منها الى اعجاب وتقدير وآمال .

● عهد مصطفى كمال الاسلامي المتعصب

تنادى مصطفى كمال وصحبه الى انقاذ الوطن والى انقاذ الكرامة والشرف ، ولم تكن لديهم قوة غير قوة الارادة وقوة الشعب . اما الارادة فقد توفرت لديهم ، واما الشعب فكان ينقصه في محنته

وكبته الحافز القوي كيما يساهم معهم في هذه الارادة والجرأة ،
وان يثق بهم فيلتف حولهم ويمدهم بقوته .

وكيف السبيل الى ذلك ؟..

هل ينادونه بلسان احمد اغاييف واقشورا اوغلي يوسف واضعي مشروع الطورانية ؟ ام يخاطبونه بلغة السلطان عبد الحميد واضع اسس الجامعة الاسلامية في العصر الاخير ؟.

واما وان الطورانية كانت قد لفظت انفاسها بعد قضاء الحرب العالمية الاولى على دعاتها الاتحاديين، ولم يبق منها الا مخلفات قليلة لا تتعدى نطاق بعض الشباب المثقف، واما وان سواد الشعب لم يكن يتحسس كل التحسس بغير الاسلام ، ولا يفهم الا بلغة الدين لذلك ما وسع مصطفى كمال وصحبه حينما اذن مؤذنهم : «حيَّ على انقاذ الوطن حيَّ على تطهير البلاد وانقاذ الشرف» ماوسعهم الا ان يجعلوا طابع هذا الاذان طابعاً روحياً اسلامياً، فتلبسوا بالدين حتى ان مصطفى كمالاً ظهر في ابان الثورة بزي رجال الدين ، ولا تزال توجد رسوم له في احد جوامع انقره بلباس (خوجة) .

وظلوا يحافظون على هذا الطابع في السنين الاولى من الانتصار.

فكانوا لا يقتصرون على المساهمة مع الشعب في ارتياد المساجد وممارسة الصلوات فحسب، بل يقبلون ايضاً على استماع قراءة المولد الشريف، وعلى الاحتفالات الدينية ، ولا سيما في المواسم والاعياد ، هذا فضلاً عن منع الخمور ومكافحة الفجور .

واتقاناً لتمثيل هذه الرواية استقدم مصطفى كمال السيد احمداً السنوسي الكبير ، وقربه اليه واتخذه ستاراً لهذه التمثيلية .

● عهد اتاتورك العلماني المتطرف

شاء مصطفى كمال بعد احرازه الظفر ان تكون الجمعية الوطنية التي يرأسها هي التي تمثل بني قومه وحدها دون استامبول المحتلة ، وهو في ذلك كان لا يفتأ يبرىء نفسه من المطامع السياسية، ويصرح بانه سوف يلجأ الى مزرعة له يقضي فيها بقية حياته معتزلاً متى استكمل المهمة التي اخذها على عاتقه .

والواقع انه ما ان استتب له الامر وتمكن من بسط سلطته على استامبول حتى خف في سنة ١٩٢٣ ، لاسقاط السلطان محمد السادس عن عرشه وبايع السلطان عبد المجيد ، ثم لم يمهل هذا اكثر من نحو سنة ، بل عمد الى خلعه ايضاً، والغى الخلافة بالاضافة الى القضاء على السلطنة سنة ١٩٢٤ .

وقد كان يمهد الى ذلك بحملات يشنها على آل عثمان يستعرض فيها سيئاتهم ، وبحملات على الخلافة كان يدلل فيها على الاضرار التي جلبتها للسلطنة . وهو في ذلك لا يفتأ يورد كلاماً يشير ضمناً الى ان حكومة المجلس الوطني الكبير قامت على انقاض السلطنة العثمانية .

ففي مؤتمر ازمير الاقتصادي سنة ١٩٢٣ تطرق ، بعد اشباع هذه السلطنة بالانتقاد ، الى القول :« **ان اولئك الملوك افقروا الدولة واستأثروا بجميع مواردها لتنفق على شهواتهم حتى تركوها خاوية الوفاض .** »

ثم لم يكتف باعتبار انقره عاصمة للدولة بدلاً من دار السعادة وبتأليف المجلس الوطني الكبير الذي اختاره رئيساً ، بل تدخل لتغليب حزبه ،حزب الشعب، على غيره اثناء الانتخابات حتى اذن

عقد المجلس النيابي اعلن الجمهورية وانتخبه المجلس ايضاً رئيساً لها. ومنذ ذلك اسفر مصطفى كمال عن وجهه الحقيقي وشرع يوجه الدولة الجديدة شطر العلمانية التي يؤمن بها .

ولقد استهل مصطفى كمال عهده بترجمة القرآن الكريم الى اللغة التركية، وبالغاء وزارة الاوقاف الاسلامية ونظام الوقف والمحاكم الشرعية وقوانينها، ثم عمد إلى رفع الحجاب، والغاء تعدد الزوجات، وامر بالغاء الطرق الصوفية والتكايا وبمصادرة اموالها، وباخلاء جامع ايا صوفيا واعداده في مصاف الآثار القديمة .

ثم والى اعماله التجديدية فمنع الطربوش ودعا الى استبداله بالقبعة (١٩٢٥)، وعدل الدستور كما تحذف منه العبارة التي تنص على ان الاسلام دين الدولة (١٩٢٨)، والغى تدريس العلوم الدينية (١٩٢٩)، وادخل الى الجوامع تلاوة القرآن بالتركية، وحول الآذان الى هذه اللغة (١٩٣٢)، ورفع من برنامج جامعة استامبول القسم الديني، (١٩٣٣)، وحظر على رجال الدين الاستمرار على التزيي بلباسهم القديم (١٩٣٤) .

هذا فضلًا عن اعلانه المساواة التامة بين الرجل والمرأة في الحقوق السياسية، واصداره قانون العائلة الذي يساوي ايضاً بينهما في الحقوق الاجتماعية، وفي عدادها الميراث، بالاضافة الى تبديله الحروف العربية بالحروف اللاتينية، وحمله الشعب على تغيير اسمائهم وكناهم باسماء وكنى ترجع الى الطورانية وذلك اسوة به إذ اسمى نفسه « اتاتورك » عوضاً عن مصطفى كمال .

وهو خلال ذلك اطلق الحرية الفكرية حيال الدين، فشجع بعض

الترك على التعرض له علانية، وعلى انتقاصه، جرياً على قاعدة العلماء الجماعين **Les encycylopedistes** اثناء الثورة الافرنسية. نذكر من هؤلاء احمد اغاييف: فقد كتب مقالاً في جريدة اقتشام، خلال سنة ١٩٣٣، ندد فيه بالقرآن، وسفه الاسلام .

ثم لم يكتف اتاتورك بكل ذلك اعلاناً لعلمانية الجمهورية التركية بل شاء، حين عاد لتعديل الدستور في سنة ١٩٣٧، ان يأتي فيه نص صريح على علمانية الدولة .

كل ذلك جعل اتاتورك بنظر المسلمين مارقاً من الدين، ولكن بعض المراقبين، ولا سيما الاجانب، كانوا يبرأون ساحته من هذه التهمة، ويزعمون انه اراد الاصلاح فحسب . ومن اولئك شيريل سفير الولايات المتحدة وقتئذ لدى الجمهورية التركية. فقد الف كتاباً عن مصطفى كمال قال فيه :

« ولا بد لي من دحض المفتريات التي ترمي الى تصوير مصطفى كمال بصورة الكافر والعدو للدين والتأكيد بان الرجل مؤمن بالله وانه يرى من واجبات الانسان ان يؤمن به ويتجه بقلبه اليه ويدعوه ويستعين به. إلا انه لا يرى ضرورة لان يتخذ هذا الدعاء وهذه الاستعانة شكل صلوات مقررة في صيغة معينة.»

كما ان الرئيس بايرد دودج رئيس الجـامعة الاميركية في بيروت الاسبق علق على هذه التصرفات التي يعتبرها المسلمون خروجا عن الدين بقوله : (١)

(١) من محاضرة له في المؤتمر السنوي الخامس لمعهد الشرق الاوسط في واشنطن آذار ١٩٥١

«قال سائر المسلمين ان الاتراك هجروا الاسلام لانهم نبذوا الشريعة التي تمثل الاسلام . اما الاتراك فكانوا يردون على ذلك بقولهم : لا ، وانما نحن غيرنا تفسير الاسلام ، وسنحتفظ به على وجه آخر . »

وكذلك فان بعض المسلمين من غير الاتراك التمسوا لمصطفى كمال عذراً فيما فعل ، ومنهم حسن الشريف الذي حاول الدفاع عنه بمقال له صدر في عدد الهلال الممتاز سنة ١٩٣٩ نكتفي بالاشارة اليه .

● عهد عصمت اينونو المخضرم

منيت السلطنة العثمانية في اواخر ايامها بالحركة الطورانية ، وكانت حركة قومية ليس المقصود منها محاربة الاسلام وانما العدول عن الجامعة الاسلامية الى القومية التركية . ولكن الطورانية لم تستطع ، مع ذلك ، ان تدوم لان ظروفاً سياسية عرضت خلال الحرب العالمية الاولى ، وابان الثورة الكمالية ، جعلت المسؤولين يوقنون بانهم في حاجة للاستعانة بجامعة الاسلام .

ولما افضت السلطة الى الكماليين فرغم ان تعصبهم لقوميتهم حملهم على العودة الى اتخاذ الذئب الاغبر رمزاً لهم ، وهو رمزهم في بداوتهم ، ورغم انهم رجعوا الى الطورانية في اختيار اسمائهم ، الا انهم اجتنبوا اثارة موضوع الجامعتين الاسلامية والطورانية على السواء ، ومضوا بجرأة لتطبيق السياسة العلمانية متوخين بذلك الحظوى بثقة اوروبا على امل السلامة من شر الصراع القائم بين الشرق والغرب .

وان من يقرأ مادونته مختصراً في هذا الفصل عنهم ، او يتتبع

ما كتب غيري مطولاً في صدد تصرفاتهم التي اقل ما يقال في وصفها انها بدع لا تتفق مع الاسلام ، لا يسعه الا ان يتوهم بان الاتراك خرجوا عن الاسلام .

وهذا ما كان يتراءى لي قبل ان اتيحت لي زيارة تركيا الحديثة في صيف عام ١٩٥٥ . غير ان الخُبر جاء منافياً للخبر اذ استبان لي ان العلمانية ما استطاعت ان تزيح الاسلام هناك لتحل محله ، كما ان الطورانية ما كان بوسعها ، من قبل ، ان تفصل الاتراك عن الجامعة الاسلامية .

هذا وكنت عائداً من الاميركتين في سنة ١٩٣٩ قبيل الحرب العالمية الثانية وذلك اثناء ما خلف عصمت اينونو اتاتورك على رئاسة الجمهورية . ومع علمي بما حدث في تركيا حينئذ من جنوح السياسة الى حظيرة الاسلام بعد وفاة اتاتورك فقد احببت ان اسمع رأي سيدة ارمنية كانت تستقل معنا الباخرة «كنتي دوسافوي» وهي تحسبني على دينها ، فاذا بها تترحم على عهد اتاتورك وتشكو من العهد الذي خلفه على انه ليس علمانياً الا بالاسم .

والواقع انه ما ان مات اتاتورك حتى اخذت السفينة تتحول تدريجياً في مجراها ومرساها شطر الاسلام بتأثير مبادئه الراسخة في اعماق قلوب الشعب ، تلك المبادىء التي لم تتبدل الا في الناحية السياسية ، ولم تتغير الا في المظاهر .

ولكن حكومة عصمت اينونو لم يكن بوسعها ، مع ذلك ، ان تقوم بانقلاب ثان فجائي يعود بها الى حيث كانت السلطنة في ارتكازها على الشريعة الاسلامية ، ذلك لان دستوراً وقوانين اصبحت قائمة

هناك ، لها انصار ، ولاسيما بين الشباب الذين نشأوا فيما بين الحربين العالميتين ، كانت تحول دون تحقيق مثل هذا الانقلاب خشية ارتجاج لا تحمد عقباه ، خصوصاً وان القدسية التي اكتسبها مصطفى كمال من جراء انقاذه تركيا لم يكن يتمتع بها خلفه عصمت اينونو رغم انه كان شريكه في مهمة الانقاذ وساعده الايمن .

ومع ذلك ما وسع الرئيس عصمت اينونو الا ان يساير الرأي العام في بعض امانيه ، وعلى رأسها اعادة تعليم الدين الى المدارس في غير ساعات الدراسات على اساس ان يقتصر ذلك على الصفين الرابع والخامس للطلاب الذين يبرزون رسائل من ابائهم تظهر موافقتهم على هذه الدراسة .

فكان عهده بمثابة فتح ثغرة في صرح العلمانية القائمة ينفذ منها الاسلام الى جهاز الحكم تلبية لارادة شعب لا يزال الدين مستقراً في قلبه ونفسه استقرار تقاليده واخلاقه .

غير ان سياسة الدولة في الناحية القومية الطورانية ظلت مرعية على ما كانت عليه من قبل . فقد سمعت السيد حسن قبلان وهو من كبار القضاة اللبنانيين يروي في جلسة من جلسات « حلقة دراسات مفاهيم الحرية » التي عقدت ببيروت في ٢٤ ايار ١٩٥٦ ويقول انه اثناء وجوده في تركيا شاهد كتيباً مدرسياً ورد فيه ان آدم وحواء كانا تركيين . ولما سأل احد الوزراء عما اذا كانت الحكومة تجيز تدريس هذه الاسطورة اجابه الوزير بالايجاب معللاً ذلك بانهم يريدون ان يؤمن الشعب بهذا الاعتقاد .

● عهد جلال بايار المعتدل

كنا في سنة ١٩٤٦ نستجم في مزرعتنا « حوش الصالحية » على مقربة من دمشق ، وذلك اثناء الانتخابات النيابية في تركيا التي انتهت بفوز الحزب الديموقراطي على حزب الشعب .

وكانت تضيفنا ، خلال هذه النزهة الريفية ، سيدة تركية من اعضاء الحزب الفائز ، كانت قبل ظهور نتيجة الانتخابات يائسة من النجاح لان حزب الشعب هو حزب اتاتورك في حياته ، كما هو حزب عصمت اينونو الذي خلفه على الحكم ، فضلاً عن ان مقاليد السلطة كانت خلال ذلك في قبضة يده .

وكم كانت دهشتنا عظيمة حينما ظهرت لنا ، عقب اعلان نتيجة الانتخابات ، ان الفوز كان حليف حزب الرئيس الحالي جلال بايار دون حزب الشعب ، خلافاً لما كانت تتوقعه هذه السيدة .

وعلى قدر هذه الدهشة كنا نشتهي ان نستجلي سبب هذه المفاجأة ، ولكن انّى لنا ذلك والسيدة لم يكن بوسعها ان تعلل هذه الاحجية لانها بعيدة عن المعركة .

ثم اتى على ذلك حين من الدهر دون ان تتاح لنا فرصة لكشف الغطاء عن هذا المعمى ، حتى اذا زرنا تركيا منذ عامين ، كما زرنا اليونان ، زيارة لا تقتصر على النزهة والسياحة وانما تتوخى الدراسة ، تجلى لنا حينئذ السر الذي كانت تتوق نفوسنا الى رفع الحجاب عن وجهه .

فقد علمنا اخيراً ان فوز الحزب الديموقراطي يرجع ، على الاكثر ، الى وعد قطعه هذا الحزب على نفسه وادرجه في برنامجه الانتخابي مفاده انه اذا تولى الحكم سيعيد الآذان الى اللغة العربية ، وسيرفع الحظر على الراغبين في الحج ، كما انه سيرجع الى المدارس

التعليم الديني سيرته الاولى. هذا فضلاً عن المحافظة على عروبة القرآن.

فجاء هذا الوعد برداً وسلاماً على قلوب شعب ملتهبة، وعلى نفوس كانت مكبوتة، ثم كان في التالي من اسباب نجاح الحزب الديموقراطي في الانتخابات.

وكان هذا بمثابة استفتاء شعبي، ان دل على شيء فهو يدل على ان الاتراك كانوا على غير رأي اتاتورك وخلفه عصمت اينونو في صدد تأييد النظام العلماني، وان ممارسة هذا النظام مدة تناهز ربع قرن لم تستطع ان تقضي على نزعتهم الاسلامية.

بلى وان هذه المحاولة التي قام بها اتاتورك لم تكن المحاولة الاولى في التاريخ: فقد سبق لهنري الثامن ملك انكلترا (١٤٩١ - ١٥٤٧) ان قام بمحاولة مثلها، ثم لم تقره بريطانيا العظمى عليها، كما ان رضا خان شاه فارس المعاصر لاتاتورك جرب ان يقلده في اختيار هذا النظام فجنى على نفسه، وكان مصيره القتل، ثم كان مصير الايرانيين في عهد ابنه الرجوع بسرعة الى العناية بالدين.

وبعد فماذا حمل الاتراك اذن على الرضوخ الى اتاتورك على ما هو معروف عنهم من التعصب للدين؟

من المعلوم ان ثورة نشبت في سنة ١٩٢٥ ضد مصطفى كمال تزعمها بعض رجال الدين، واضطلع بها اكراد من رعايا تركيا فقوبلت بالقوة والعنف، وكانت من ثم درساً للذين تراودهم انفسهم الوقوف موقف المعارضة.

يضاف الى ذلك ان الهالة القدسية التي اصبحت تحيط بالغازي اتاتورك مذ توفق في تطهير البلاد من الاجانب وانقاذ تركيا من

حالة الاحتضار، ان هذه الهالة اصبحت له درعاً متيناً تقيه من شر الانتقاض. ويبدو ان هذه الهالة ما زالت تحف به حتى الآن رغم ان سواد الشعب لا يقر في نفسه البدع التي ارتكبها هذا المنقذ.

فعدا ما لمسته في تركيا من آيات التقديس التي لا تزال تحيط باسمه فقد شهدت بنفسي امثولة رائعة من تعلق الشعب به: ذلك انه لما انتهى بي المطاف في قصر طوله بغجه الى الغرفة التي مات فيها اتاتورك، حيث اوقف عقرب الساعة، الموضوعة على منضدة هناك، عند الساعة التاسعة والربع حين اسلم الروح، رأيت شاباً تركياً كان يرافقنا وهو يسترسل في البكاء. ولما سألته عن سبب بكائه قال لي: «وكيف لا ابكي وهنا في هذه الغرفة المتواضعة قضى نحبه منقذ تركيا العظيم؟».

اذن فان خوف الشعب من بطش اتاتورك بالاضافة الى تقديسهم اياه حمل عامة الاتراك على الرضوخ لاوامره العلمانية رغم انكارهم لها. وظل هذا الكبت النفسي قائماً في عهد خلفه عصمت اينونو بقوة الاستمرار رغم الجنوح الذي بدا منه في صدد تخفيف حدة العلمانية، حتى اذا تأهب الحزب الديموقراطي لمناجزة حزب الشعب ولانتزاع مقاليد الحكم منه استعان على ذلك بمراعاة اماني الكثرة الساحقة فقدر له الفوز. فاز الحزب الديموقراطي في تركيا قبل عشر سنين ونيف وكان فوزه منبثقاً عن روح الشعب المتمسك بالاحكام الاسلامية. وما ان اضطلع بمقاليد الاحكام حتى برّ بوعده لناخبيه: فاعاد دروس الدين الى المدارس، وسمح بالحج لمن شاء؛ وافسح المجال للرجوع الى القرآن بالعربية، واعاد الآذان ايضاً الى العربية،

وترك الحرية للنساء في صدد ممارسة الحجاب على النحو الذي يبتغين.
ورغم انه لم يعد جامع ايا صوفيا الى ما كان عليه في العهد العثماني، مخصصاً كله للصلاة الا انه احتفظ بصدره للمصلين المسلمين . وهو فضلًا عن ذلك عدل منهاج اتاتورك وحزبه في صدد اظهار تركيا امام العالم الغربي على مظهر يتجافى مع الاسلام ، فلم يتورع عن ان تتمثل بلاده في معرض برشلونة برمز اسلامي ، وذلك بتشييده الجناح التركي على شكل مسجد .

ثم لما عقد المؤتمر الاسلامي العام في كراتشي سنة ١٩٥١ خفت تركيا الى الاشتراك فيه ، وكان يمثلها وفد محترم اثنان منه يحسنان اللغة العربية كابنائها احدهما رئيس الوفد الاستاذ المرحوم عمر رضا طوغرول نائب قونية ، والآخر الاستاذ علي وصفي عطا خان من محامي انقرة .

واذ كنت عضواً في وفد لبنان الى هذا المؤتمر ورئيساً له اتيح لي ان اشاهد عن كثب عناية الوفد التركي بالشؤون الاسلامية ، وان المس منه الرغبة الشديدة في توثيق العلاقات بين العرب والترك . كما اتيح لي ان اراقب المكانة الممتازة التي كان يحتلها الوفد بين الوفود عموماً ، وعند الحكومة الباكستانية خصوصاً .

على ان الحزب الديموقراطي وان عدل عن خطة اتاتورك في هذه النواحي الدينية الا انه لم يتعرض الى الامور الاجتماعية التي وضعها الغازي في صلب الدستور والقوانين كالمساواة التامة بين الجنسين ، ولا الى حروف اللغة اللاتينية ، وكان يساعده في الحفاظ على ذلك استساغة الشعب لها بتأثير مرور الزمن ، هذا فضلاً عن

ان الشريعة الاسلامية ، التي نصت على تبدل الاحكام بتبدل الازمان ، لا تشدد في صدد الحقوق الاجتماعية تشددها في الايمان والعقيدة .

ولهذه الاسباب ساغ لنا ان نعتبر عهد الحزب الديموقراطي عهداً معتدلاً ، بل يسوغ لنا ان نعتبره ، فوق ذلك ، عهد اتزان ، اذ انه وان لم يتعرض بسوء الى الاصلاحات الاجتماعية التي وضعها اتاتورك ، ولكنه لم يحظر على الشعب ممارسته الشعائر الاسلامية التي يألفها .

الفصل الثاني عشر

الجمهورية التركية حيال الاديان والعناصر
– الاسلام بين المحافظين والمجددين –

•

• المحافظون بي تركيا اشد تعصباً للاسلام من غيرهم

• كنت في الفندق ببورصة اصغي للراديو طروباً للالحان الشجية والموسيقى الناعمة فاذا بي افاجأ بوقف الاذاعة فما تمالكت عن الاعراب لخادم الفندق عن اسفي لهذه المفاجأة . فاعلمني انهم انما فعلوا ذلك لان المؤذن في المسجد المجاور ، مسجد مراد خداوندكار ، يقوم بالآذان للصلاة ، وان الاذاعة ستستأنف عقب نهاية الآذان . فارتحت لهذا الخبر ، وقلت بنفسي حبذا لو يبلغ احترام الشعائر الدينية هذا الحد في كل البلاد العربية .

وتلاقيت في ساحة جامع محمد الفاتح باناضولي يسأل عن قبر هذا السلطان كي يقرأ على روحه الفاتحة ويتبرك به ، كما تطلب البركة من الاولياء والقديسين . وما ان عرف انني عربي و مسلم حتى اخذته الحيرة كيف يعرب عن شعوره نحوي ، ثم ما وجد سبيلاً الى ذلك يعبر به عن احاسيسه غير ترديده قوله : « اخو ان اخوان » باللغة العربية .

واعترضتني عجوز في جامع السلطان احمد جاءت للصلاة وسألتني عما اذا أذّن المؤذن ، ثم ما ان علمت باني عربي حتى رحبت بي بسرور ، وبادرتني بتلاوة الآية « انما المؤمنون اخوة . »

وكان في المسجد شبان ينتحون ناحية منه ويقرأون القرآن فتهتز اجسامهم على التوالي مع القراءة . فشاقني ان اعرف ، وانا بعيد عنهم ، ان كانوا يتلون القرآن باللغة العربية ، فاعترضت فتى يافعاً كان يتجه اليهم وسألته عن ذلك ، فاظهر عجبه من هذا السؤال ، واكد لي انهم يتلون القرآن باللغة التركية .

ولكن هذا العجب لم يلبث ان تقمّص فيّ حينما طفت حول هؤلاء القراء فوجدتهم كلهم ، وفي جملتهم ذلك الفتى ، يستقبلون مصاحف عربية دون غيرها : وطفقت اعلل السبب فيما زعم محدثي انها مصاحف تركية ، وقال ذلك وهو جاد غير هازل . ثم لم اجد حلاً لهذا المعمى الا ان اعتقد ان حرص هذا الفتى على اعتبار القرآن قرآنهم حمله على التوهم بانه تركي استناداً الى حسبانه ان التركية والاسلام جزء لا يتجزأ . على ان هذا التقدير ، على فرض صحته ، وان كان يشير الى البساطة فهو يدل على مقدار تعصبهم للاسلام .

والى هذا فلم تكن المساجد حافلة بالرجال فحسب حتى في غير اوقات الصلاة ، بل كنت كلما دخلت جامعاً اجد النساء معتكفات خاشعات في حجرات خاصة يرتلن الآيات ، او يقرأن الاوراد . وقد لفت نظري مرة صبية جميلة على احسن ما تكون من اللباس الحديث تدخل جامع السلطان احمد . فاذا بها تخلع نعليها وتحتذي نعلاً كان في حقيبتها ، وتغطي رأسها بمنديل ، ثم تجلس منفردة في زاوية احدى

تلك الحجرات .

فتساءلت عن شأن هذه الصبية الجميلة في المسجد ، وساورتني الظنون ، ولكني ما ان اقتربت منها حينما هممت بمغادرة المسجد حتى رأيتها غارقة في التسبيح تقلب بين يديها مسبحة طويلة ، وكأنها تتلو ورداً من الاوراد ، فواخذت نفسي وقلت : « ان بعض الظن اثم . »

والواقع ان هذه المظاهر الاسلامية البارزة كانت تبدو لي سافرة ليس في محيط المساجد فحسب ، بل في كل مكان .

● فكم رأيت بعض المارة في الشوارع ، من رجال ونساء ، يتوقفون عند المزارات لقراءة الفاتحة والادعية ؟

● زرت يالوا للاستحمام في مياهها المعدنية ولقضاء بعض الايام في رحابها الجميلة التي تكاد تكون قطعة من الجنان . ويالوا هي في الجانب الاسيوي بين بورصة واستامبول . وكم راق لي حينما هبطت المرفأ الموصل اليها ان ارى على كل « اوتوبيس » من عرباتها المعدة لنقل السياح والزوار وغيرهم لوحة مكتوبة باللغة العربية تتضمن البسملة ام آية من آيات القران «بسم الله الرحمن الرحيم» «توكلت على الله» « بسم الله مسراها ومجراها . »

● اتيت محطة قطار الشرق باستامبول لاستقل القطار الى اليونان فرأيت جندياً يجلس على حقيبته منتظراً موعد سفر القطار وهو منكب على قراءة القرآن دون ان يلتفت الى احد .

والى هذا كنت اعتقد قبل ان اتيحت لي فرصة زيارة تركيا الحديثة ان القوانين التي وضعت في عهد مصطفى كمال ، وما رافقها من التشديد على السفور قضت القضاء المبرم على الحجاب ، وكنت

اترقب ان ارى المرأة التركية ليست سافرة الوجه فحسب ، بل على شيء كثير من التبرج والزينة .

والواقع اني وان رأيت سفور الوجه عاماً الا ان الحجاب بالمعنى الاسلامي لايزال مرعياً في تركيا اشد منه في بلادنا ، وان التبرج هناك اقل منه في البلاد العربية المتجددة .

ولست اعني في قولي هذا بلاد الاناضول حيث لايزال الاسلام راسخاً كل الرسوخ ، بل اطلقه ايضاً على استامبول التي كانت ولا تزال تتأثر بالعوائد والتقاليد البيزنطية والاوروبية اشد من سواها . فاذا استثنينا الطبقة التي اسرفت في التفرنج وسبقت الغربيين في هذا الميدان ، هذه الطبقة الموجودة في كل البلاد الشرقية ، فانا نجد التركيات من اشد الشرقيات التزاماً للحشمة في اللباس .

فحجاب المرأة هناك على وجه عام سترة طويلة (كبوت) تستر جسمها حتى ركبتيها ، وغطاء يلف رأسها حتى لا يبدو منه سوى وجهها . هذا فضلاً عن بقايا من انواع الازر القديمة لا تزال موجودة بين المسنات والمحافظات .

وفوق هذه الازر انواع اخرى من اغطية الرأس على اشكال مختلفة حتى انني رأيت واحدة احتفظت بالمنديل الاسود الذي يستر الوجه ، ولكنها القته على رأسها وبدت سافرة الوجه ، كما اني رأيت واحدة اخرى تغطي وجهها بطرف ازارها حتى لا يبدو منه الا العينان ، شأن بعض نساء جبل لبنان .

وفي يوم من الايام دعوت بعض الاصحاب لتناول الطعام في مطعم « مصرشارشوسي » باستامبول ، وهو مطعم من مطاعم

الطبقات المختارة، فرأيت هناك عائلة تركية تتناول الطعام وهي تمثل بلادها في انواع ملابس المرأة على اختلافها : فالشيخة منهن كانت تتأزر بازار اسود ضيق عند الخصر يغطيها من ذروة رأسها الى قدمها ، ويعلوه منديل اسود للوجه ملقى على رأسها . والوسطى في العمر ترتدي سترة طويلة وتلف راسها بمنديل ، بينما ان الصبية اليافعة تبدو اوروبية ، ولا اثر للحجاب عليها .

فقلت في نفسي : ان هذه العائلة تمثل تركيا الحديثة خير تمثيل في المرحلتين اللتين مرتا خلال العهد الجمهوري. ذلك لان هذا العهد الذي اطلق حرية الاسرة ، بعد ان كانت مقيدة في العهد العثماني، جعل بالتالي لباس النساء يتأرجح بين اعتبارات الماضي الراسخة وبين تقاليد الحاضر الكاسحة . وكان من عواقب ذلك قيام سفور غير منظم الى جانب حجاب متنوع ، سفور وان اصبح كاملاً بين البنات خريجات المدارس، ولكنه محتشم . فلا يكشفن عن الزنود، ولا يتعمدن ابراز النهود .

واما الرجال فقد تقيدوا اكثر من المرأة بارادة الغازي وبتعليماته ؛ وهم وان القوا الطربوش جانباً، ولكنهم لم يتفقوا على شكل واحد من اشكال القبعات التي يعتمرونها ، بل اكثرهم يمشي مكشوف الرأس ، ولاسيما في المدن .

● **المسحة العربية التي تغشى تركيا**

● يكاد العالم الاسلامي حول البحر المتوسط لا يختلف في طابعه عن العروبة في شيء بسبب وحدة الدين بينها، وما رافق هذه الوحدة من حضارة شاملة ، ولغة واحدة عامة كانت، في وقت واحد، لغة

الدين والحضارة . ولذلك فاذا زرت تركيا الحديثة، فانك لا تلمس فيها روح الشرق بارزة فحسب ، بل ترى مسحة العروبة لا تزال راسخة ، كما كانت في عهد آل عثمان ، ولاسيما في الاسماء وفي اللغة المتداولة وفي التقاليد ، وذلك رغم ما بين العرب والترك من اختلاف في العنصر، ورغم المحاولات التي قامت بها الجمهورية التركية في صدد الالتحاق بالغرب ، والابتعاد عن الشرق ، ورغم ابدال الحروف اللاتينية والاسماء الطورانية بالحروف والاسماء العربية ، فضلاً عن التوجيهات والقوانين .

فاذا قدر لغريب ان يزور اي بلد من تركيا سواء أكان ذلك استامبول ام غيرها ، وهو لا يعلم في اي بلد هبطت طائرته، ودخل مسجداً من مساجدها فرأى الآيات القرآنية من الباب الى المحراب باللغة العربية تزين جدرانها وقببها واركانها، وشاهد الاحاديث النبوية والحكم العربية تعلو حيطانها، ونظر النقوش الجميلة التي تكسو ذلك المسجد وهي على نحو ما يشاهده في بعض البلدان العربية فان هذا الزائر لا يلبث ان يجزم بانه موجود في بلد من بلاد العرب ، خصوصاً اذا سمع الآذان وقراءة القرآن ، ورأى الناس يتبادلون التحيات « السلام عليكم ، وعليكم السلام » وكل ذلك بلغة القرآن .

وليس ذلك فقط بل انك اذا زرت مؤسسات المنافع العامة حول هذه الجوامع وفي امكنة اخرى ، كالمكتبات والتكايا والمدارس والاسبلة والمقابر فانت ترى ايضاً عناوين تلك المؤسسات مكتوبة بلغة العرب ؛ واذا اعتور بعضها تبديل في العهد الحاضر باستعمال الاحرف اللاتينية للدلالة عليها ، فان هذا التبديل الشكلي

ما استطاع مع ذلك ان ينتزع منها كل الطابع العربي .

مثلاً : فقد كانت تقوم في الناحية الغربية من قصر السلطان محمد الفاتح باستامبول محكمة نقش فوق مدخلها الآية :

« واذا حكمتم بين الناس فاحكموا بالعدل . »

ولما حولت الجمهورية هذا القصر الى جـــامعة تسمى جامعة استامبول ووسعته باضافة جناحين اليه وجعلت صرح المحكمة مكتبة لجامعة احتفظت بالآية ، ولكنها علقت الى جانبها لوحة مكتوبة بالتركية وبالاحرف اللاتينية هذا نصها :

« Istambul Universitesi Kutub Hanasi »

والكتب التي هي بيت القصيد في هذا العنوان جاءت عربية حتى ان من يقرأ اللوحة هذه من ابناء العرب لا يصعب عليه ان يدرك المقصود دون ان يكون ملماً باللغة التركية .

وهكذا كل اللوحات واللافتات التي ترفعها الحكومة على مؤسساتها، وفي الشوارع لارشاد الناس ، ومثلها اللوحات التي يستعملها التجار والمؤسسات الاقتصادية والباعة للدلالة على اسمائهم وانواع اعمالهم فانك تجد فيها الكلمات العربية بارزة ، هذا ان لم تكن كل كلماتها عربية مربوطة بروابط تركية . هذا فضلاً عن اللوحات المخطوطة بلغة العرب التي تتضمن الآيات والاحاديث والحكم ، التي لا تزال بعض الناس يحرصون على رفعها في دورهم ومخازنهم للتبرك .

كل ذلك يجعل العربي يكاد يشعر بانه غير غريب في تركيا ولاسيما لما يراه هناك من تشابه التقاليد والعادات، ومن رواج لغته في الاوساط الدينية .

على ان هذا الذي نراه ونشعر به في تركيا ليس يقتصر عليها وحدها ، بل هو بارز في كل البلاد الاسلامية ، سواء أكانت في افريقيا ام في آسيا ، كما هو بارز في كل الاوساط الاسلامية حتى انك تشاهد في بعض انحاء الصين الشهادتين منقوشتين على اغطية رؤوس النساء بالاحرف العربية حتى كأن الاسلام توأم العروبة في كل مكان .

● النزعات التجددية في الناحية الدينية بتركيا

● اتينا في المقال السابق على امثلة من التعصب للدين في الاوساط التركية للتدليل على ان تعاليم الغازي وقوانينه لم تنتزع الايمان من قلوب الشعب ، كما انها لم تبدل التقاليد الاسلامية رغم مرور ربع قرن على هذه المحاولة، وقصد الاشارة الى ان الاتراك، مازالوا يفهمون الاسلام على الوجه الذي وجدوا عليه اباءهم .

والواقع ان الصورة التي استعرضناها انما هي تمثل الاتراك على وجه عام، واما الخاصة فانهم لم يسلموا من التأثر بتعاليم الغازي وسائر المجددين ، بل سايروا تلك التعاليم وخضعوا لروح العصر .

فعلى الباخرة التركية التي اقلتني من بيروت الى ازمير واستامبول التقيت بكهل كان عائداً من مصر مع زوجته الى عاصمة تركيا ، وهو تاجر متعلم ووجيه شركسي الاصل . فكان يحدثني عن وجوب الاصلاح في الدين وتقاليده، وفي عداد ما يراه من الاصلاح الغاء الركوع والسجود في الصلوات .

وقد اعاد حديثه الى الذاكرة ما جاء في خطاب السيد جون كينكسلي بيرج الذي القاه في المؤتمر السنوي الخامس لمعهد الشرق

الاوسط بواشنطن في آذار ١٩٥١ حيث قال في معرض البحث عن تركيا .

« وقد ذكر لي مرة مؤلف كتاب ديني رأيه الشخصي بشأن فروض الاسلام الخمسة» (الايمان بوحدانية الله والزكاة، والصلاة في اوقاتها الخمسة وصوم رمضان والحج) . « وقال ان اثنين منها فقط واجبان اليوم . هو الايمان بوحدانية الله والزكاة . وهو يرى وجوب فتح باب الاجتهاد . وهذا هو رأيه الشخصي الذي لا يرغب في اظهاره علانية . »

والواقع ان هذه الفئة غير قليلة في تركيا، ولاسيما في استانبول وانقره، ولكنها كما اشار كينكسلي لا تجرأ على اعلان افكارها . على ان هذه الفئة موجودة ايضاً في غير تركيا بين الشباب المسلم المجدد .

وربما كان اقطاب الحكم في تركيا من هذه الفئة المجددة لانهم ما ان جمعوا بين مبادئهم التجددية وبين السياسة حتى صاروا لا يعبأون الا بالمصلحة الوطنية دون ان يكون للعواطف، وللنزعات الاسلامية اثر في سياستهم الخارجية .

وآية ذلك موقفهم تجاه فلسطين، ولاسيما في صدد حصار اسرائيل الاقتصادي الذي تقوم به الدول العربية ، هذا الموقف الذي لا يراعون فيه الا مصلحة بلادهم الاقتصادية بالاضافة الى مسايرة واشنطن .

وقبلاً وضعت سلطنة آل عثمان اصابعها في آذانها حينما كان مسلمو الاندلس يرسلون النداء اثر النداء اليها ملتمسين النجدة منها ، ويرجون انقاذهم من شر مستطير وهو شر مجلس التفتيش ومظالمه . بلى فقد اعرضت عنهم وقتئذ الاستانة رغم نزعاتها الاسلامية ورغم ما

كانت عليه من الزعامة في البر والبحر . لذلك فلا مساغ للتعجب اذا رأينا تركيا الحديثة لا تكتفي بادارة ظهرها لقضية فلسطين ، وانما تقبل بوجهها على اسرائيل وتمدها بالترياق الذي ينجيها من خطر الحصار الاقتصادي . على حين ان قضية فلسطين ذات علاقة وثيقة بالاسلام والمسلمين ، وان العالم الاسلامي كله يتضافر في التعبير عن شعوره المشترك بشأنها .

هذا ويرد بعض المراقبين الفتور الديني الذي بدا من قبل ويبدو الآن في الاوساط السياسية التركية الى جماعة « الدونغه » اولئك الذين تآمروا مع الارمن على السلطان عبد الحميد الثاني ، وقاموا في عداد من قام بالانقلاب العثماني باسم «جمعية الاتحاد والترقي» التي استأثرت بالحكم حتى زوال السلطنة . والدونغه هم يهود كانوا يقطنون في ولاية سلانيك اعتنقوا الاسلام بعد الفتح العثماني التماساً للحظوة والنفع اسوة بيهود اسبانيا الذين تنصروا في عهد فرديناند واليزابيت هرباً من مظالم مجلس التفتيش .

وقد بقي ولاء الدونغه الى اليهودية العالمية محفوظاً في قلوبهم ابان عهد السلطنة وبعدها ، وكان يبدو في مناسبات كثيرة ، ولاسيما في المناسبات التي لها صلة باليهود . وآية ذلك ما حدث منذ نيف وعشرين عاماً اثناء انعقاد المؤتمر الصهيوني العالمي في مدينة بال ، وهي معقل اليهود في اوروبا الوسطى . فقد كان رشدي اراس ، وزير الخارجية التركية يومئذ ، موجوداً في سويسرا فافضى بحديث الى مجلة سويسرية لمناسبة هذا المؤتمر جاء فيه :

« انه مسلم من ابوين مسلمين ، ولكنه مع ذلك لا يرى بأساً

ان يعلن انه ينحدر من صلب اجداد يهود ، وانه يعطف على الصهيونية واهدافها . »

على ان تصريحاته هذه كما كشفت الغطاء عن نزعات هذه العصبة المتأصلة فيها فقد برهنت في نفس الوقت على ان الشعب التركي لا يزال يشارك المسلمين في عواطفهم ومراميهم. ذلك لان هذه التصريحات اثارت عاصفة من النقمة عليه في اوساط الشعب ، ولاسيما في الاناضول. حتى اضطر للاعتزال عن الوزارة .

على ان رشدي آراس هو واحد من كثيرين بين الحكام والمسيطرين الذين يرجعون الى اليهودية في الاصل ، والذين لا يزالون يعطفون عليها ، ولا يبالون بالاسلام وبالجامعة الاسلامية ، واذا عرضت قضية دينية ام عرضت قضية ملية جاءت آراؤهم طليقة من كل قيد . وهذا ما يجعل تركيا الحديثة تنقسم الى فريقين بينهما هوة عميقة في التفكير والتدبير ، فريق يمثله بعض اركان السلطة والناشئة التي نشأت في عهدها ، وفريق يمثله الشعب الذي لا يزال يحرص على الاسلام ، ويشعر بوجوب الحفاظ على الجامعة الاسلامية .

الجمهورية التركية حيال العناصر

عندما نتكلم على موقف الاتراك حيال غيرهم من العناصر نستطيع ان نجمل في ناحية بينما لا نستطيع الا التخصيص في ناحية اخرى : فهم يكادون يكونون متفقين على موقف واحد حيال العناصر التركية والاجنبية من غير المسلمين ، ولكنهم يختلفون في هذا الموضوع ازاء العرب وسائر المسلمين ، وذلك تبعاً للسياسة ومناسباتهم الخاصة . فالكوارث التي مني بها الاتراك عهد آل عثمان

من قبل العالم الاوروبي ، ولاسيما ما كان منها نتيجة للفتن العنصرية ابان المحاولات للاستقلال ، خلفت بين الاوساط التركية ، في عهدها الحديث ، ذكريات سوداء لا تزال ماثلة امام الانظار ، ذكريات يزكيها خوف من هذه العناصر ، التي تشكل الاقليات في الجمهورية ، لا يزال بارزاً بين هذه الاوساط ، وريبة لا تفتأ تخامر الدولة في صدد اخلاصهم للوطن .

أ — موقف تركيا حيال الروم

حرصت الجمهورية التركية منذ ان نشأت ، على الوقوف موقف المراقب الحذر حيال الروم الذين ظاهروا دولة اليونان اثناء احتلالها ازمير وضواحيها . ولذلك ما ان استعاد مصطفى كمال بالقوة تلك المنطقة حتى اجلاهم عنها ، سواء من كان منهم من رعية السلطنة ام من رعية اليونان . وهذا الاجلاء وان كان حكيماً في الناحية السياسية لان منطقة ازمير بما فيها وفي سائر الاناضول من آثار كثيرة لليونان وذكريات دينية تشكل خطراً على الجمهورية التركية (١) ، ولان الاروام هم البارزون في تلك المنطقة ، غير انه كان تدبيراً غير صائب في الناحية الاقتصادية ، ذلك لان الترك لم يستطيعوا ان

(١) تفضلت الادارة العامة للصحافة والاذاعة والسياحة في انقرة باهدائي قسماً من منشوراتها عن تركيا فلفت نظري بينها كتابان مصوران عنوان احدهما عجائب كابادوس **Cappadoce** وعنوان الاخر افيس **Ephèse** ، وكل منهما يستعرض آثار اليونان والبيزنطيين هناك ، وينوه بمقدسات الاروام والمواسم التي لا يزالون يقيمونها . فقلت بنفسي ان مثل هذين الكتابين دعاية بارزة لليونان وتاييداً للمطامع التي لا تزال تضمرها بشان تلك البلاد فليس من مصلحة تركيا في الناحية السياسية اذاعتها وان افادت في ناحية السياحة .

يخلفوا الاروام على اعمالهم الاقتصادية، فانحط مستوى هذا المرفأ، وظل راكداً ، بينما المرافىء الاخرى في شرقي البحر المتوسط التي كانت دونه مرتبة جارت التقدم العالمي فازدهرت وسبقته، ونخص بالذكر منها مدينتي بيروت وحيفا .

على ان تركيا الحديثة وان عدلت سياستها العامة حيال العناصر الاخرى في عهد الحزب الديموقراطي الا انها لا تزال على حذرها من الاروام على وجه عام ، وغير مرتاحة لوجودهم في ازمير، ولا تفتأ تشدد الرقابة على العائدين اليها منهم، كما انها حظرت عليهم وعلى الارمن سكنى بورصة .

ولكنها رغم هذا الحرص لم تستطع ان تقف هذا الموقف حيال الاروام في استامبول مراعاة للظروف الدولية . ففي استامبول جاليات يونانية كثيرة العدد ، فضلًا عن آلاف الاروام من رعايا الدولة ، قابضة على زمام الاعمال الاقتصادية في البيوغلي حيث تقوم البنوك والشركات الكبرى ، وفي كل من بيرا وشارع الاستقلال وهو اكبر شارع في استانبول . بل ان هذه المناطق القائمة في القسم الاوروبي من استامبول يتغلب عليها الطابع اليوناني وذلك بلغة سكانها وبمنشآتها ومرافقها التجارية ومسارحها ومقاهيها حتى ان السائح يكاد يحسب نفسه هناك في جزء من اليونان لا في تركيا ، ولاسيما حينما لا يكاد يسمع في تلك المناطق غير اللغة اليونانية .

على ان كل ما استطاعت الحكومة عمله تجاه الاروام من الرعية اليونانية انها فرضت على افرادها الاقامة الموقتة التي تمدد من حين لآخر بمعاملات رسمية ، وتبقى تحت الرقابة .

هذا ولما برزت قضية قبرص في عام ١٩٥٥ ووقع الانقسام بين اهلها من جراء المطالبة بضمها لليونان، وكان الاتراك منهم يعارضون مواطنيهم الروم في هذا المطلب مؤيدين في ذلك نظرية تركيا، بدرت الفرصة لظهور اروام تركيا بالمظهر اليوناني. فكانت تلك المظاهر وبالاً عليهم اذ افضت الى ثورة ذهبت بمتاجرهم في شارع الاستقلال باستامبول، وفي غيرها من المدن . وقد اسدل الستار على ذلك المظهر . ولكنه لم يذهب دون ان يترك في نفس تركيا اثراً زاد في يقظتها حيال هذه الرعية التي لا تتصل بها الا بالاسم ، وحيال الجالية اليونانية المقيمة في تركيا التي وان كانت تقوم هناك بممارسة الاعمال الاقتصادية الا انها ، في الواقع ، هي جند لدولة اثينا يتربصون معها بتركيا الدوائر، ويتمنون ان يروا اليوم الذي تستعيد فيه اليونان قسطنطينية وسائر البلاد التي كانت لبيزنطة من قبل .

ــ ب ــ القضية الارمنية في تركيا

كان الارمن في عداد العناصر التي تطلعت الى الاستقلال في القسم الاخير من القرن التاسع عشر ، وكانوا في طليعة الذين وجدوا العون والتنشيط من الدول الطامعة بتركيا وذلك تحت ستار الحدب على المبدأ القومي .

ولما عقد مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ عقب الحرب العثمانية الروسية عنيت هذه الدول بالقضية الارمنية عنايتها بسائر العناصر الاخرى التي خفت للتحرر من تركيا ؛ فجاء في المادة ٦١ من معاهدة برلين ما يلي :

« يتعهد الباب العالي بان يحقق دون تأخير ، الاصلاحات في

الولايات الآهلة بالارمن ، تلك الاصلاحات التي تتطلبها الحاجة المحلية ، وبان يضمن حمايتهم من الجركس والكرد . وهو سيعطي دائماً علماً للدول عن الوسائل التي سيتخذها هناك بحق الارمن فتراقب تطبيقها . »

وعلى الرغم من ان الارمن كانوا وقتئذ مشتتين في الولايات العثمانيه ،وغير متفقي الكلمة حتى في الولايات الارمنية التي لهم فيها الكثرة فان هذه المادة نشطت متنوريهم للمبادرة الى التكتل في سبيل الاستقلال ، ولا سيما في ارمينيا واستامبول ، واهابت بابنائهم الذين يعيشون في خارج السلطنة للنضال ، وعلى رأسهم سكان لندن الذين وجدوا هناك الرعاية والمساعدة .

والفوا في سنة ١٨٩٠ جمعية كانت غايتها تحرير بني قومهم ، سواء من كان منهم في تركيا ،ام في غيرها من رعايا روسيا وفارس . وكان رأسمالها يقدر وقتئذ بـ ١٣٠،٠٠٠ فرنك ، ثم افضى الاقبال عليها الى زيادة هذا الرأسمال حتى بلغ في اوائل القرن العشرين مليون فرنك من الذهب ،اعد ثلاثون في المائة منها للحركات الانقلابية ، وخمسة وعشرون للتسلح ، وعشرون للدعاية .

وقد وجدت جمعياتهم مسوغاً قانونياً للعمل في الاوساط الاوروبية استناداً الى ان السلطان عبد الحميد الثاني نأى بجانبه عن تطبيق تلك المادة . فلم يجر اصلاحات ، ولم يعط علماً الى الدول الاوروبية بما ينوي القيام به هناك . فضلاً عن تغاضيه عن الكرد والجراكسة مواطني الارمن وخصومهم .

وكان التزاحم قائماً وقتئذ فيما بين انكلترا وروسيا وفرنسا في

نطاق المسألة الشرقية ، وكانت كل واحدة من الدول تسعى لبسط نفوذها على فئة من العناصر العثمانية كي تستند اليها في هذا التزاحم ، فبادرت انكلترا الى استرضاء الارمن واستمالتهم الى جانبها قبل ان تسبقها اليهم روسيا ، واستعانت على ذلك بايفاد المبشرين وبعض البعثات الى مناطقهم تحت ستار دراسة احوال البلاد . وازدادت اهتماماً بقضيتهم اثر المعاهدة الثانية التي عقدتها بطرسبورج مع باريس .

لذلك ما ان تقلد اللورد سالسبوري رئاسة الوزارة سنة ١٨٩٥ حتى بادر الى اثارة المسألة الشرقية بغية القاء خلاف بين هاتين الدولتين يحول دون تحقيق اتفاقها ، ولا سيما في القضية المصرية .

وشاءت انكلترا وقتئذ ان تستعين بفتن تثور بين الارمن والاكراد لبلوغ امنيتها . فما ان حمي وطيس القتال بين هؤلاء حتى ارغت وازبدت بلسان اللورد سالسبوري ، وهددت الباب العالي حتى خيل للناس انها جادة ، وهي في الواقع لو رأت من الدول اجماعاً على اقتسام تركيا لما احجمت عن مشاطرتها في الرأي .

وكان من عواقب انحياز انكلترا الى الارمن على هذا الشكل المكشوف ، بروز نشاط جديد بين اوساط جمعياتهم الثورية اخذ يتفاقم حتى بلغت الجرأة فيهم حد القيام بمظاهرة في استامبول ، على ما هو معلوم من شدة السلطان عبد الحميد وحرصه على ان لا تقوم في عاصمته اية مظاهرات ، ولو كانت غير سياسية . وتمهيداً لهذه المظاهرة ارسلت جمعية هنتشاك الى السفراء اخطاراً (التماتوم) تعلمهم فيه بان الارمن قرروا القيام بالاحتجاج السلمي ، وان اية معارضة من قبل السلطة ستؤدي الى نتائج وخيمة هم غير مسؤولين

عنها . غير ان مظاهرتهم هذه جعلتهم عرضة للمذابح المشهورة التي
لم تقتصر على العاصمة فحسب ، بل شملت بعض الانحاء الاخرى .

وهنا ارادت لندن ان تمثل دور الحامية للارمن ، فهرعت الى
دعوة الدول للاتفاق على التدخل الفعلي ؛ ولكن ظهور غليوم الثاني
امبراطور المانيا بمظهر الصديق للسلطان عبد الحميد حمل فرنسا وروسيا
على اجتناب الضغط على السلطان بغية الحؤول دون اثارة المسألة
الشرقية في وقت غير ملائم لهما . وعلى ذلك كان لا بد للدول ان
تكتفي بوعد السلطان لها باجراء الاصلاحات ، وبمنع رعاياه من
التجاوز على الارمن .

وكانت الأساطيل الاجنبية ترسو في المرافىء العثمانية تأهباً
للطوارىء خلال هذه الازمة : الانكليزية في سلانيك ، والافرنسية
في ازمير ، والروسية في سبستبول ، فرأى الارمن في وجودها
مشجعاً لهم على رفض هذا الحل ، وعلى التمادي في نضالهم . وقد القوا في
سنة ١٨٩٦ القنابل على البنك العثماني بالعاصمة ، الامر الذي جعلهم
عرضة للفتك مرة اخرى ، وجعل انكلترا تتقدم باقتراحات شديدة
تدعو الدول للاتفاق معها ضد السلطنة .

وهنا لم يسع فرنسا الا التدخل بغية ان لا تترك المجال فسيحاً
امام الدونج ستريت لتحقيق خططه المرسومة ، فارسل هانوتو
رئيس وزراء فرنسا مذكرة ينصح فيها الباب العالي بالكف عن
هذه المذابح التي كانت تعطي الحجة لانكلترا لتشديد الحملة على
تركيا ، كما انه استدعى اليه منير بك السفير العثماني في باريس واعلمه
بانه اصدر الامر الى مسيو كامبون سفير فرنسا باستامبول من اجل

مغادرتها اذا لم تقبض الحكومة على مظهر بك قاتل الاب سلفاتور ،
واذا لم تلغ محكمة (فوق العادة) التي شكلتها لمحاكمة الارمن .
وقد ايدت الدول الاخرى هذه المطالب ، ورفضت الاقتراحات
المجحفة التي تقدمت بها لندن . وحينئذ لم يسع الباب العالي الا النزول
عند ارادة الدول ، واذن بانتخاب بطريرك جديد للارمن بعد ان
كان يعارض في هذا الانتخاب . غير ان الارمن لم تزدهم الكوارث
الا شدة في سبيل ادراك استقلالهم . وكانوا يرون بالسلطان عبد الحميد
العقبة الكأداء التي تنتصب امامهم ، فاعتزموا الفتك به . وبينما كان
ذاهباً الى الجامع ليؤدي صلاة الجمعة ، في يوم من ايام سنة ١٣٢٣ هـ
=١٩٠٥ م ، انفجر صندوق عربة كانت تقف على مقربة من مدخل
المسجد مملوء بالمتفجرات اعده الارمن على اساس ان مادة الاشتعال
تمس الديناميت في الساعة المحددة لوصول موكب السلطان الى المسجد .
وقد نجا السلطان من هذه المؤامرة ، ولكنه رأى فيها مبرراً للانتقام
منهم على شكل اشد وعلى اتخاذ المزيد من وسائل الحراسة وقاية
لنفسه منهم .

هذا وكانت الجوالي الارمنية في اوروبا ، ولاسيما في انكلترا ،
هي التي تتولى تدبير المؤامرات في ذلك الجو الطلق . فرأت ان
تستأنف المفاوضات التي جرت ، سنة ١٨٩٠ في اوروبا ، مع احرار
الاتراك على اساس خلع السلطان واعلان الدستور . وكان معلوميان
افندي لولب الحركة في هذا المسعى . وقد اتيح له النجاح عندما تم الاتفاق
بين الفريقين على عقد المؤتمر في فينا . وقد عقد المؤتمر وشهده ،
فيما عدا الاتراك والارمن ، بعض المكدونيين والاروام والكرد

والعرب والارناؤوط واليهود فاتفقوا على ما يأتي :

• قلب الحكومة العثمانية .

• تأليف حكومة دستورية تمثل جميع عناصر المملكة .

• التعاون على ادراك هذا القصد باللجوء الى كل الوسائل الفعالة .

وكان هذا المؤتمر نواة الانقلاب العثماني الذي حدث سنة ١٩٠٨ وانتهى بخلع السلطان عبد الحميد في السنة التالية .

ولكن سرور الارمن الشديد الذي رافق نجاح مهمتهم هذه لم يلبث ان انقلب الى نضال جديد في العهد الدستوري ، ذلك لان احتكاك المبادىء بينهم وبين جمعية الاتحاد والترقي ، التي استأثرت بالحكم بعد الانقلاب ، ادى الى خصام كان من عواقبه مذابح اطنه سنة ١٩٠٩ . التي زادت حدة التوتر بين الترك والارمن . حتى اذا سقطت تركيا في هاوية من المشاكل عقب انكسارها في الحرب البلقانية (١٣٣٠ هـ = ١٩١٣ م) اكتسب الارمن هذه الفرصة لاستئناف نضالهم . وكانت روسيا تشجعهم تشجيعاً مكشوفاً .

وافضى التدخل الدولي الى الاتفاق مع الباب العالي على وضع اصلاحات ادارية تتعلق بهم وبالولايات الآهلة بهم نقتصر على ذكر المهم منها :

• تقسيم ولايات الاناضول الى مناطق يشرف على كل منها مراقب اجنبي .

• تعيين مفتشين عموميين فيها يختارهم الباب العالي من الدول الاوروبية الصغيرة .

• يقوم المدعوون منهم لحمل السلاح بممارسة الخدمة العسكرية ضمن نطاق مناطق التفتيش التابعين لها .

• نزع السلاح اثناء السلم من فرقة الفرسان الحميدية التي كانت تتألف من الاكراد اعدائهم ما عدا ايام التمرينات العسكرية .

• الاعتراف باللغات المحلية لغات رسمية .

• اجراء الانتخابات بعد الاحصاء لمجالس الولايات .

وقد عين الباب العالي السيد وسترلنك الهولندي والكولونيل هوف النروجي مفتشين عامين على ولايات الاناضول لتنفيذ هذه الاصلاحات ، ولكن الحرب العالمية الاولى لم تلبث ان نشبت بعد اشهر معدودات فبدلت الموقف . ذلك ان الارمن توهموا ان في الحرب القائمة فرصة لهم للاثار من الترك فاصغوا الى اغراءات روسيا وانكلترا وحاولوا طعن تركيا في ظهرها في الجبهة الروسية مما ادى الى وقوع الاضطرابات بين جيشها المرابط في تلك الجبهة ، فلم يسع تركيا حينئذ الا الانقضاض عليهم وتمزيقهم شر ممزق دون رحمة . وقد ساقتهم من مواطنهم ، افراداً وجماعات ، الى الولايات العربية في الجنوب ، ولاسيما الى سوريا ، على شكل تتفطر له القلوب .

وكانت هذه الكارثة التي مني بها الارمن اشد كارثة وقعوا فيها ، بل كانت اشد كارثة اصابت عنصراً من العناصر العثمانية المناضلة عن استقلالها ؛ ولكن الارمن كانوا مع ذلك ابرز العناصر انتقاماً من الاتحاديين القابضين خلال الحرب على زمام السلطنة ، وذلك بعد ان دارت دائرة الحرب عليهم وعلى حلفائهم .

وقامت اعمال الارمن الثأرية على خطط وتنظيمات جماعية وضعها زعماؤهم واحزابهم المنتشرون في اميركا واوروبا ونفذتها هيأتهم القائمة في المانيا وكان مدارها اغتيال بعض كبار حكام الاتراك من جمعية

الاتحاد والترقي الذين لجأوا بعد الحرب الى بلاد حليفتهم المـانيا ، ولاسيما برلين. وقد اتيحت لي الفرصة لمعرفة ما طواه التاريخ من تفاصيل هذا الاثار الذي وقع في عاصمة المانيا وذلك من شاهد رأى بعينه شيئاً منها، واعني به ابن خالي السيدعبدالكريم السباعي الذي اتحفني بهذه المعلومات.وهو من كبار ملاكي برلين ،ورئيس بلدية بيروت من سنة ١٩٥٣ الى اذار ١٩٥٦ ، قال :

« كان طلعت باشا رئيس وزراء تركيا خلال الحرب قد لجأ الى برلين حين وضعت الحرب اوزارها . وما ان خرج من داره في ١ اذار ١٩٢١ ماراً بشارع هيلدلبرغ ستراسي حتى اطلق عليه النار طالب ارمني . ولكن القاتل لم يتوار عن العيان ، بل اسلم نفسه للسلطة . وكان من المفروض بعد اعترافه بالقتل ان ينفذ فيه حكم الاعدام ، ولكن المحكمة برأته لاسباب مختلفة كان بعضها يرجع الى وساطات قومه وانصارهم، بينما يرجع البعض الآخر الى مجاراة الرأي العام الذي هيمنت عليه الدعايات والصحف حتى جعلت عمل القاتل مبرراً . ذلك ان القاتل ادلى للمحكمة بانه واحد من اسرة يبلغ عدد افرادها ٢٤ شخصاً قتلهم الاتراك بتوجيه الحكومة ، ولم يفلت منهم احد سواه ، وانه ما كاد يرى طلعت باشا امامه ، وهو الذى كان يرأس الحكومة وقت الكارثة الا واندفع منساقاً بآلامه الى اطلاق النار عليه ثأراً لذويه .

« وقد شاءت المحكمة ان تثبت فيما اذا كان الفتك بالارمن صدر عن وحي من حكومة استامبول ، او هو من فعل الاتراك أنفسهم ، فاستمعت الى الجنرال الالماني الذي كان موكولاً اليه

تنظيم الدفاع عن الدردنيل ، واستناداً الى شهادته التي اتهم بهـا الحكومة مباشرة اصدرت المحكمة حكمها بالبراءة.

«وقد غادر القاتل ، المانيا بين التهليل والتكبير،وما ان حط الرحال باميركا حتى هرع الارمن هناك الى الاحتفاء به كالاحتفاء بالملوك ، واقاموا له تمثالاً ، وتسابقوا الى التبرع اكراماً له حتى بلغ ، على ما قيل ، مجموع التبرعات نحو مليون دولار .ثم اختار هذا الشاب ان يقيم في بيروت ، ولا ادري اذا كان لا يزال موجوداً فيها .

«ومن الجدير بالذكر في هذه المناسبة الاشارة الى الامير شكيب ارسلان الذي كان يقيم في برلين اثناء محاكمة هذا القاتل. فقد حز في نفسه ذلك الموقف الذي كانت تقفه صحف المانيا في صدد تبرير القتل ، فحمل حملة شعواء على تلك الصحف وعلى القاتل المتعمد ، ولكن المحكمة جنحت الى مراعاة الرأي العام ، ولم تأخذ بحجج الامير المتطوع . »

« على ان الفتك بطلعت باشا لم يشف غل الارمن،بل انهم بعد شهر واحد من اغتياله اعدموا رمياً بالرصاص، كلاً من جمال عزمي وبهاء الدين شاكر من الاتحاديين ، وذلك حينما كانا يغادران منزلهما في ضاحية من ضواحي برلين تسمى كرونفالد . وقد وضع جثمان كل منهما في تابوت من الرصاص اسوة بجثمان طلعت باشا ، وصفت هذه التوابيت ، ملفوفة بالعلم العثماني ، الى جانب بعضها البعض في

قبو يقع تحت المصلى في المقبرة الاسلامية التركية . (١)

وظلت هذه التوابيت مصفوفة هناك نحو ست سنين على امل نقلها الى استامبول . ولكن انتقال السلطة الى اتاتورك وحكومة انقره افضى الى عدم الاكتراث بهؤلاء القتلى ، والى دفن كل منهم في المقبرة الاسلامية ببرلين على صف واحد بقبور دوارس لا يميز احدها عن الآخر الا لوحات خشبية ذكر على كل منهـــا اسم صاحب القبر . »

هذا وكان الارمن قد مضوا في سبيلهم لاغتيال البقية الباقية من اعدائهم الاتحاديين . وبعد مضي شهر واحد من اغتيـــال عزمي وبهاء الدين شاكر قتلوا ، في روما في ايار ١٩٢١ ، البرنس سعيد حليم احد الذين تولوا رئاسة الوزارة في تلك الحرب . كما انهم اغتالوا في تفليس الجنرال احمد جمال باشا ، وهو سفاح بلاد الشام ، فانتقموا للعرب منه . ولكنهم لم يكتفوا بالثأر من الذين اتهموهم مباشرة بانهم دبروا المذابح الارمنية اثنـــاء الحرب العالمية الاولى ، بل ارادوا الانتقام ايضاً من الشعب التركي نفسه .

وكانت ولاية اطنه ، وهي مقر دولتهم الصغرى فيما مضي من الزمن ، قد دخلت ضمن نطاق الانتداب الافرنسي بعد الحرب . واطلق

---

(١) كانت بلدية برلين قدمت الى الجوالي الاسلامية المقيمة فيها أثناء الحرب العالمية الاولى ارضا لتكون جبانة للذين قضوا نحبهم خلال تلك الحرب ، فدفن فيها بضعة اشخاص من عرب وايرانيين وهنود واتراك . وكانت تلك الجبانة مهملة ولا جدران لها . ولكن الامير شكيب ارسلان خف الى الدعوة لبناء مصلى فيها واقبية للغسل وتصوينة وغرفة للحارس . وقد تم له ما اراد بمساهمة بعض المسلمين هناك وعلى راسهم السيد عبد الكريم السباعي .

عليها الافرنسيون اسم كيليكيا فتهافت الارمن عليها وتولوا مناصب الحكومة فيها ، وخيل لهم انهم سيعيدون هناك دولتهم المنقرضة . ومـــا ان لمسوا من الافرنسيين بوادر التغاضي عنهم حتى شرعوا يثأرون من اتراكها ، ويسرفون في القتل الى حد بعيد . وقد شهدت ذلك بنفسي اثناء زيارة قمت بها لتلك البلاد في سنة ١٩١٩ .

بل اني ما ان دخلتها زائراً حتى فوجئت بحادث غريب جعلني اقدر الحالة على شدتها : ذلك انني رافقت صدفة على الباخرة اسرة بيروتية كانت قاصدة الى مرسين فأطنه . وهي اسرة نوري بك الخوجه مدير القرمان (المحروقات) في الولاية . وكان نوري بك قد جاء الى مرسين لاستقبال عائلته فرحب بي ترحيباً كبيراً ، ودعاني لان ارافقهم الى اطنه بالقطار الحديدي . وهناك في محطة الخط الحديدي بمرسين تركتهم هنيهة كي ابتاع تذكرة السفر . تركتهم فرحين بالتلاقي بعد الغياب مستبشرين ، ولكني مـــا ان عدت اليهم حتى شاهدتهم على اشد ما يكون من الارتباك ومن القلق والاضطراب ، وهم مع ذلك ساكتون ساهمون كأن على رؤوسهم الطير .

الله الله ماذا حدث اثناء غيابي ؟

ان بعض شذاذ الارمن انقضوا على الفتاة الخادمة التي كانت ترافقهم من بيروت ، وسحبوها من بينهم على مرأى ومشهد من الناس والحكومة بحجة انها ارمنية . وهي في الواقع لبنانية ، ولا تعرف كلمة غير عربية .

ذلك كان امراً عجيباً في نظري ، ولكن الاعجب منه سكوت نوري بك عن هذا التعدي وهو الموظف الكبير في الولاية ، وتخلفه

عن اية محاولة لانقاذ الفتاة التي هي في عهدتهم .

وكيف السبيل الى حل هذه الاحجية ؟

لم يكن ذلك بالسهل لان الجماعة لايريدون الخوض في الموضوع ، وانا لم اكن قد وقفت على احوال كيليكيا في عهد الانتداب الافرنسي .

ومهما كان السبب فانا شاب وصديق للمدير ومدين له بحفاوة زائدة استقبلني بها . لذلك فقد رأيت من واجبي ان انساق وراء العاطفة واخف لاسترداد الفتاة . ولكني ما ان هممت بذلك حتى خرج نوري بك عن جموده وردني بقوة ، وعاونته امرأته وابنته ، وقالوا جميعاً بصوت خافت : « ماذا تفعل انك تعرض نفسك للقتل حتما ، وقد قتلوا قبلك مواطنك كمال بك اليافي ، وهو من اكبر موظفي كيليكيا دون ان تبدي الحكومة اي حراك ، فارجع راشداً الى مكانك ؟ »

وحينئذ ادركت السبب في التزام نوري بك موقف الجمود حيال هذا التعدي السافر ، وتراجعت ، وكانت الضحية تلك الفتاة البريئة التي لم نعرف ، من بعد ، شيئاً عن مصيرها .

ودار الفلك دورته فاذا بالافرنسيين الذين افسحوا المجال للارمن في كيليكيا يتعاقدون مع الغازي مصطفى كمال نكاية بالانكليز ، وينسحبون من كيليكيا تاركين له الذخـــائر ، ومتخلفين عن اصحابهم الارمن هناك .

وكان من عواقب ذلك ان اتيحت الفرصة مرة اخرى للاتراك لأن يثأروا من الارمن ويطردوهم من بلادهم . فكانت لهم هجرة اخرى الى الجنوب الى البلاد العربية لا رجعة بعدها .

ومن المؤسف ان الافرنسيين الذين تخلوا عن الارمن في ولاية اطنه ، واضطروهم للجلاء عنها كرة اخرى لم يتورعوا عن اعدادهم حرساً لهم في وجه تركيا معرضين لمذابح جديدة ، وذلك باسكانهم في الجزيرة عند تخوم الاتراك . وكانت غايتهم من ذلك الاستعانة بهم اذا تجاوزت تركيا الحدود . ولكن كان من حسن حظ الارمن ، في هذه المرة ، ان الاتراك لم يتعرضوا للجزيرة وما بعدها بل اكتفوا بالاستيلاء على متصرفية اسكندرونة العربية التي سلمها لهم الانتداب الافرنسي بالاتفاق مع انكلترا .

هذا وكان قد بقي في تركيا الجمهورية فريق من الارمن اختاروا المكوث في مواطنهم ، ولاسيما كيليكيا واستامبول . ولكن عددهم اصبح قليلاً حتى لم يعد يحسب حساباً لخطرهم . ومع ذلك فكانوا عرضة للمراقبة والضغط خلال رئاسة كل من اتاتورك وعصمت اينونو حتى ان الرئيس اينونو لم يسمح بانتخاب بطريرك لهم خلفاً للبطريرك المتوفي ، واكتفى بان تدار البطريركية بالوكالة . ولكن طرأ تعديل كبير في معاملة الارمن منذ استيلاء حزب الرئيس جلال بايار على الحكم في سنة ١٩٤٦ . وقد اذنت الحكومة في مطلع هذا العهد بانتخاب بطريرك جديد لهم هو من اصدقاء الرئيس بايار ، ورفعت عنهم القيود السابقة ؛ كما انها سمحت للذين غادروا تركيا من قبل بان يزوروا المتخلفين فيها من اهليهم .

— ج — موقف تركيا حيال اليهود

كان اليهود ظهيرين للمسلمين في اسبانيا ، ولذلك فقد منوا بمثل ما مني به المسلمون هناك من الاضطهاد بعد ان حرر الاسبان بلادهم ،

وكان نصيبهم نصيب المسلمين في الجلاء عنها الى الممالك الاسلامية المترامية على شواطىء البحر المتوسط. وقد لجأ اكثرهم الى المرافىء العثمانية التي كانت مزدهرة وقتئذ، ولاسيما الى استامبول وازمير وسلانيك، بدافع الكسب المادي وفقاً لطبيعتهم، هذا فضلاً عن الذين جلوا منهم الى اوروبا والى شمالي افريقيا.

وقد وجدوا في البلاد الاسلامية مجالاً فسيحاً لمواهبهم الاقتصادية فأثروا وصار لهم في عاصمة السلطنة العثمانية بعض النفوذ، ولاسيما اثناء عهد (تلزيم) الولايات حينما كانوا يقرضون الملتزمين الاموال لتأدية المستحقات للخزينة. واعتنق بعضهم الاسلام حباً في الاشتراك بالحكم. ودالت دولة آل عثمان، ولكنهم استطاعوا بثروتهم ودهائهم، ان يحتفظوا بنفوذهم في عهد تركيا الحديثة، بل ازدادوا قوة على قوة بما استمدوا في العصر الحاضر من التأييد من قبل اليهودية العالمية، ولاسيما من يهود اميركا. ان تركيا الحديثة اصبحت حليفة واشنطن ضد الاتحاد السوفياتي واصبح اعتمادها الوحيد على الولايات المتحدة في سبيل سد عجزها المالي، وهي تطلب كل عام المزيد من المساعدات لتغطية نفقاتها الحربية الكثيرة من اجل التسلح . فكان عليها ان تساير يهود بلادها وتراعيهم مسايرة لليهودية العـالمية المتحكمة في توجيه سياسة الكونغرس بواشنطن، وذات النفوذ الكبير على وول ستريت: السوق المالية في نيويورك.

وقد ظهر لي اثناء وجودي بتركيا خلال شهر حزيران ١٩٥٥ مثالاً من امثلة ترويض اليهود لتركيا. ذلك انها كانت منذ بداية العام تلح على واشنطن من اجل امدادها بـ ٢٥٠ مليون دولار هي

المساعدة المقررة لها عن تلك السنة المالية التي تنتهي في شهر حزيران المذكور. ولكن يهود اميركا ضغطوا على واشنطن كي ترفض طلبها، وذلك لانهم ارادوا الاقتصاص منها على سياسة التقارب التي برزت بوادرها بين استامبول ودمشق وبيروت في ذلك الحين.

تلك السياسة التي مهدت لها تركيا بايفاد الدكتور فخر الدين كريم كوكاي حاكم استامبول ورئيس بلديتها الى بغداد ودمشق وبيروت.

وقد كنت تعرفت الى حاكم استامبول المشار اليه اثناء المأدبة التي اقامها له المجلس البلدي في بيروت، فاشار الى مهمته اشارة عابرة بقوله في حديث خاص: «**نحن اهل الثقافة نمهد السبيل لرجال السياسة لينعم هؤلاء بسلوكها.**»

وكأن الدكتور فخر الدين وجد الجو في بيروت ملائماً لمهمته فاذا بالرئيسين الاولين التركي واللبناني يتزاوران.

وقد كان لهذا التقارب بين العرب والترك اثر بالغ في الاوساط اليهودية، فحملت صحف اميركا اليهودية على تركيا، اثناء وجودي فيها، وشرعت تعلن معارضتها لامداد استامبول بالمال المقرر لها عن ذلك العام. ولا زلت اذكر تلك المساجلة التي قامت بين كل من جريدة نيويورك تايمس وجريدة ظفر التي تنطق بلسان الحزب الديموقراطي باستامبول، كما اني لا زلت اذكر كيف ان تركيا ظلت تساير هذه الجريدة رغم حملاتها الشديدة عليها الى حد انه لما زار مراسلها مستر هرست انقره في ذلك الحين اقام الرئيس جلال بايار مأدبة فخمة على شرفه.

على ان حملات يهود اميركا على تركيا، التي نشطت اثر امتداد

يدها الى مصافحة البلاد العربية ، سرعان ما اثمرت ؛ فاذا بواشنطن تقتر على تركيا العطاء ، ولا تعطيها الا اللمم . وقد قرأت وانا في استامبول في جريدة الاوريان اليهودية التي تصدر هناك باللغه الافرنسية النبأ التالي :

«واشنطن ١١ حزيران ١٩٥٥ : اعلنت حكومة اميركا بانها قررت منح تركيا ثلاثين مليون دولار بسرعة كمساعدة اضافية . وذلك نتيجة للمفاوضات التي دارت بين الفريقين في انقره وواشنطن لاستقرار الحالة الاقتصادية في تركيا . وهذه المنحة تجعل المساعدات الاميركية لها تبلغ مائة مليون عن السنة الجارية التي تنتهي في هذا الشهر . وتعتبر هذه المنحة من قبل التقدير لتركيا على المساعدات القيمة التي ما زالت تسديها للعالم الحر . »

ولكن تركيا لم تكن راضية عن هذا المقدار من المساعدة ، خصوصاً وان حالتها الاقتصادية ، التي يعبر عنها سقوط نقدها المتداول ، تتطلب المزيد من المساعدة على ان لا تكون اقل من ثلاثمائة مليون دولار .

وهذه الامثولة وحدها توضح لنا ، نحن العرب ، لماذا تنأى تركيا بجانبها عن قضية فلسطين ، ولماذا تمد رجلاً وتؤخر اخرى في صدد توثيق روابطها الاخوية بدولنا المجاورة لها . ان اميركا ورطت تركيا في الظهور بمظهر العدو اللدود لاتحاد الجمهوريات السوفياتية ، وجرتها ايضاً الى الاسراف في التسلح اسرافاً القاها في ازمة اقتصادية خانقة لا دافع لها الا باستمرار المساعدات الاميركية .

وكان من عواقب ذلك ان وقعت تركيا في شراك الرأسمالية

اليهودية . كما ان هذه الامثولة تبين لنا العذر الذي تتلمسه امامنا تركيا في تبرير موقفها حيال اسرائيل ، ولا سيما في صدد افساح المجال لها لنشر دعاياتها الصهيونية هناك وتوثيق العلاقات الاقتصادية . واي عذر هذا ؟

ان تركيا لا تجهل اساليب الدعايات الشيطانية التي يتولى كبرها عمال اسرائيل في انقره واستامبول للتبعيد بينها وبين الدول العربية المجاورة . ولكنها تتجاهل هذه الاساليب بعد ان سقطت في حبائل الرأسمالية اليهودية . ومن الجدير بالذكر هنا ان في تركيا ، ولا سيما باستامبول وانقره شبكة من عمال الصهيونية هي كالاخطبوط تمد ايديها الى البلاد العربية المجاورة ، فتعمل جاهدة لتوتر العلاقات بين الفريقين ، رغم ما بينهما من اواصر الجوار والدين ، وذلك بما تنشره في البلدين من الانباء الملفقة التي من شأنها اثارة النعرات العنصرية .

فعدا الجرائد اليومية اليهودية التي يستند اليها عمال السوء فلهم مراسلون في البلاد العربية دأبهم تكبير الانباء المزعجة وتحريفها لاثارة الترك على العرب ؛ كما لهم مراسلون آخرون في تركيا ديدنهم نقل الاخبار الى البلاد العربية على شكل يثيرها ضد الترك .

وقد اتيح لي في استامبول ان ارى شيئاً من دعاياتهم هذه في ثلاث جرائد يصدرها اليهود هناك وهي :

(١) جريدة الشرق — **Le Journal d'Orient**

(٢) نجمة الشرق — **l'EtoiLe du Levant**

(٣) شالوم — **Shalom**

والجريدتان الاولتان تصدران باللغة الافرنسية ، بينما تصدر الثالثة باللغتين التركية والاسبانية معاً ، هذا فضلاً عن نشراتهم التي

لا تستنكف الفنادق والاندية عرضها بارزة امام انظار السياح والمواطنين . وما اكثر ما وجدتها في امكنة كثيرة .

وقد رأيت شيئاً من هذا القبيل في فندق بيره بالاس : رأيت كتيباً مصوراً صادراً باللغة الانكليزية اسمه «اسرائيل» يستعرض مراحل التقدم في فلسطين المحتلة في نواحيها العامة وذلك منذ قيام اسرائيل سنة ١٩٤٨ حتى الآن . ويستند الكتيب الى الارقام والاحصاءات حتى اذا قرأه الغريب ينأى بجانبه عن حجج العرب المستندة الى الحق الصريح . هذا اذا بلغت دعايات العرب الهزيلة مسامعه .

اضف الى ذلك ان كثرة اليهود في تركيا ولاسيما في استامبول ، من شأنها ان تعزز مكانتهم هناك . فقد قيل لي ان عددهم يناهز مايتي الف شخص ، ربعهم يقيم في عاصمة تركيا السابقة .

والمفروض ان لا يكون هذا العدد كافياً لادراك اليهود ما ادركوا من النفوذ في تركيا لولا انهم القابضون على زمام الشؤون الاقتصادية بحيث يستطيعون ان يوجهوا الصحف الوجهة التي يرضونها ، وان يؤثروا على اصحاب الشأن ، ليس بثروتهم فقط ، وانما بالاستناد الى الصهيونية العالمية .

ان الشعب التركي يشعر بالم هذا الواقع ، كما يشعر الشعب الاميركي وغيره بثقل وطأة هذا الاخطبوط ، ولكنه لا يجد عنده القدرة على الخلاص من شره ، فيترقب ان يأتيه الفرج من حيث لا يحتسب .

د — موقف تركيا حيال العرب

اثيرت في العهد الدستوري ، وذلك في آخر حكم آل عثمان ، قضية حقوق العناصر ، فكان من عواقبها الاصطدام بين الترك من

جهة ، وبين كل العناصر العثمانية من جهة اخرى .

وشمل هذا الاصطدام ، فيما شمل ، العلاقات التركية العربية ، وافضى بالتالي الى مطالبة العرب بالاستقلال التام . فكانت تلك الفترة اولى المراحل التي باعدت اكثر فاكثر بين قلوب العنصرين الكبيرين اللذين كانت تتألف منهما السلطنة العثمانية . ثم جاءت المرحلة الثانية اثناء الحرب العالمية الاولى حينما علقت تركيا على الاعواد فئة من رجالات العرب بتهمة الخيانة لمطالبتهم بالاستقلال ، وحينما انضم شريف مكة باسم العروبة الى صفوف الحلفاء ، وزحف لاجلاء العثمانيين عن البلاد العربية ضارباً صفحاً عن الجامعة الاسلامية .

وقد اعتبر الاتراك هذا الانضمام الى الحلفاء خيانة من الشعب العربي ، وزعموا انه كان سبباً جوهرياً من اسباب خسرانهم ، مع حليفتهم المانيا ، الحرب في الشرق الادنى . وازدادت نقمتهم على العرب من جراء فتك بعضهم بفلول الجيش التركي ابان انسحابه من سوريا .

ولذلك ما ان استتب الامر لمصطفى كمال وصحبه في انقره حتى ظهروا بمظهر الجفاة تجاه الامة العربية كافة ، وشرعوا يضيقون على ابنائها المقيمين في جمهوريتهم ، ولاسيما في ولاية اطنة (كيليكيا) حيث توجد اقلية عربية كثيرة العدد ذات مراكز اقتصادية مرموقة .

ومن الجدير بالذكر هنا ان الاتراك حفظوا لاهل بيروت ذكريات طيبات لما احاطوا موظفيهم في الولاية من الرعاية والحماية اثناء جلاء تركيا عن سوريا . وقد اتت مناسبة سنة ١٩١٩ شهدت فيها بنفسي الاثر المشكور الذي خلفه البيروتيون في الاوساط التركية . ذلك ان الغلاء ظل مستفحلاً عقب الحرب في اثمان بعض

الحاجيات من جراء عدم الاستقرار بالاضافة الى نقصان اسباب النقل . وكانت اثمان اللحوم في منطقة بيروت مرتفعة جداً لقلة ورود المواشي ، ولكثرة الجيوش المحتلة . فبدا لي ان اساهم في تخفيفها باستيراد خمسة آلاف رأس غنم من ثغر سلفكة في الاناضول .

وما ان تناولت برقية من وكيلي هناك تتضمن ان الاغنام جاهزة للشحن حتى استأجرت باخرة اسمها « اجبشن برنس » من شركة برنس لين بالف جنيه مصري اديت نصفها سلفاً على ان تنقل الباخرة الماشية على دفعتين .

واتفقت مع الشركة على التلاقي بالباخرة بمرسين مرفأ كيليكيا، وكان تابعاً للانتداب الافرنسي . بيد اني ما ان وصلت الى هذا الثغر وكشفت لاصحابي فيها عن سبب مجيئي حتى رأيتهم يجمعون على رأي واحد مداره التوقف عن متابعة السفر الى سلفكة . وحجتهم في ذلك ان الاستقرار لم يكن متوفراً في هذه المنطقة ، فضلاً عن اني ساستقل اليها باخرة انكليزية ، والانكليز لا يزالون على جفاء مع الغازي مصطفى كمال صاحب تلك البلاد .

وهنا ادركت حراجة الموقف، ولكني مع ذلك اخترت المضي في سبيلي آملاً ان اقنع ربان الباخرة بان لا يرفع ذلك العلم البغيض عند الاتراك حين دخول المرفأ . ولكنه رفض رفضاً باتاً رغم اني جربت ان اغريه بالمال الكثير .

وفي صباح اليوم التالي كانت الباخرة تدخل ميناء سلفكة رافعة الراية الانكليزية على غير انتظار من الحكومة . وكانت مفاجأة حملت السلطة على الاضطراب، لما كان بين الانكليز وبين مصطفى كمال

من توتر العلاقات، فاذا بالفلك تتجه نحو السفينة وعلى رأسها قارب يقل المتصرف واعوانه حتى اذا دنا من الباخرة حاولوا الاتصال بالربان لاستجلاء سبب قدومها لتحديد موقفهم حيالها. فبرزت اليهم محيياً تحية الاصحاب للاصحاب ، وقدمت اليهم نفسي ، ورجوتهم ان يوفدوا الي واحداً منهم لاعرب له عن الغاية من قدومي .

ثم ما ان احاطوا علماً باسمي واسم بلدي وسبب مجيئي حتى هرع المتصرف وصحبه الى ظهر الباخرة . واستقبلوني احسن استقبال ذاكرين ما لبيروت من الايادي البيضاء اثناء الجلاء . ودعوني الى النزول معهم الى المدينة . وابرق المتصرف الى انقره يعلمها الخبر باسلوب موافق. فاذا بالجواب يرد حالاً بالترخيص لي بنقل الاغنام مع التوصية بي . اه

هذا وكان الاتراك الموتورون من العرب غير مطمئنين للذين تخلفوا منهم في البلاد التركية، ولذلك فان الحكومات التي تعاقبت في انقره ضيقت عليهم ووضعتهم تحت المراقبة . وخلال ما كانت تمضي في سياسة التتريك كانت تحظر عليهم المراسلة باللغة العربية والتكلم بها فضلاً عن انشادها . والى هذا فقد عمدوا الى اجبارهم اسوة بغيرهم على ان يختاروا كنى غير عربية ترجع الى الطورانية .

ثم لما اتيح للكماليين الحاق متصرفية اسكندرونة الى جمهوريتهم شددوا ، اكثر فاكثر، على اهلها في ممارسة سياسة التتريك، واكثرهم من العرب ، واطلقوا على هذه المتصرفية اسم هـاتاي بدلاً من اسكندرونة بغية ان يكون التتريك شاملا حتى اسمها .

وحيال هذا الضغط على العرب هناك وفي سائر الجمهورية التركية

اضطر هؤلاء لاخفاء قوميتهم ، وللظهور بمظهر الاتراك ، وكان
بعضهم يتظاهر بالتعصب للطورانية تدليلاً على اخلاصهم للدولة، وتذليلاً
للصعوبات التي كانت تواجههم. ثم اتى على ذلك نحو ربع قرن خفت
خلاله تباعاً عوامل التوتر بين الشعبين بمقدار ما كان المجال هناك
يفسح لبروز العواطف الاسلامية وتناسي الخلافات السياسية. وكان
من عواقب ذلك ان عاد المخضرمون من الاتراك ، ولاسيما اهل
الاناضول ومن حولهم، الى ابداء تعاطفهم الاول نحو ابناء العرب.
ولكن رجال السياسة والناشئة التي تربت في مدارسهم ظلوا حتى
الآن على جفائهم للعرب، ذلك لان السياسة وذكريات الماضي كانتا تثيران
هذا الجفاء بينما ان الدعايات اليهودية تعمل عملها من اجل استمراره ، وقد
قال لي احد التجار اللبنانيين باستامبول في مجال التدليل على ذلك انه رغبة
في تسهيل اموره كان كثيراً ما يضطر لاخفاء جنسيته .

والواقع ان ذلك الجفاء وان ظل موجوداً على وجه عام بين
الشعبين في تركيا الا ان الضغط على العرب الذي كان في عهد الجمهورية
الاولى لم يبق على حاله: فقد اجتمعت باستامبول بتاجر آخر عربي
الاصل من اهالي مرسين وعلمت منه بان ذلك التضييق الذي مني
به ابناء العرب في عهد مصطفى كمال قدزال، وان الحظر عليهم بان
لا يتكلموا اللغة العربية لم يبق له اثر ، بل صاروا منذ سنة ١٩٤٠
تقريباً احراراً ، يتراسلون باية لغة شاؤوا ،وينشدون بالعربية ،
كما يتكلمون بها عند الحاجة .

وفضلاً عن ذلك فقد برزت في اوساط بعض الخاصة في استامبول
وانقره فكرة ترمي الى توثيق العلاقات بين العرب والترك، وانشأوا

من اجل تحقيقها الجمعيات . عرفت منها جمعية في استامبول يرئسها
الاستاذ حلمي ضيا اولكان الاستاذ في كلية الآداب. ومن انصارها
الاستاذ فؤاد خلوصي دمرللي نائب استامبول سابقاً . واخرى في
انقره كان يرئسها المرحوم الاستاذ عمر طوغرول نائب قونية، ومن
انصارها المحامي الاستاذ علي وصفي عطا خان . وقد اجتمعت ببعض
اعضاء هاتين الجمعيتين وتبادلنا الرسائل . فعلمت شدة حرصهم على
ازالة كل جفاء بين الشعبين ، وعلى توثيق العلاقات الاخوية بينهما
خدمة لهما ولمصالحها المشتركة .

على ان هذه البادرة وان كانت تقابل بالتشجيع من قبل حكومة
الرئيس جلال بايار المتزنة الا ان المدارس التركية لا تزال ،حتى
في هذا العهد ،بعيدة عن المشاركة في تمهيد الافكار لها . فقد زرت
جامعة استامبول سنة ١٩٥٥ وتحدثت الى بعض طلابها وطالباتها ،
وكان من المفروض ان استهل حديثي معهم بالتعريف عن اسمي
واسم بلدي ،وذلك اثناء ما كان الرئيس جلال بايار يزور لبنان .
وما اشد دهشتي حينما لمست ان بعضهم لا يعرف شيئاً عن بيروت
ولا عن لبنان ، حتى التبس عليهم الامر بين لبنان وليبيا .

هذا فضلاً عن انني لاحظت شيئاً آخر ،واعني بذلك ان المدارس
قليلة العناية باللغات الاجنبية شأن البلاد الانكلوسكسونية، فكان
من الصعوبة التفاهم معهم باحدى اللغتين الافرنسية ام الانكليزية
فضلا عن العربية . بل الاعجب من ذلك انني تعارفت في قطار
الشرق اثناء ذهابي لسلانيك واثينا الى آنسة تركية من انقره كانت
تستقل القطار ذاهبة الى مونيخ لا كمال علومها وللتخصص في الهندسة،

وهي مع ذلك لا تعرف الا التركية .

ولما اعربت لها عن الصعوبات التي ستلاقيها من جراء جهلها لغة المدارس التي تقصد اليها اجابتني انها ستسهل دراستها بتعلم اللغة الالمانية ، ثم تعكف على دراسة الفنون التي جاءت لتحصيلها .

على اني اود ان لا اختم هذا البحث دون الاشارة الى صفة التعالي التي يلمسها الغريب بين الاتراك ، ولاسيما اذا كان من العناصر التي كانت ، من قبل ، تحت سلطتهم . ويرجع ذلك الى مرور قرون على الاتراك كانوا فيها اصحاب الامر والنهي ، وكانوا فيها ينشأون نشأة عسكرية ، ثم زالت تلك القرون دون ان تمر مدة كافية لاستئصال ما في نفوسهم من طبائع الحكم والجندية ، ولاسيما في المدن الكبرى . ولا بدع . فلكل امرء من دهره ما تعودا ...

.....

انتهى طبع الكتاب في آخر شوال ١٣٧٦

الموافق ٢٩ مايس ١٩٥٧

فهرست الكتاب

صفحة

الفصل العاشر

الفصل الحادي عشر

الفصل الثاني عشر

كتب المؤلف المطبوعة

	صفحة	
المرأة في التاريخ والشرائع	٢٧٦	قطع كبير
فلسفة التاريخ العثماني (الكتاب الاول)	٣٠٤	»
المرأة في التمدن الحديث	٢٨٠	»
اوليات سلاطين تركيا	٠٨٠	قطع صغير
الانتدابان في العراق وسوريا	١٣٧	قطع كبير
فلسطين اندلس الشرق	٢٨٢	قطع وسط
قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور الجزء الاول	٢٣٠	قطع كبير
قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور الجزء الثاني	٢٦٤	»
الحلقة المفقودة في تاريخ العرب	٢٤٠	قطع وسط
واشنطن تعبد الطرق لموسكو في بلاد العرب والمسلمين	٠٩١	قطع وسط
فلسفة التاريخ العثماني (الكتاب الثاني)	١٩٧	قطع كبير
العروبة والشعوبيات الحديثة	٢٣٢	قطع وسط
العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب	٢٢٧	»